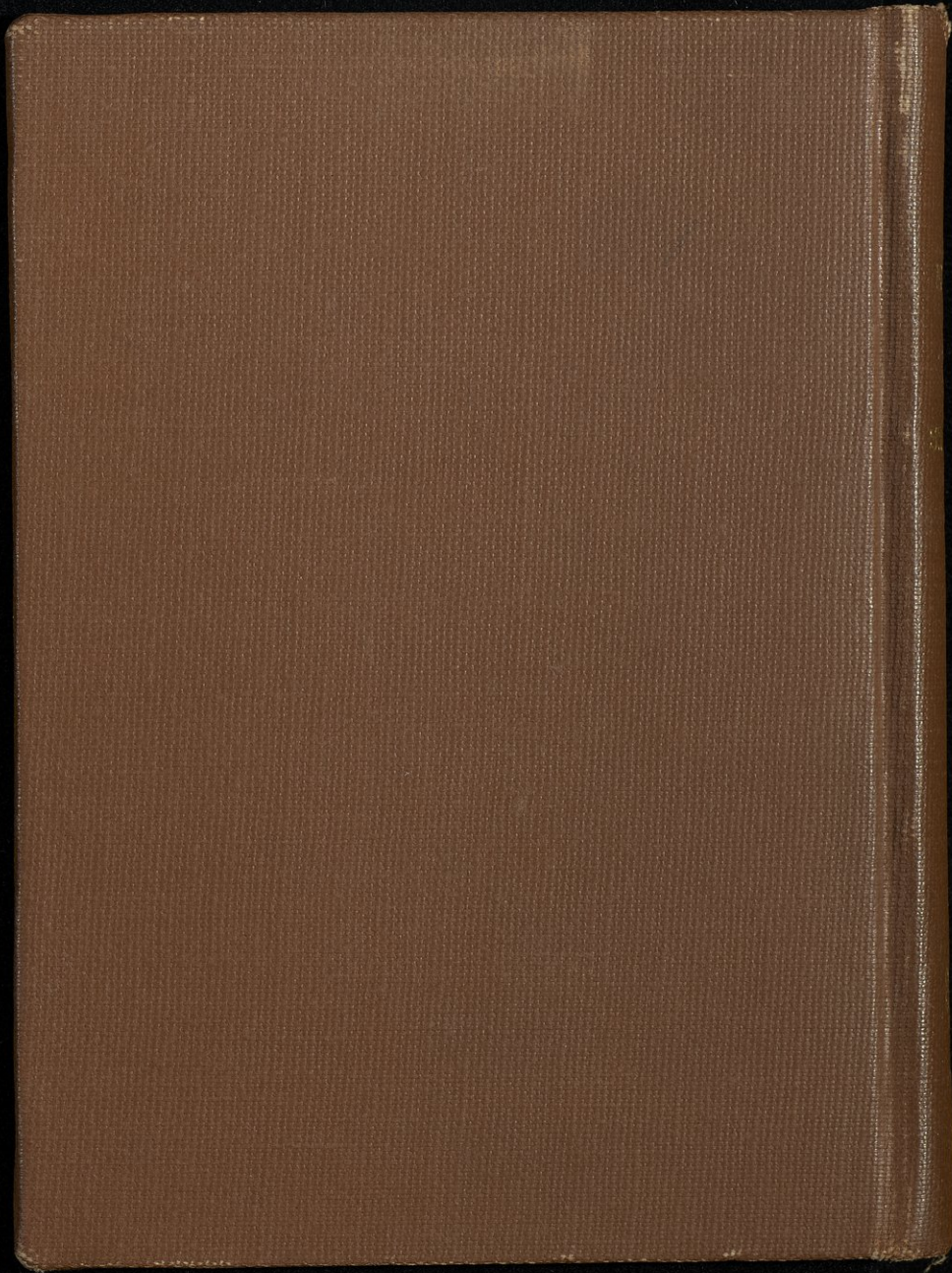




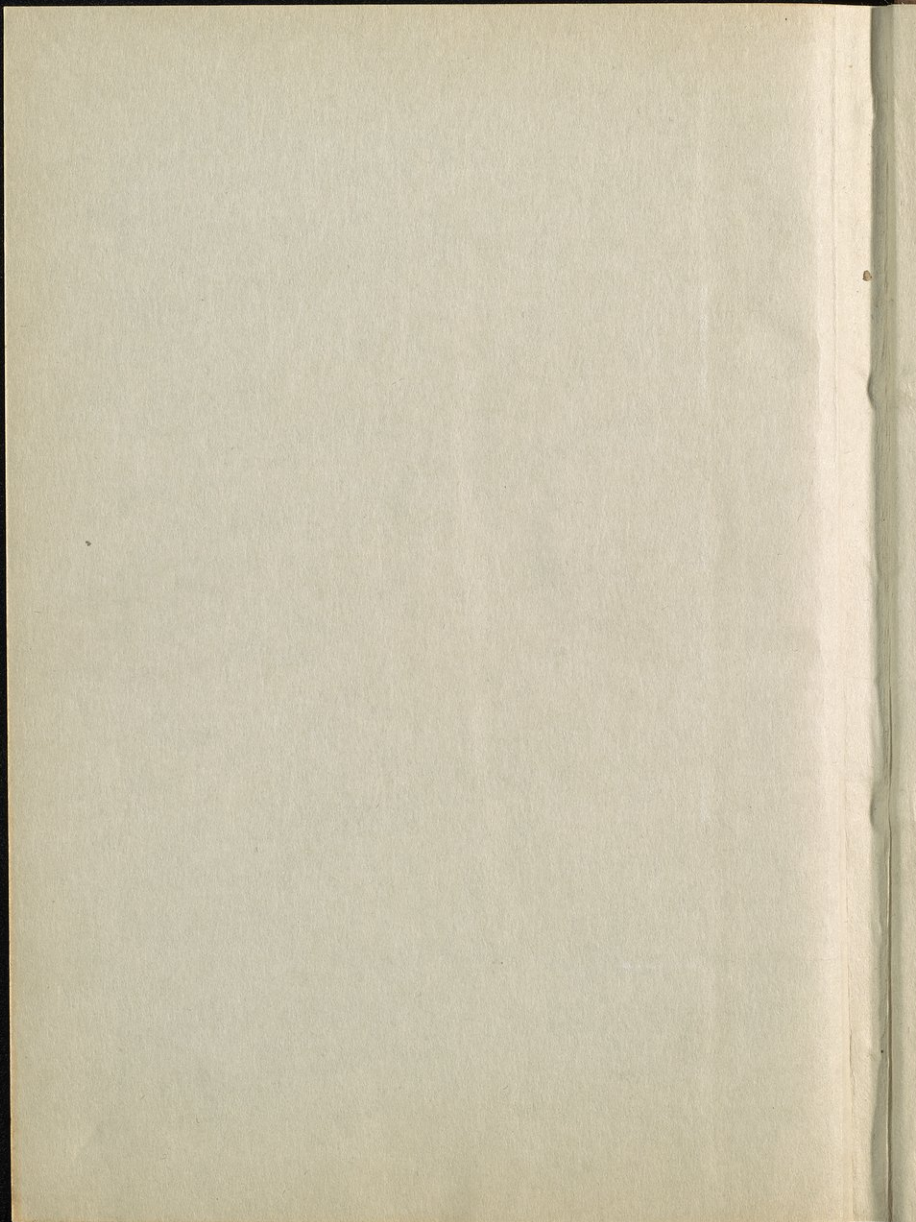
**Columbia University
in the City of New York**

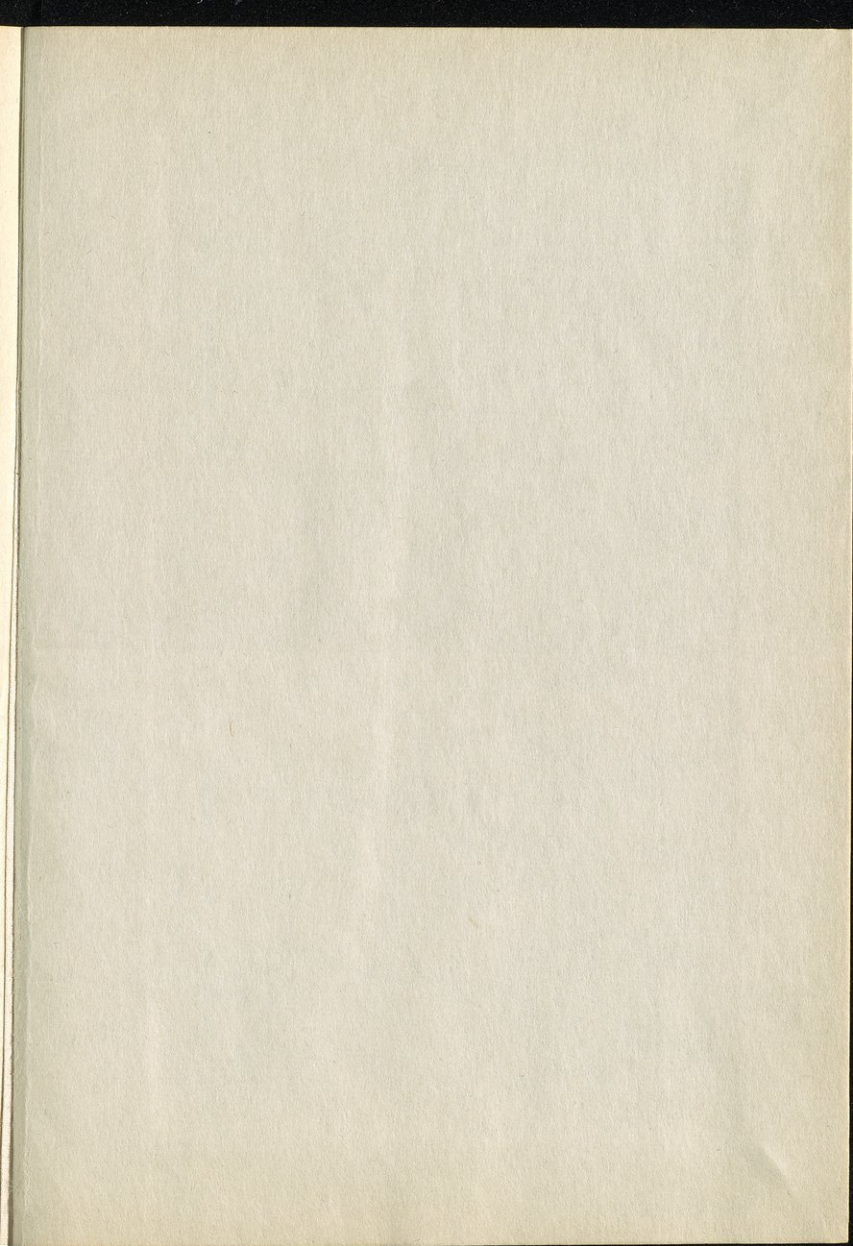
THE LIBRARIES

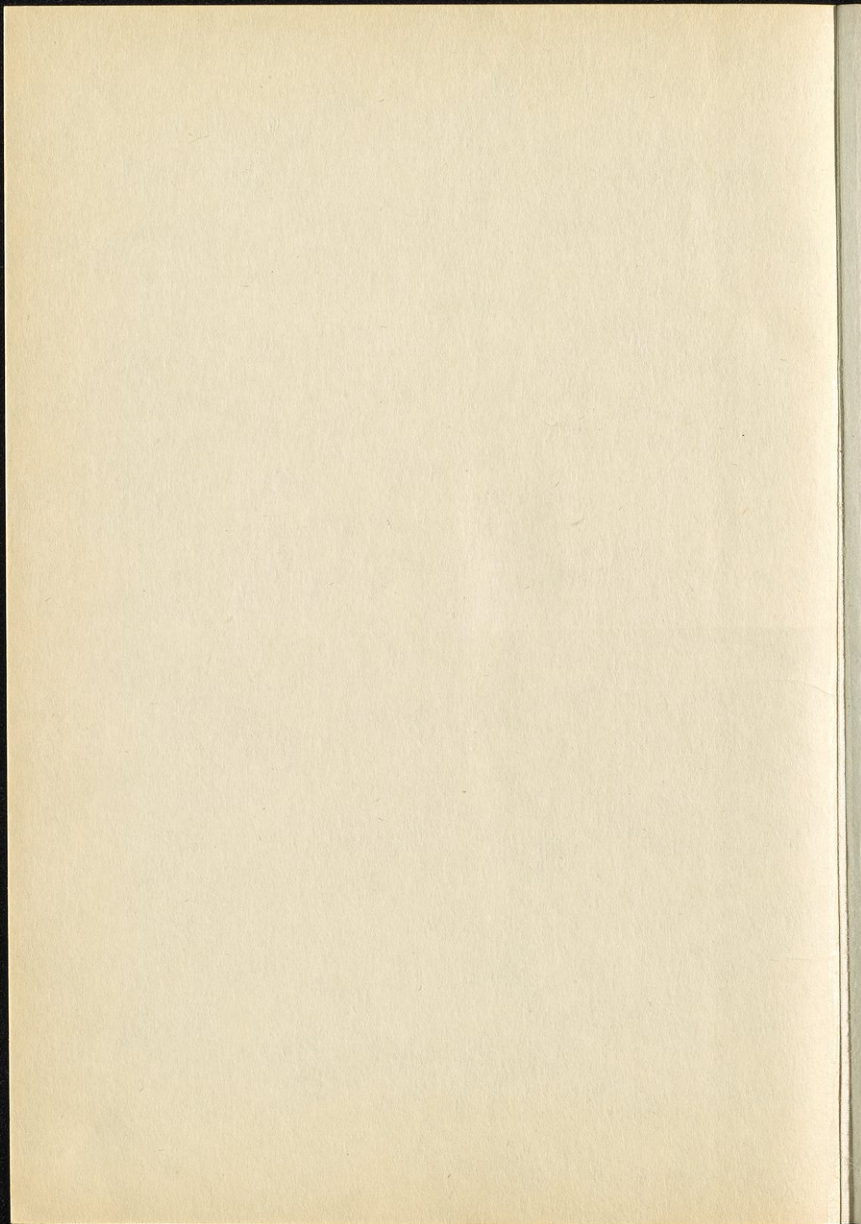


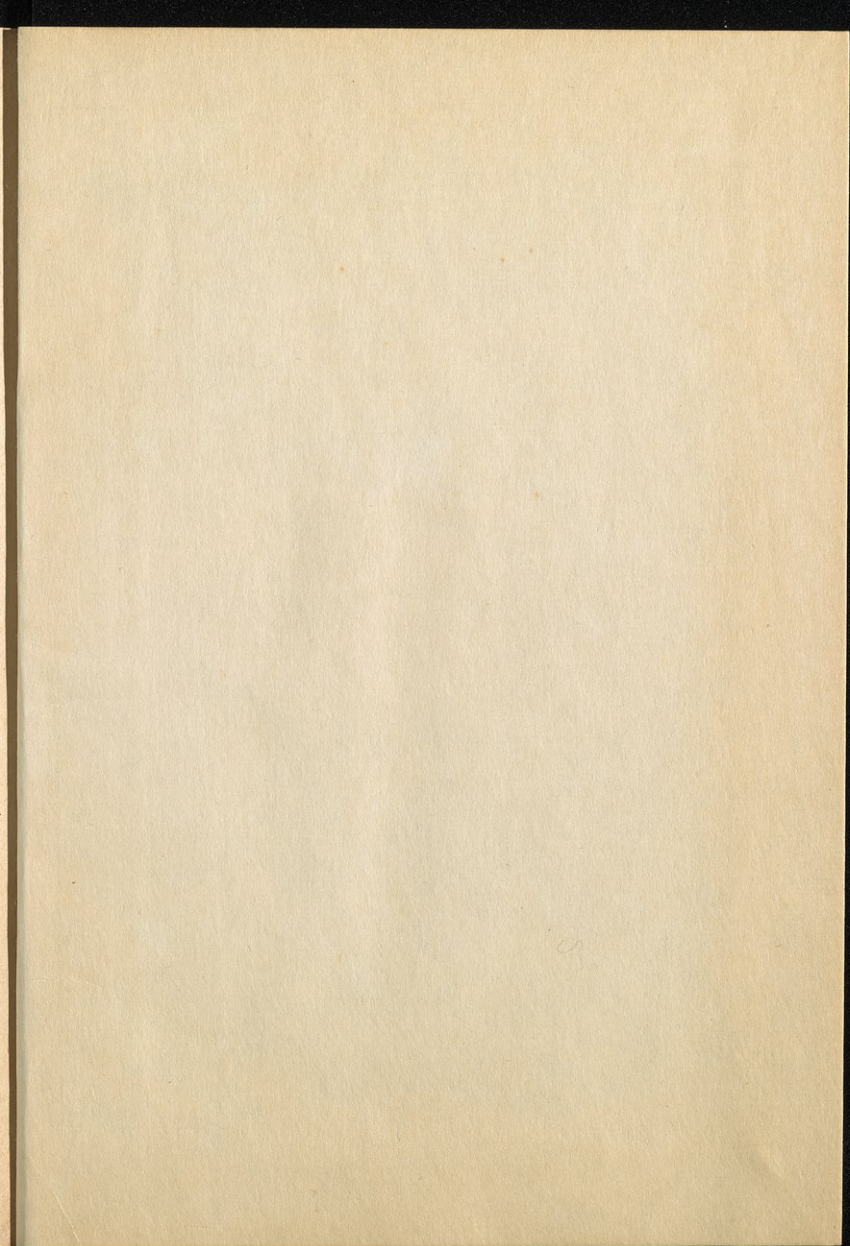
GIVEN BY

Delegation for Education &
Culture in Spanish Morocco









المندوبية السامية الاسبانية بالمغرب
نيابة الامور الوطنية

مكتب الترجمة الاسبانية - العربية

سر فانطيس
امير الادب الاسباني

بقلم الاستاذين

نجيب ابو ملهم - موسى عبود



مطبعة الخزن - تطوان

1947

SLC 33

B144

Gift

Delegation for Education
and Culture of Spanish
Morocco

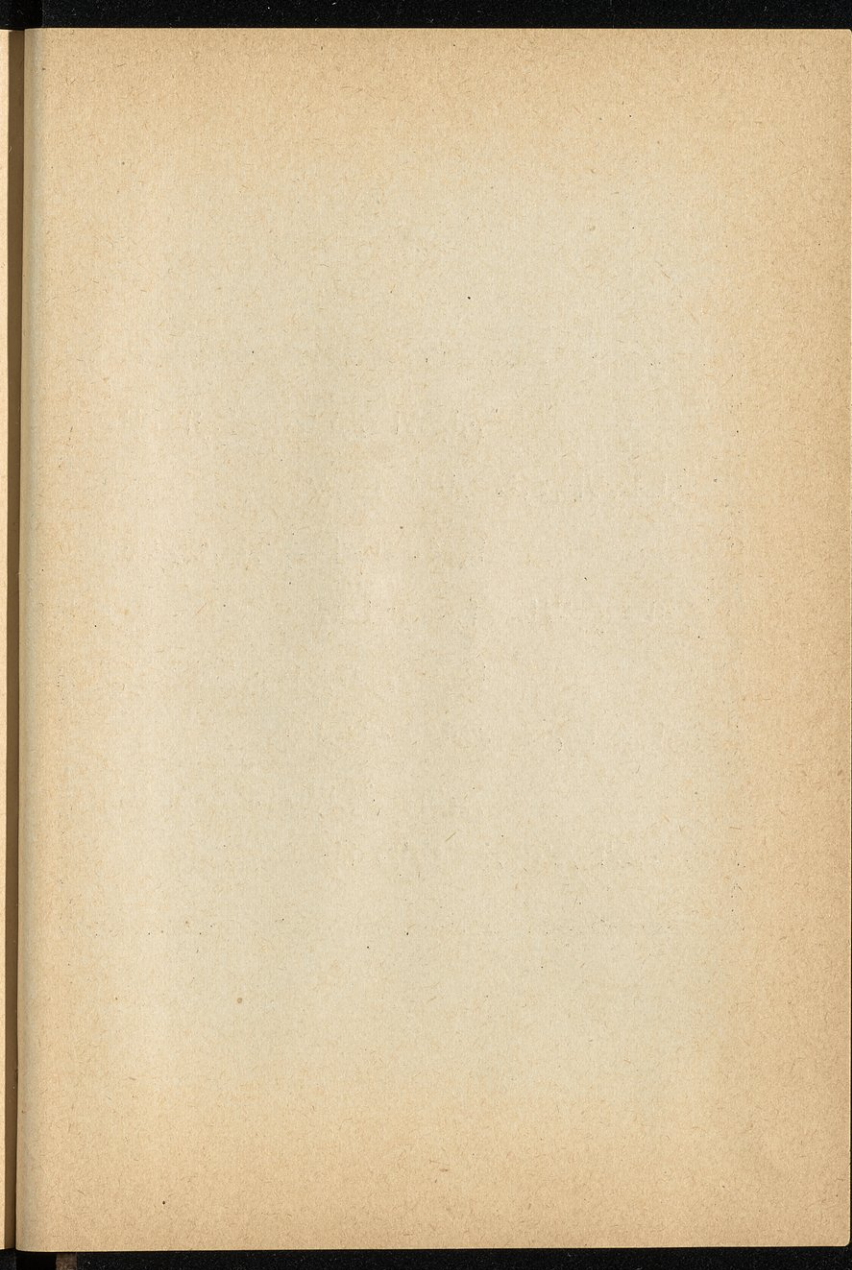
MAY 4 1949



سرفادطیس



ملك اليراع بمنطق الاسبان
شرف يكلل مفرق الاوطان
قد غصت في لجج الحياة مشمرا
ونشلت درا حافلا بمعاني
وجسست من هذي البرية منبضا
نبضاته غابت عن الاقران
ياذا البصيرة والبلاغة والنهي
هذا مقامك في بني الانسان



مقدمة

لا نكتشف مجهولا اذا قلنا ان الشعب الاسباني كان في غابر الزمان اكثر الشعوب اتصالا بالعالم العربي، وان اسبانيا العربية كانت الصلة الوحيدة بين الشرق والغرب، وغير خفي على احد ان لغة العرب وادبهم تركا في اللغة والادب الاسبانيين من الآثار ما لا يشاهد في لغة وادب اية امة اخرى. كما ان الادب العربي الاندلسي اقتبس من البيئة الاسبانية صبغة خاصة بحيث يستحيل احيانا فهمه على القارئ الشرقي الذي يجهل تلك البيئة بجغرافيتها وتاريخها. وبالرغم من هذا التماسك والتقارب بين اللغتين والادبين يمكن الجزم بان الادب الاسباني اقل الاداب الاوروبية انتشارا في الاقطار العربية وان تاريخ الادب الاسباني يكاد يكون مجهولا كل الجمل حتى بين اعلی الطبقات العربية المثقفة.

فالى تلافي هذه الوضعية نرمي بسلسلة المؤلفات والترجمات التي نؤمل نشرها لننقل الى اللغة العربية امهات المؤلفات الادبية الاسبانية على ممر العصور ولنترجم

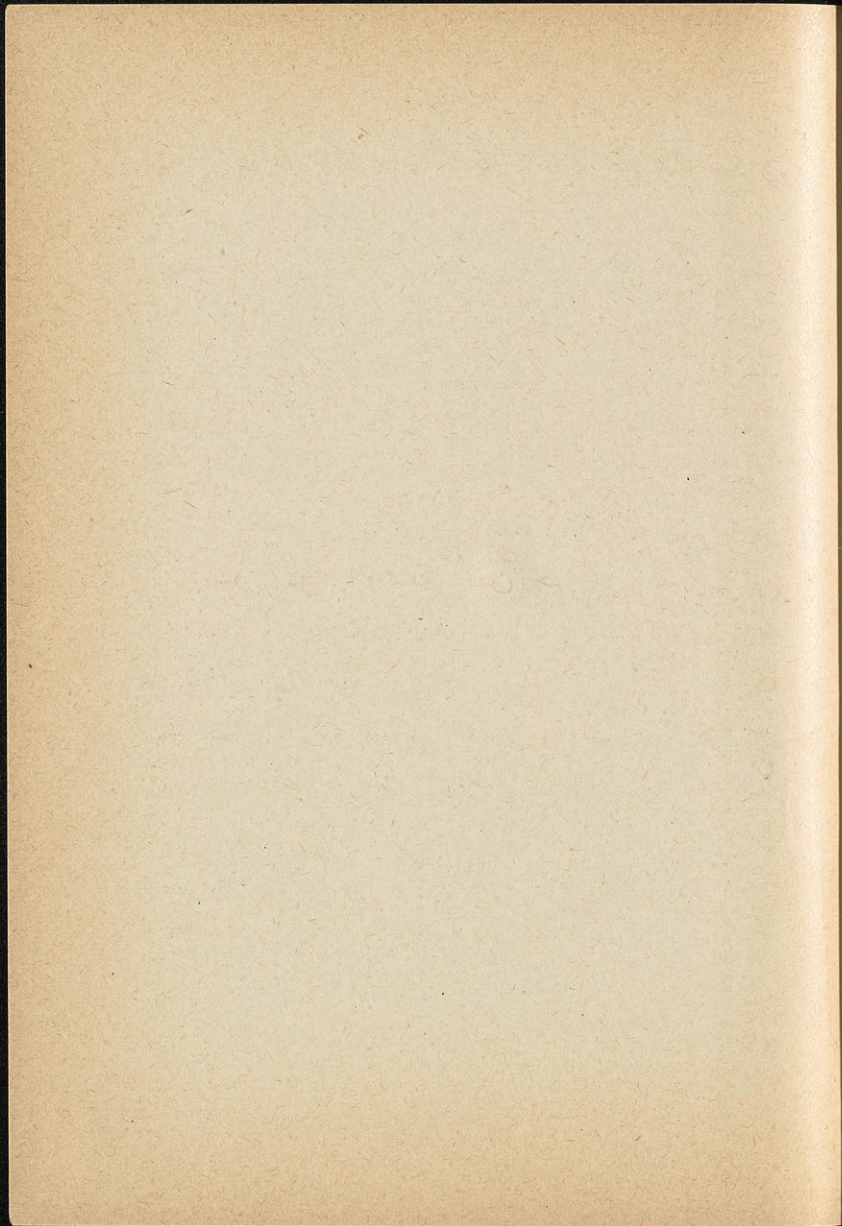
لمؤلفيها ونعرف بتطور الحركة الادبية والفكرية في اسبانيا حتى يومنا هذا.

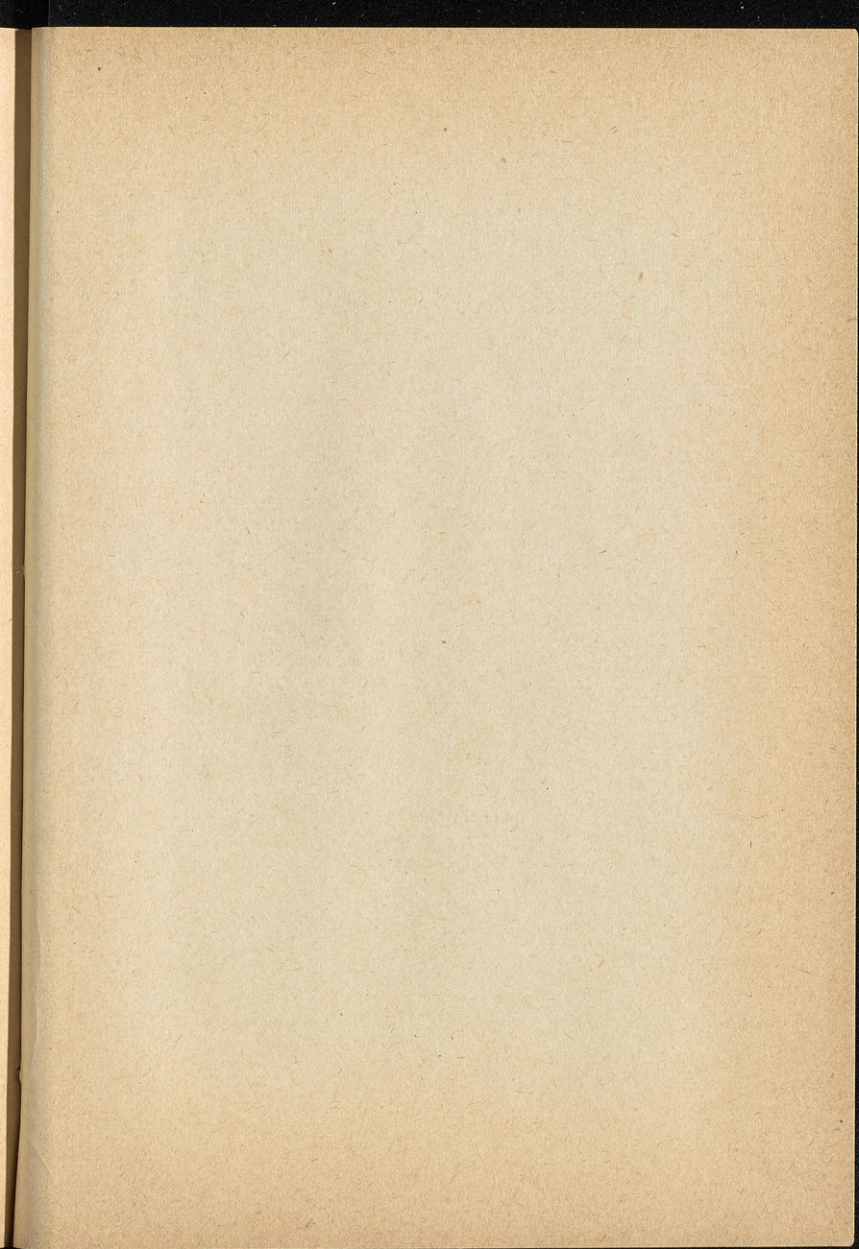
وهو لعمرى مشروع خطير واسع الارجاء وعر المسالك لكننا اقدمنا عليه بجرأة متكئين على الله راجين منه العون والتوفيق.

وقد آثرنا ان نبدأ المشروع بهذا الكتاب الذي هو ترجمة لسرفانطيس ودرس مسهب لمؤلفاته لسبيين: اولا لان سرفانطيس علم من اعلام الادب العالمي وامير الادباء الاسبان على الاطلاق فمن حقه ان يقدم على الآخرين. وثانيا لانه يحتفل في هذه السنة بالذكرى المئوية الرابعة لمولده. وقد نظمت الامة الاسبانية وبلدان اميركا الجنوبية حفلات ومهرجانات فخمة بهذه المناسبة. فكان حقا علينا ان نخرج هذا المؤلف ليكون بمثابة مساهمة عربية في تكريم أمير الادباء.

تطوان (المغرب) ابريل - يوليو 1947

المؤلفان





توطئة

هيا بنا ايها القارئ العزيز لنرجع القهقري الى سنة 1547 فنجد على عرش اسبانيا ذلك العاهل العظيم الذي يحمل فوق جبينه في آن واحد تاج اسبانيا وتاج الامبراطورية الالمانية، ذلك الذي خلد التاريخ ذكره تحت اسم كارلوس الخامس.

ها هو ذا الامبراطور الكبير يتنقل في الربوع الالمانية لايعرف للكل الى جسمه سيلا ولا للياس الى نفسه منفذا. وها هي يده الحديدية لاتني عن ملاحقة المبتدعين الذين اتخذوا لنفوسهم لقب «المصلحين» وعرفوا فيما بعد باسم «البروتستانت».

اجل! ان مؤسس البدعة «لوتير» كان قد انسحب من الميدان لكنه ترك وراءه بركانا متفجرا لم تخدم نيرانه وصدعا في الدين لم يسد وبابا للحرب لن يغلق. وها هو ذا الامبراطور منذ ان تقلد العرش وحسامه لم يزر غمده يحدوه الى هذا الصراع الجبار امل مكين في قطع دابر البدعة لتبقى امبراطوريته الواسعة الاطراف متماسكة الاجزاء موحدة العقيدة.

والى جانب هذا الشغل الشاغل نشأ خطر آخر اقض على العاهل العظيم مضجعه، الا وهو خطر الاتراك فان السلطان سليمان القانوني كان قد وسع ممتلكاته الاوروبية واحتل بلغراد وبلاد المجر وبالرغم عن امتناع فيينا عليه فقد اصبح سيفاً مصلتاً على الامبراطورية الالمانية لا يؤمن شره ولا يعرف من أين يسدد الطعنة. ولم يقف الخطر التركي على البر فان الاساطيل العثمانية كانت تمخر عباب البحر المتوسط وتزداد يوماً بعد يوم عدداً وقوة وجرأة في مهاجمة الاساطيل والممتلكات الاسبانية. وبلغت بها الجرأة الى مهاجمة الشواطىء الاوروبية نفسها من حيث كان يحمل القرصان غنائم واسعة واسارى عديدين يبيعونهم فيما بعد في اسواق الرقيق في الجزائر والقسطنطينية. فالخطر التركي كان اذاً على كارلوس الخامس مزدوجاً: في البر على ممتلكاته كامبراطور المانيا وفي البحر على اساطيله وممتلكاته كملك اسبانيا.

وبالرغم من انتصار كارلوس الخامس على المبتدعين في معركة «مولهبرغ» وعن اتساع الممتلكات الاسبانية التي كانت تشمل في الشمال بلاد فلانديس (ويقوم

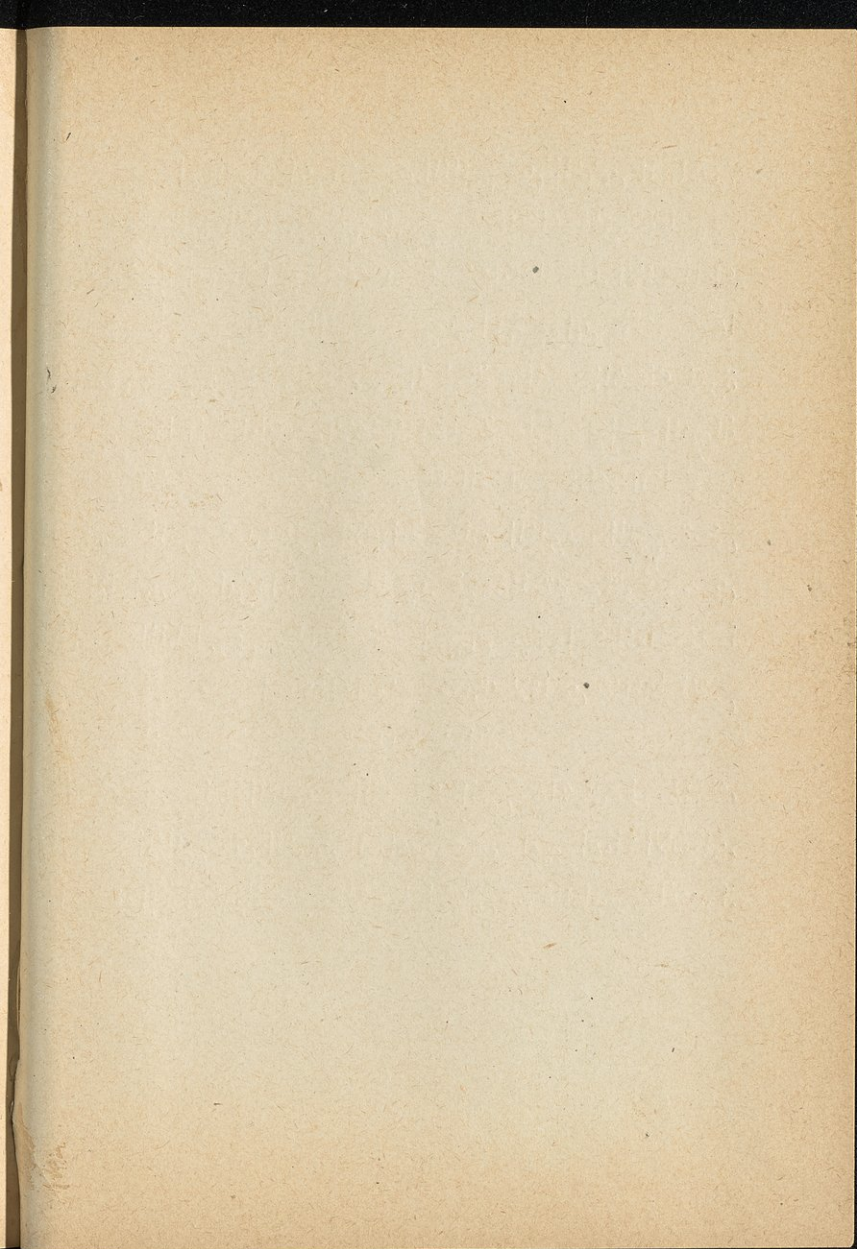
مقامها اليوم البلجيك وهولنده) وفي الجنوب مملكة نابولي وصقلية في ايطالية ومعظم جزر البحر المتوسط، وفي اميركا والشرق الاقصى تمتد حتى اليابان بحيث امكن ابنه فيليب الثاني ان يقول بحق ان الشمس لا تغيب عن ممتلكاته، بالرغم عن هذا كله كانت دلائل السقم قد اخذت تبدو في افق اسبانيا وشرع العدو يضرب حولها حصارا لن تلبث ان ترى نفسها فيه اسيرة: فمعركة «مولهبرغ» من جهة لم تسفر عن النتائج التي كانت ترجى منها في بادى الامر في استئصال شأفة البدعة واذا بهذه ترفع رأسها بعد الهزيمة بعزم امضى وهمة اشد. ومن جهة اخرى عاد الخطر التركي الى الميدان وقد استفحل شره وجاوزت كل حد جرأته فاصبحت تقتحم مراكزه السواحل وتدخل قرصانه خليج قادس ومرفأ اشبيلية فتأسر المراكب الاسبانية وتذهب بها غنيمة باردة. وفي الشمال بدأت بوارد الفتنة في فلانديس ومن ورائها بريطانيا العظمى والمبتدعون في المانيا. اصف الى هذا كله سياسة هنري الثاني ملك فرنسا الذي كان يعمل في الخفاء مع اعداء كارلوس الخامس. وفي الاخير يجب ان لانسى خطراً آخر بدأ

نجمه يتألق في سماء الشمال، نعني به انكلترا التي كان سلطانها على نمو مطرد ولن تلبث ان تصبح الخطر الاكبر على السلطان الاسباني.

فهذه الاخطار كلها تصدت لكارلوس الخامس. وان يكن قابلها بعزمه الثابت وتغلب عليها كلها فان نفسه كانت الى الراحة قد اخذت تميل وقلبه الى الهدوء يستكن ولم تكن اسبانيا الى الراحة والهدوء باقل ميلا من عاقلها العظيم. لان الجهاد المتواصل سنة تلو سنة في المانيا وفلانديس، في ايطاليا وجزر البحر المتوسط، في الجزائر وتونس ووهران، في اميركا والشرق الاقصى قد استنفد قوى الامة وعصرها عصرا. فاصبحت ترنو بطرف الاشتياق الى السلم والهدوء مكتفية من الماضي المجيد بذكره الخالدة فتحيتها في قصصها وانشيدها. وما ذلك الاستقبال الفخم الذي احاطت به مقدم «ايزابل دي فالوا» بعد ذلك بسنوات حين تزوجت بالملك فيليب الثاني الا دلالة قاطعة على اشتياق الامة الى الهدوء والسلم لما يفرضه ذلك الزواج من وئام بين الامتين وذلك ما حملهم على منح الاميرة الفرنسية لقب «ايزابيل حاملة السلم».

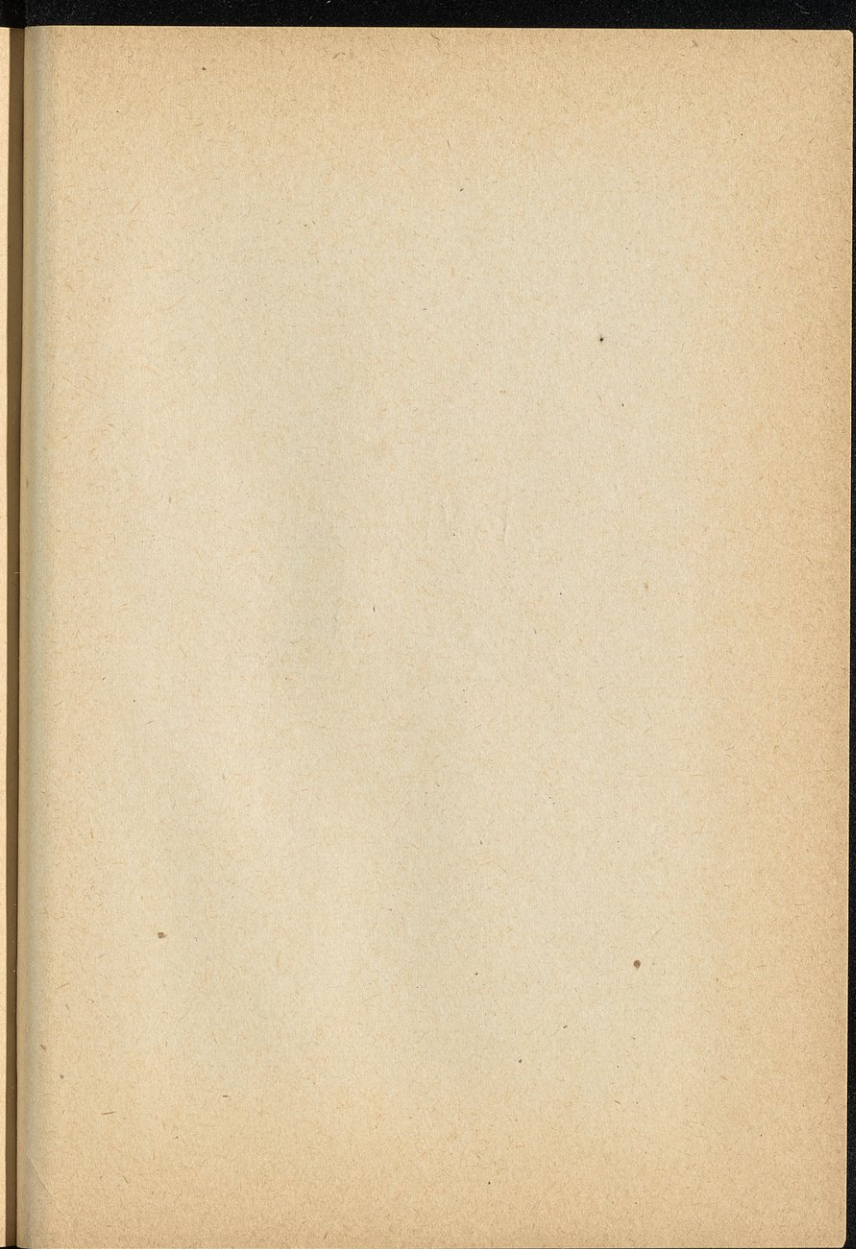
ومجمل القول ان النصف الثاني من القرن السادس عشر هو فترة الانتقال في تاريخ اسبانيا، فترة تطوى فيها صفحة العهد المجيد ويبدأ في نهايتها عهد الانحطاط، فترة ككل فتر الانتقال من مجد الى هوان يكثر فيها المنافقون ويقل ذوو النفوس الرفيعة والهمم الشماء، فترة تتغلب فيها السعيات والاهواء الخاصة على مصالح الدولة ومنافع الامة وتختنق في جوها الفاسد تلك القلوب الكبيرة التي تعد على الاصابع هذه القلوب التي قيض الله لها ان تسير الماضي المجيد في عظمته وتترفع عن الحاضر الذليل في سفالته فتحيا بين بيتها كأنها عنها غريبة وفي مجتمعها وكأنها منه بعيدة، لاتلين قناتها لغنى ممزوج بنفاق ولا لعلو تسنده خيانة.

ومن هذه القلوب الكبيرة التي عاشت في ذلك النصف الثاني من القرن السادس عشر امير ادباء الاسبان واحد نوابع الانسانية جمعاء ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا.



القسم الاول

حياته



الفصل الاول

أين ولد سرفانطيس؟

مسألتان حام حولهما الخلاف بين المؤرخين: أين ولد سرفانطيس ومتى ولد. وقد اكثرت البعثات في الكلام حول هاتين القضيتين واشبعوهما درسا واسفرت ابحاثهم عن رأي يكاد يكون مؤكدا في كليهما.

اما البلدة التي ابصر النور فيها كاتبنا فهي حسب هذا الرأي مدينة «قلعة هناريس» وقد نازعتها هذا الحق سبع بلدات اخرى لكل على دعواها حجج وهي:

«اسكيفيا» بدعوى ان سرفانطيس نفسه وصف هذه البلدة بانها شهيرة. و«اشبيلية» وقد حمل لواء دعواها الاديب الشهير «نقولا انطونيو» وحجته ان اسمي سرفانطيس وسافيدرا هما اسما عائلات اشبيلية. وان كاتبنا ابصر في صباه الروائي والممثل «لوبي دي رويدا» يمثل مسرحياته في اشبيلية. لكن هذه الحجة الواهنة تنهار أمام الأدلة القاطعة، التي قدمها المؤرخون الحداث، على ان لوبي دي رويدا انما كان يتنقل في مدن قشتالة حين كان سرفانطيس لم يزل في عهد الصبا

ونازعتها بلدة «لوسينا» ولا سند لها على دعواها

سوى اسطورة تناقلها اهلها خفياً عن سلف لا يؤيدها برهان ولا تدعمها بيئة.

وزعم آخرون أن مسقط رأس سرفانطيس مدينة مدريد، ولا دليل يؤيد هذه الدعوى سوى رأي لوبي دي فيغا وغيره من معاصري كاتبنا وتسمية سرفانطيس أياها «بوطنه» في مؤلفه الشعري «رحلة البارناس». وقد فات اصحاب هذا الرأي ان الكاتب انما ضمن هذه الكلمة في مؤلفه المذكور معنى مجازيا كما اوضح ذلك في غير ما مقطع من المؤلف نفسه.

وهناك من يزعم انه ولد في بلدة كونسويغرا ومن يدعي انه ابصر النور في مدينة طليطلة. لكن كلا الرأيين ضعيف واه لا يستند على حجج ثابتة.

وكان فريق آخر يزعم انه ولد في بلدة «الكاسار دي سان خوان» وله على دعواه حجة قوية. لكنه ظهر في الربع الاخير من القرن الماضي ضعف هذه الحجة وفسادها. وهكذا انتهى الخلاف بين البلدات السبع بانهيار دعواها كلها. وقد اصبح الان كما قدمنا من الصحيح الثابت الذي لا يقبل النزاع ولا الجدل ان كاتبنا ولد في مدينة «قلعة هناريس».

قلعة هناريس

تقع هذه المدينة على ضفة نهر هناريس على ثلاثة وثلاثين كيلومترا من مدريد. وقد لعبت في تاريخ اسبانيا الثقافي دورا خطيرا بفضل جامعتها الشهيرة التي اسسها الكردينال سيسنيروس سنة 1498 وفتحت ابوابها لقبول الطلاب سنة 1508. وكانت خلال القرن السادس عشر الى جانب جامعة سلمنكة (او طلمنكة كما يسميها العرب) من اهم الجامعات الاوروبية. وقد ظلت مركزا ثقافيا ذات قيمة حتى سنة 1836 اذ نقلت الى مدريد.

ففي هذه البلدة الصغيرة بمساحتها وعدد سكانها العظيمة بمركزها واثرها، في يوم من سنة سبع واربعين وخمسمائة والف، لم يعرف بالضبط، وانما يرجح انه التاسع والعشرون من شهر سبتمبر (ايلول) ولد ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا. وفي التاسع من شهر اكتوبر (تشرين الاول) عمده في كنيسة «القديسة مريم الكبرى»، كما يستفاد من سجل العمدات الذي لم يزل محفوظا في تلك الكنيسة وبواسطته امكن الجزم بان سرفانطيس ولد في مدينة القلعة.

اما الذي حمل المؤرخين على تعيين التاسع والعشرين

من سبتمبر تاريخا لولادته فهي العادة التي فيها الاسبان
بتسمية المولود باسم القديس الذي خصص له في التقويم
يوم ولادته. فتسمية كاتينا باسم «ميغيل» انما تعود اذاً
لولادته يوم عيد القديس ميغيل (او ميخائيل) وبه
يحتفل في 29 من الشهر المذكور.

عائلة سرفانطيس

كان والد سرفانطيس واسمه ضون رودريغو طبيباً يتعاطى مهنته في مدينة القلعة. وفي سنة 1540 تزوج من ضونيا ليونور كورتيناس ورزق منها سبعة اولاد نخص بالذكر منهم فضلا عن ميغيل اخاه رودريغو المولود سنة 1550 واخته اندريا ولويزا المولودتين الاولى سنة 1544 والثانية سنة 1546.

ولم يكن ضون رودريغو موفقاً في مهنته. فكانت عائلته تعيش في حالة الى الفقر اقرب منها الى اليسر، وفي هذا الجو العائلي المغطى بغيوم الفقر وسحب الحاجة قضى ميغيل سني فتوته حتى قارب الخامسة عشرة من عمره. وفي هذه السنوات تردد على مدارس القلعة وحصل فيها العلوم الابتدائية وشيئاً من الادب واللغة اللاتينية والعلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد.

وكان من المتفوقين في الدراسة يشار اليه بتوقد الذهن وقوة الادراك ودقة الملاحظة والرغبة الشديدة في الاطلاع على ابواب المعرفة، قوي الميل الى الشعر والمسرح، كما عبر عن ذلك مرارا فيما بعد في غير واحد من مؤلفاته.

فى اشبيلية

فى احد ايام الربيع من سنة 1563 اذا بالفتى ميغيل دي سرفانطيس يصل الى مدينة اشبيلية بصحبة ابيه واخوته. فان ضيق العيش وعسر ذات اليد فى القلعة دفعا بضون رودريغو الى هذا الانتقال عسى ان يجد فى عاصمة الجنوب بابا للرزق اكثر اتساعا ومجالا للعمل اجدى وانفع.

فقد كانت اشبيلية فى ذلك العهد مدينة زاهرة نامية والسفن بين اميركا الحديثة الاكتشاف والاندلس لاتبرح تمخر عباب البحر المحيط جيئة وذهابا ومرساها فى الغالب اشبيلية. وهذا الاتصال فتح ميدان السعة واغدق على المدينة سوابغ النعمة فتمت التجارة وازدادت الثروة وازهرت الاداب والفنون بحيث كانت تعتبر بحق من اهم العواصم الاسبانية ان لم نقل اهمها على الاطلاق. فلاعجب ان يفد اليها ضون رودريغو دي سرفانطيس وفى نفسه امل بان تبتسم له فيها الثروة فتزدهر حاله مسaire للبيئة الجديدة.

وبالرغم عن ان حالة ضون رودريغو المالية لم

تتحسن فانه لم يحجم عن ارسال ابنه ميغيل الى خير مدارس اشبيلية. وكان الالباء اليسوعيون قد فتحوا سنة 1554 مدرسة يتلقى العلوم فيها ابناؤ الاشراف والاعيان. ففيها تلقى كاتبنا بعض الدروس العليا. وقد اثر في نفسه تأثيرا عميقا ما كان هؤلاء الاساتذة يمتازون به من عناية واخلاص وتوضحية في التدريس. فذكرهم في كتابه «محاورة الكلاب» بالثناء والمدح اذ قال: «ومما يستلفت النظر ما كان يغدقه هؤلاء الاساتذة والالباء المباركون من محبة وعطف ورعاية وعناية في تعليمهم اولئك الصبيان فيقومون غصون شبابهم لئلا تعوج او تضل عن طريق الفضيلة التي كانوا يدلونهم عليها الى جانب طريق المعرفة.»

وفي هذه المدرسة تعرف ميغيل الى بعض الفتيان من نخبة المجتمع الاشبيلي. ومن الراجح ايضا انه تعرف هنالك «بماتيو فاسكيس» الذي اصبح فيما بعد كاتب اسرار الملك فيليب الثاني.

وفي اشبيلية شاهد تمثيل روايات المؤلف الشهير «لوبي دي رويدا» مؤسس المسرح الاسباني. فنبهت في نفسه حسبا يقال ميلا الى الفن المسرحي.

وفي اشبيلية ابصر الحياة على حقيقتها واختلاف
الوانها ومظاهرها. وفيها اغرم بالبحر وعظمته ومغامراته
واحس برغبة ملحة في ان يلمس بيده هذه الحياة التي
طالما سمع البحارة يتحدثون عنها في تنزهاته العديدة
على ضفاف الوادي الكبير.

مدريد

لم تبتسم لضوء رودريغو آلهة الثروة في اشبيلية
 كما كان يؤمل يوم أمها متفائلاً. وها هو بعد أربع
 سنوات يجر عثار الحية والفشل فيلم آماله المبعثرة ويحول
 وجهه شطر مدريد سعياً وراء حظ أكثر اقترار ثغراً.
 وكانت مدريد قد أصبحت منذ مدة قريبة قاعدة
 المملكة فقطعت في طريق العمران شوطاً بعيداً واخذت
 تمتد وتتسع فوق الهضاب التي تنساب بينها مياه نهر
 «مانسناريس» فناهيك عن شوارع جديدة تفتح مستقيمة
 واسعة في كل جهة وشوارع قديمة تمدد وخنادق تظمر
 وغابات كثيفة تقوم اشجارها الباسقة اديار وقصور.
 وفوق هذه المدينة الحديثة تغلي مراحل الحياة المتقدمة
 فمن حفلات تقام ومجالس ادب تعقد ونواد تنشأ
 ومسارح تفتح. فالحياة الادبية تدفقت من كل فج وصوب
 على العاصمة. واصبحت تشد اليها الرحال من سائر
 المقاطعات حتى كبرت بسرعة غير مألوفة.
 فالى هذه المدينة الناشئة وصل كاتبنا وهو في
 العشرين من عمره بصحبة ابيه واخوته. وفيها سمع دروس

الاستاذ «فرنسيسكو دل بايو» في النحو. ولكن هذا لم يلبث ان مات فحل محله الاستاذ «خوان لوبيث دي اويوس» واتصل به سرفانطيس اتصالاً وثيقاً. وقرأ عليه وكان من المبرزين وكان «لوبيث دي اويوس» يسميه «بالتلميذ العزيز الحبيب».

لكن ثقافة سرفانطيس كانت ناقصة لو قيست بثقافة الطبقة المفكرة من رجال عصره ولذلك النقص سببان: حياته المتنقلة وعدم استقراره الداخلي الذي لم يكن ليتيح له ان يتقيد ببرامج دراسة لاتوافق مزاجه النفسي. ولايستفاد من هذا انه كان كسولاً! لا! فقد قال عن نفسه انه كان يقرأ حتى الاوراق الممزقة التي يعثر عليها. لكنه كان يقرأ ما تجد فيه نفسه لذة. وبنوع خاص كان يقرأ في كتاب الحياة الذي اصبح مفتوحاً امام ناظره فأنى القاهما ان على الناس وان على الطبيعة التي تحيط به تلقى درساً جديداً في الحياة.

وفي مدريد اتصل سرفانطيس بطائفة من الشعراء الشباب الذين كانت العاصمة تعج بهم آنئذ وسيصبحون فيما بعد نجوماً تتالق في سماء الادب والشعر. فألم نواديهم وحلقاتهم واستمع الى منظوماتهم وشاظرهم لذة السمر وحلاوة الحديث

الانتصار الاول

في اواخر سنة 1568 قطفت يد المنون زهرة حياة الملكة ايزابييل دي فالوا ولما تتجاوز اثنين وعشرين ربيعاً. فجاءت وفاتها طعنة نجلاً في صدر الملك فيليب الثاني الذي كان يكن لها اسمى وانبل عواطف الحب وقد برهن عن ذلك باوضح بينة ابان مرضها فكان لايفارق سريرها ويعتني بها بنفسه ويقدم لها الادوية بيده فتركت بموتها في نفسه فراغا لن يسد وحزنا لن يمحي. وعاد العبوس يخيم على البلاط الملكي واطلت من جديد سحب الكآبة والقلق بعد ان غاب ذلك النجم البسام الذي حيته الامة الاسبانية جمعاً لثمان سنوات خلت باسم «اميرة السلم» وانهار امل الامة في استمرار الطمأنينة في علاقات الدولة الخارجية.

وبهذه المناسبة كلف الكردينال ضون ديبغو دي اسبينوثا - وهو اذاك رئيس المجلس الملكي - الاستاذ لوبيث دي اويوس استاذ سرفانطيس ان يكتب «سيرة مرض ووفاة مولاتنا ضونيا ايزابييل دي فالوا ملكة اسبانيا مع المراثى التى قيلت فيها». وقد ادرج الاستاذ

في هذه المجموعة مرثية قيد تحتها انها من نظم «تلميذه الحبيب» وهو اللقب الذي كان يشير به الى سرفانطيس. ولاقت منظومة كاتبنا نجاحا كبيرا. فقابله رفقاؤه بالتهنئة والاكرام واستاذة بالثناء والتكبير. ومما هو اعظم واخطر ان هذه المناسبة فتحت امامه بابا للمغامرة في طريق المستقبل المجهول.

ايطاليا

كان سرفانطيس يقطف باكورة الانتصار في ميدان
الادب حين قدم مدريد الايطالي «خوليو اكوافيفا»
اراغون» نجل الدوكي دي اتري الذي اصبح فيما بعد
كردينالا. وقد جاء مبعوثا من جانب البابا بمهمة رسمية
لدى الملك فيليب الثاني

وكان خوليو اكوافيفا ينتمي الى احدي
العائلات الشهيرة في ايطاليا وينحدر من سلالة هؤلاء
الذين كانوا فيما مضى نبراسا يضىء في ايطاليا ابان
النهضة وقد اخذ نورهم ينكمش في هذا العهد. لكنه كان
من طبقة هؤلاء الامراء الذين ينعمون بان يحاطوا بالادباء
والشعراء والفنانين فيغدقون عليهم حمايتهم ونعمهم. فقبل
ان يغادر مدريد احب ان يستسفر عن احوال ادبائها
وشعرائها الشباب ويستصحب بعضهم الى بلاطه. فلا غرو
اذا ان يقع اختياره على سرفانطيس الذي كان حينئذ
في اوج الانتصار على اثر مرثيته. ولعل الكردينال ضون
دييغو اسبينوثا نفسه هو الذي عرف خوليو اكوافيفا

به. ولم يتردد كاتبنا في قبول الدعوة بل وجدها فرصة سانحة اتاحها له القدر ليتعرف الى عالم احلامه .

وقبل ان تنتهي سنة 1568 كان سرفانطيس يغادر التراب الاسباني وفي القلب حسرة على ما يخلفه ولهفة على ما سيلقاه، ألم على ما يودعه واشتياق الى ما سيقبّله. اجل ! ودع سرفانطيس اسبانيا وقد رآها ضيقة امام طموحه الواسع وصغيرة امام آماله العظام وسار وفي النفس امان كبار يود ان تتحقق في عالم الغربة الفسيح الارجاء فيعود الى وطنه مظفرا مكللا باكاليل الغار والعظمة. غادر سرفانطيس اسبانيا كما غادر ذات يوم بطله ضون كيخوطي - على حد قول احد مؤرخيه - قريته ساعيا وراء عظمة خفية ومستقبل مجهول لاقى فيه بدلا من العز والعظمة انواعا من الضيم واصنافا من الآلام. وفي هذه الرحلة زار مدينة بلنسية وطرغونة وبرشلونة وجنوب فرنسا. ثم عبر جبال الالب وبلغ مدينة ميلان اولا وبعدها روما.

وها هو ذا كاتبنا في بلاط الامير حيث كان يؤمل ان يرى العظمة منه على قاب قوسين. لكن تلك العظمة لم تكن سوى حلیم من الاحلام احتل في ذهن سرفانطيس مقام

الحقيقة. وسرعان ما تبدد هذا الحلم امام يقظة الوصول
فان الامير اكوافيفا بعد ان حل في قصره وانصرف الى
اعماله لم يعد يعره كبير اهتمام وبقي سرفانطيس واحدا
من جملة ذلك العدد الوافر من الفتيان ابنا العائلات
النبيلة الذين يعج بهم بلاط الامير وكلهم يتسابقون الى
خدمته وتنفيذ اوامره ولم يكن كاتبنا باعجلهم الى ذلك،
فلا غرو ان يسري الى نفسه شيء من الخيبة ويستحوذ
الاسى على قلبه وينهار ذلك البنيان الرفيع الذي اقامه
من امان مذهبة واحلام مرصعة، لكن نفسه لم تكن
لترضخ الى هذا الجمول ولا لتسكن الى هذا النسيان، فما
كاد ينهار صرح آمالها حتى شرعت باقامة صرح جديد
لما يتبين لها مدى ارتفاعه لكن اساسه في اعماقها قائم
وعلى نبضات قلبه مستند.

ذلك الاساس هو الجيش....

سرفانطيس جندي في جيش ايطاليا

ودع سرفانطيس قصر الامير لينخرط في الجيش لعله يجد في المغامرات الحربية ما يبرد غليل نفسه المتعطشة الى الحركة والمجد، فانخرط كجندي في الجيش الاسباني المرابط في ايطاليا تحت اوامر القائد «ميغيل دي مونكادا» في سنة 1569 نفسها وبرفقة هذا الجيش تجول في كل انحاء ايطاليا فشهد روما والبندقية وجنوة وفلورنسا وميلان و نابولي، وقد تركت هذه المشاهدات في نفسه اثرا عميقا: فروية الكنوز الفنية التي ملأت المدن الايطالية، والاطلاع على امهات المؤلفات من الادب الكلاسيكي وادب النهضة، وجمال الطبيعة في هذه البقعة التي تعتبر من اجمل واخصب التراب الاوروبي كل هذا زاد حسه ارهافاً وتفكيره نضوجاً، وان عبقريته الفطرية وذكاءه المتقد وحافظته الغريبة وذوقه الادبي الرفيع تحالفت كلها في هذا الطور من حياته فرسمت له تصميم خير مؤلفاته العاطفية.

اما المدينة التي سلبت لبه وسحرت فؤاده - ولعله بسبب امرأة احبها فيها اكثر منه بسبب جمالها الطبيعي - فهي مدينة نابولي التي حفظ لها في قلبه حتى الوفاة خير الذكريات.

وفي الخامس عشر من شهر سبتمبر (ايلول) سنة 1571 كان سرفانطيس يركب البحر على متن احدى سفن ذلك الاسطول الضخم الذي اقلع من مرسى مسينا تحت قيادة الامير ضون خوان دي اوستريا ليصطدم بالاسطول التركي في معركة ليبانطو.

الخطر التركي - ليبانطو

ان القرن السادس عشر شهد بلوغ السلطان التركي اوج العظمة والمجد، ففي اواسط ذلك القرن كانت تركيا من اعظم الممالك ولعلها كانت واسبانيا تحتلان اوسع امبراطوريتين عرفهما ذلك العهد، وكانت حدود الامبراطورية التركية في اوروبا تمتد من تخوم روسيا - التي كانت تحتل منها جزءا غير يسير - حتى فيينا نفسها، وفي الشرق كانت تبلغ حدود الهند ومن جهة اخرى كانت تسيطر على جميع البلدان الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الشرقية حتى حدود المغرب الاقصى. وقد تحول اذاك قطرا الجزائر وتونس الى قواعد للقرصنة تخرج منها المراكب التركية فتغير على المراكب والشواطئ الاوروبية ثم تعود بالغنائم وبالاسارى فيباعون في اسواق الرقيق ولا ينجو منهم الا من امكن اهله افتدائه باموال تبلغ احيانا قدرا هائلا. وقد تأسست في البلدان المسيحية رهبنات مهمتها اقتداء الاسرى لما بلغ هذا الامر من خطورة. وقد كان استفحال شأن القرصنة باعثا على نمو الاسطول التركي حتى اصبح قوة تخشى

اوروبا باسها بقدر ما كانت تخشى باس جيش تركيا
البري، وكان امير البحر، العلي، هو القلب النابض
واليد المحركة لهذا الاسطول، وفي عهده كانت المراكب
العثمانية تمخر عباب البحر المتوسط بجرأة تزرع الرعب
في قلوب سكان الشواطىء الاوروبية كلها وكفى دليلا
على منعة هذا الاسطول ان اساطيل اسبانيا والبندقية
وروما وفلورنسا متحدة لم تفقه في موقعة ليبانطو بعدد
مراكبها وان المعركة ظلت متوازية خلال ساعات طوال.
لكنه لم يكن اذاك ما يدل على اقتراب العاصفة
لان السلطان سليم الثاني كان قد عقد مع جمهورية
البندقية معاهدة تجارية جرت المعاملات في ظلها بامان
لايشوبه قلق، غير ان السلطان وقد رأى تلك الجمهورية
في حالة ضعف كبير احب ان يسترجع جزيرة قبرص
واثقا من ان اسطوله الضخم كفيل بان يضمن له
استرجاعها، فوجه رسولا الى حكومتها يعرض عليها مطلبه
فساء البندقيين ذلك الطلب واوشكت العامة في احتدامهم
ان يقضوا على الرسول الذي اضطر ان يفر سرا، وبحجة
اساءة البندقيين معاملة رسوله امر السلطان اسطوله ان
يزحف على قبرص، فطلبت البندقية النجدة من الامراء

المسيحيين فلبى النداء البابا وملك اسبانيا فيليب الثاني
 وشرع البابا بتأسيس رابطة اوروبية لدرأ الخطر التركي
 لكنه لم ينضم اليها زيادة عن روما واسبانيا الا فلورنسا.
 واجتمع ممثلو تلك البلدان، لكنهم لم يتفقوا على
 القيادة، وبينما كانوا يقضون الاسابيع والاشهر في المناقشة
 والمنافسة كان الاتراك يطأون شواطئ قبرص ثم يضربون
 حصارا شديدا حول مدينة نيقوسيا، وما عتمت ان بلغت
 الانبياء باحتلالهم تلك المدينة مع ما رافق دخولهم اياها
 من فظائع واهوال، فكانت هذه الانبياء حافزا لتوحيد
 الكلمة. وفي 20 مايو (ايار) من سنة 1571 وقع البابا بيوس
 الخامس وملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة واسندت
 القيادة الى ضون خوان دي اوستريا شقيق الملك فيليب
 الثاني الذي كان اذاك في الخامسة والعشرين من عمره وبعد
 ذلك بنحو اربعة اشهر اي في الخامس والعشرين من شهر
 سبتمبر (ايلول) من السنة نفسها اقلع من مرفأ مسينا
 اسطول الرابطة المؤلف من 300 مركب تحمل 30.000 رجل
 وعلى متن احدى سفن ذلك الاسطول المسماة
 «لاماركيزا» ابحر الجندي ميغيل دي سرفانطيس، لكنه لم
 يلبث ان اصيب بحمى شديدة الوطأة اجبرته على ملازمة

الفراش طيلة ايام السفر، غير انه حين سمع الطلقة الاولى المؤذنة ببلوغ اسطول الرابطة خليج ليبانطو الذي يصل خليج كورنتيا بالبحر اليوناني هب من فراشه ناهضا وصعد مترنحا من الحمى حتى مثل بين يدي قبطانه شاحب الوجه غائر العينين مما حمل قبطانه على امره بالعودة الى الفراش، لكن كاتبنا ابى الا ان ياخذ نصيبه من شرف العراك واصر على البقاء قائلا انه يفضل الموت مجاهدا في سبيل ربه وملكه على الحياة. والى على ان يعهد اليه اخطر مكان في المركب ليحارب ويموت فيه، فما كان من القبطان الا ان نزل عند رغبته واسند اليه شغل اخطر مكان في مركبه «لاماركيزا» على رأس اثني عشر جنديا، وما ان بدأت المعركة حتى اخذ سرفانطيس بيدي من الجرأة والاقدام والحماس ما لا يوصف، وبعد زمن يسير اصابه طلق ناري في صدره اسال دمه غزيرا، لكنه لم يلبث ان استجمع قواه وعاود الكرة ضاربا صفحا عن دمه المتفجر، وما مرت برهة قصيرة حتى اصابه طلق ثان في صدره، غير انه ظل ثابتا في مركزه لا تلين له قناة ولا تبدو عليه بوادي الضعف لا يقيم لدمه وزنا ولا لحياته قيمة.

وبعد قليل تلقى في يده اليسرى طلقاً جديداً تركها معطوبة الى آخر حياته، وكم من مرة اضطر سرفانطيس في سني حياته التعيسة ان يلوح بهذه اليد المعطوبة مذكراً، ولكن كمن ينفخ في رماد! ولم تكن جراحه الجديدة همته عن مواصلة القتال فبقي يدافع ويكافح الى ان رأى المراكب التركية تنكص اعلامها وتراجع هزيمة. وتم النصر في هذه الموقعة لاسطول الرابطة وسقطت بين ايديه غنائم وافرة واسارى لا يحصون واقتك ثلاثة عشر الف اسير من النصارى كانوا قد ربطوا بالمراكب التركية وكلفوا بجدها.

وها نحن نترك الكلام هنا للمؤرخ الاسباني المعاصر سباستيان خوان اربو ليصف تأثيرات سرفانطيس بعد هذه المعركة: «ما كادت المعركة تنتهي ويحل الليل بظلامه حتى هبت زوبعة هوجاء وعصفت الاعاصير وابرقت السماء وارعدت وظلت الارياح تعبث طيلة الليل ببقايا السفن المكسرة وجثث القتلى والاشلاء المبعثرة والدماء العائمة التي كانت تحتل بقعة فسيحة من البحر وقد القى الليل عليها بساط رأفته، وفي ذلك البحر وذلك الليل كانت المراكب المظفرة تنشد مرفأها القريب، وها

هو ذا ميغيل سرفانطيس ممدداً فوق فراشه وقد اثقلت
الحمى جفونه ونشبت الام الجراح في بدنه يسمع في
اعماق تلك الظلمات نشيدا محزناً يصعده من بعيد
البحر الهائج ويسمع تلاطم الامواج واصطدام الارياح
بالمركب الذي يحمله ودوي الرعد الذي يخنق بين
فترة واخرى دوي الامواج، ولعله كان يسمع وسط
هذا النشيد الوحشي المشؤوم صياح المحاربين وتجديفهم
واصوات الفرع واصطدام المراكب ممزوجة بدوي الضربات
وتاوهات الجرحى الذين يسقطون ليرقدوا الى الابد في
جوف ذلك البحر، اجل! انه رجل سلم ومن اجل السلم
وحده يقبل الحرب ويقدمها كما قال بعد ذلك بزمن
طويل بلسان «مجنونه النبيل»، ولعله الان وهو ينصت
الى دوي العاصفة هابة على المياه المغطاة بالجليد، بعد
ان هدأت حدة الدم وتلاشت نشوة الظفر وتحرر من
كل شىء وارتفع الى تلك الاجواء الرفيعة التي تكاد
تكون سماوية، تلك الاجواء التي عرف ان يرتفع اليها
مرارا وتكرارا في صفحات كتابه الخالد، وراء الزمن
والفضاء وقد تناسى حيناً وطنه وشمل بفكره الانسانية
جمعاً متذكراً النكبات التي خلفها وراءه ذلك اليوم

الدامي، لعله اذاك قد فكر في هذه الحاجة السرية الهائلة الى الحروب البشرية التي تنقض على العالم كلجنة الهية بين حين وآخر، ولعل فؤاده قد امتلا اذاك للمرة الاولى من الحنين الى حلم سلم وسعادة يخيم على البشرية المعبدة ذلك الحلم اللذيذ الذي سيحييه يوما في مؤلفه «ضون كيخوطي» والذي طالما لامس نفسه، ولعله لم يشعر قط بذلك الحلم شعوره به تلك الليلة بينما كانت المراكب عائدة وسط ثورة الاعاصير من مذبحة ليبانطو».

بعد المعركة

ما كاد نبأ النصر يبلغ ايطاليا حتى اسرعت مدنها الى اقامة الحفلات والاعياد، وعم الفرح اسبانيا ايضا، وبلغ اسكوسيانفسها، وتغنى الشعراء بذلك اليوم وحفظ الرسامون ذكره بلوحاتهم وتنافست المدن الايطالية في الاستعدادات الفخمة لاستقبال ضون خوان دي اوستريا، واستولت على المنتصرين نشوة اذهلتهم عن الواقع فظنوا انهم قضوا على الاسطول التركي للابد، وصمموا على استرجاع قبرص وفتح المرافئ الافريقية، وبلغ التفاؤل بفريق منهم ان حلموا بفتح القسطنطينية وبيت المقدس لكن يد الفرقة لم تلبث ان دخلت بينهم فلم تتعد تلك المشاريع حدود الخيال.

ام الاتراك فما كادت تتلاشى الدهشة الاولى التي احدثها في نفوسهم نبأ الهزيمة حتى استرجعوا عزيمتهم واستجمعوا قواهم وشرعت دور الصناعة في القسطنطينية تشغل بنشاط وعزم تحت ادارة العلي علي في تجديد الاسطول التركي، وقبل ان تنقضي سنة كان الاسطول الجديد يعاود الكرة على المرافئ المعادية.

سرفانطيس جريح - عودته الى الجيش

عاد سرفانطيس من معركة ليبانطو معطوب
اليد جريح الصدر فادخل احد مستشفيات مسينا وبامر
من ضون خوان دي اوستريا زيد راتبه ثلاث دكات
ذهبية في الشهر.

وقد اكسبته الاقامة في مسينا معرفة باخلاق القرويين
وسداجتهم وطيب قلوبهم وحصل من معاشرتهم والاتصال
بهم خبرة واسعة ومعلومات دقيقة اودعها بعد اعوام
كتابه الخالد، ولاغرو ان يكون قد نظم في هذ الفترة
بعض المنظومات وصرف بعض نواحي تفكيره الى الادب
وشيئا من وقته في المطالعة.

وما كادت تندمل جراحه حتى احس بالرغبة في
العودة الى الجيش، وفي 29 ابريل (نيسان) سنة 1572
اذا به ينخرط من جديد في كتيبة اليوزباشي مانويل
بونسي دي ليون المنتمية الى فريق لوبي دي فيغيروا

سرفانطيس يعود الى الميدان الحربى

ظن النصارى في بادىء الامر ان معركة ليبانطو
قضت على سلطان الاتراك في البحر وانه لن تقوم لهم
قائمة بعدها، ولكن سرعان ما خاب ظنهم وتلاشت
احلامهم، فرأوا الترك ولم يمض عليهم سوى نيف وسنة
قد استرجعوا نشاطهم وجددوا اساطيلهم وعادت سفائهم
تمخر عباب البحر المتوسط متصدية لمراكب النصارى
وتغير على مرافئهم العديدة ملقية الرعب في قلوب
سكانها، فادرك النصارى حينئذ ان الميدان مازال مفتوحا وان
الحرب لم تقل كلمتها الاخيرة. ففكروا في معاودة الكرة
عسى ان يقضوا هذه المرة قضاء حاسما على عدوهم
الخطر، وجمع ضون خوان دي اوستريا من جديد
اساطيل الرابطة في مرفأ مسينا بعد ان آب المتحالفون
الى الوفاق فيما بينهم واصبح متاهبا للابحار لا ينتظر
سوى الامر بالاقلاع من اخيه الملك فيليب الثاني.
لكن الدسائس لم تكن لتهدأ في البلاط الملكى

ولذلك لما وصل ضون خوان الامر بالابحار كان الطقس قد اصبح رديئاً، فاقلع على كره وركب سرفانطيس هذه المرة ايضا احد مراكب ذلك الاسطول رغم يده المعطوبة لكن هذه الحملة لم تكن موفقة واصطدم الاسطولان المعاديان في خليج نافارينو الواقع الى جانب شاطىء البيلوبونيز الغربى في اليونان، في 7 اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1572، ولم تسفر هذه المعركة التى عرفت في التاريخ باسم معركة نافارينو عن نتيجة معينة لاحد الجانبين، ورجعت اساطيل الرابطة الى مرفأ مسينا بعد ان فقدت عددا كبيرا من البواخر بسبب العواصف التى هبت عليها، وما كادت تبلغ ذلك المرفأ حتى فوجى ضون خوان بنياً عقد صلح منفرد بين البندقية والترك تخلت بمقتضاه تلك الجمهورية عن جزيرة قبرص التى تألفت الرابطة من اجل حمايتها.

وفي السنة التالية جهز ضون خوان حملة جديدة وكان سرفانطيس من جملة الجنود الذين اشتركوا فيها وتوجه الاسطول الى الشاطىء الافريقى فاحتل مدينة تونس دون كبير جهد وعناء، وكان ضون خوان يؤمل ان يمنح مملكة تونس لكن اخاه فيليب الثانى لم

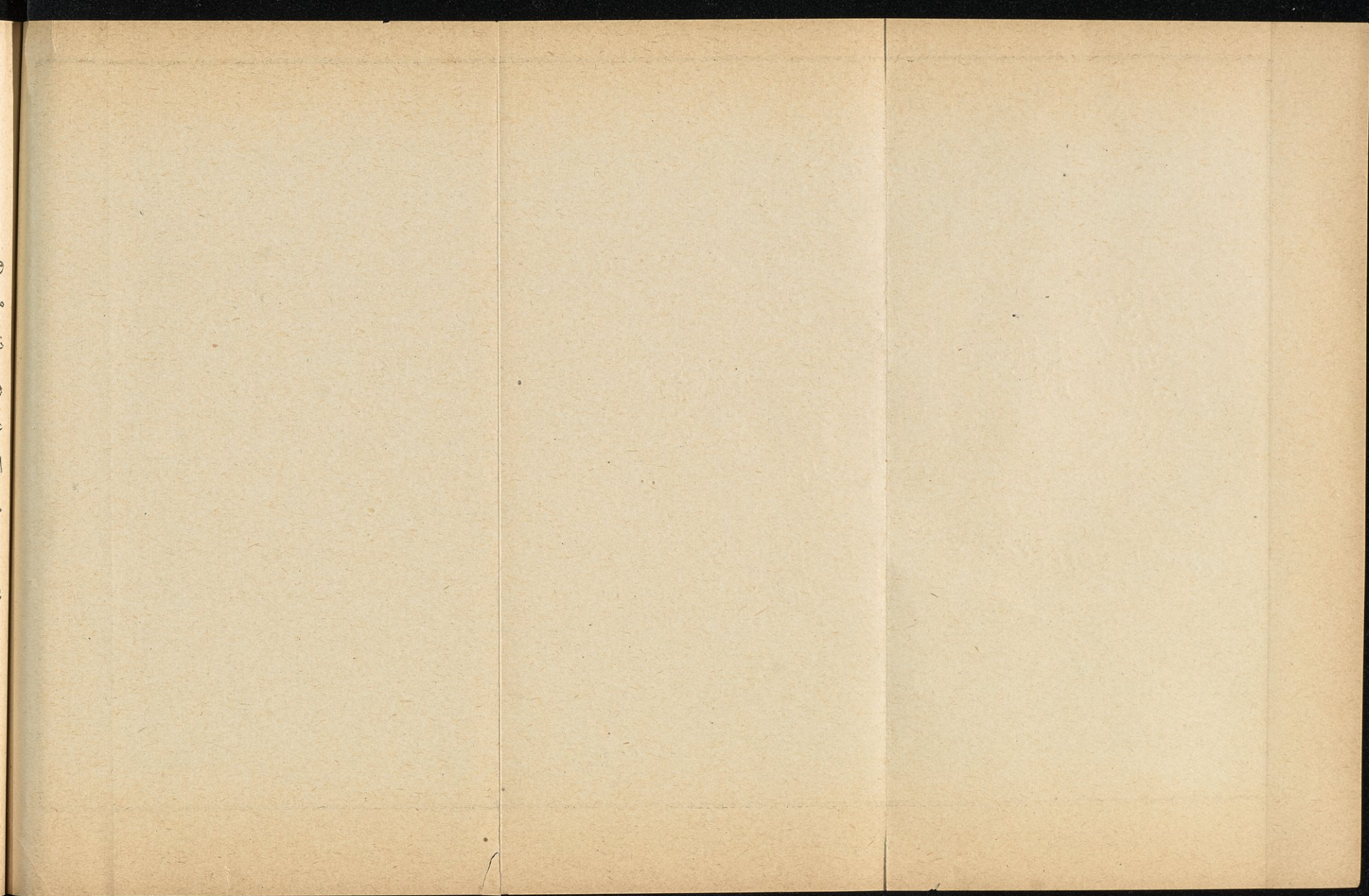
يرض بذلك، وبعد ان جدد بناءً حصوننا ترك فيها
حامية وعاد باسطوله الى ايطاليا وعاد سرفانطيس ايضا
واقام في هذه المرة في جزيرة سردينيا.

وفي سنة 1574 بينما كان ضون خوان في مدينة
جنوة بلغه نبأ بان اسطولا تركيا ضمخما اقلع من
القسطنطينية تحت قيادة العليج على قاصدا شواطئ
افريقيا، فتبادر الى ذهن القائد الاسباني ان الترك
سيهجمون لامحالة على تونس، فكتب الى اخيه مستنجدا
لكن الدسائس كانت تعمل عملها، وحين وصله الامر بنجدة
حامية تونس كانت تلك المدينة قد سقطت بين يدي
الترك منذ زمن ولاقت حاميتها اشنع مיתה.

فابحر ضون خوان وابحر معه سرفانطيس من جديد
لكنه لم يكتب له النصر هذه المرة. وغرق الكثير من
مراكب اسطوله وبقيت تونس بين يدي الترك وكذلك
سقط بين ايديهم حصن لاغوليطا، وعاد ضون خوان الى
ايطاليا خائبا، وقد تركت هذه الخسائر في نفس سرفانطيس
اثرا عميقا من الاسى وبدأ يدرك مدى الدسائس والاهواء
الفردية الجشعة التي لا تحجم عن التضحية بدما الجنود
المساكين في سبيل مطامعها.



خريطة البلدان الواقعة حول البحر المتوسط وفيها جرت الحوادث التاريخية الدولية المشار اليها في هذا الكتاب



في نابولي

قضى سرفانطيس ذلك الشتاء في نابولي مدينة احلامه
 وكان هذا آخر عهده بايطاليا، لكن هذا الطور الاخير
 من اقامته ترك في قلبه اثرا لن يمحي، فقد كانت
 نابولي عهدئذ مدينة زاخرة بالجنود الاسبانيين وبالشعراء
 والملاهي، وفي كل هذه الاجواء يجد سرفانطيس ما يسري
 عن نفسه آلام الحية، وفي نابولي التقى باخيه رودريغو
 الذي كان منخرطا في احد الجيوش ايضا، وفي نابولي اغرم
 كاتبنا بامرأة لم يحفظ التاريخ لنا اسمها بادلتة الحب
 والقت على جراح قلبه المتألم بلسما عذبا ظلت ذكره
 في نفسه حتى اواخر ايامه، ولعل هذا الحب هو السبب
 الرئيسي الذي جعله يتشوق طول حياته الى تلك المدينة
 الايطالية، وقد ادعى بعض المؤرخين انه رزق صبيا من
 تلك المرأة التي احبها ويستندون في دعواهم على ابيات
 له وردت في مؤلفه الشعري «رحلة البارناس» وفيها يقول
 مشيرا الى التقائه بشاب - بالخيال طبعا - في شوارع نابولي:

«وبكل حنو عانقني صديقي، ولما صرت بين ذراعيه
قال لي انه يشك ببقائي هنالك طويلا، وناداني «أبت»
وناديته: «بنى»، وهكذا احق الحق»
لكن هذه المسألة لما تتضح كل الوضوح،



خرج سرفانطيس من وطنه منذ ثلاث سنوات سعيا
وراء المجد وها هو ذا الان بعد ان اشترك بمعركة
شلت فيها يده وظنها الضربة القاضية على العدو والسلم
لارتقائه درجات العلى يرى آماله تنهار واحلامه تتلاشى
ومعركة ليبانطو اصبحت على قربها حلما بائداً لا يؤبه
له، ومن الاسطول الجبار الذي انتصر في ليبانطو لم
تبق سوى بقايا سفن محطمة تعود من نافارينو وتونس
لكن نفس كاتبنا الوثابة لم تكن لتخلد الى الهدوء،
فما كاد يسدل الستار على هذا الفصل من حياته حتى
ازاحه عن مسرح آخر ليمثل عليه فصلا جديداً، اي انه
بعد ان اخفق في نيل امانيه من رحلته الى ايطاليا
تحولت افكاره من جديد شطر الوطن واخذ يتبادل
الحديث في الموضوع مع اخيه رودريغو الى ان استقر
رأيهما على العودة معا

لكنه كان بحاجة الى رسائل توصية يحملها الى
 مدريد، وكانت تربطه بالدوكى دي سيسا نائب الملك
 في صقلية بعض روابط الصداقة لعل مصدرها شغف
 الدوكى بالادب وما ابداه كاتنا من اقدام يوم ليبانطو،
 فقابلته وعرض له فكرته، ويظهر ان الدوكى وافق عليها
 لكنه اشار عليه ان ينتظر عودة ضون خوان الى
 ايطاليا واعدا اياه بان يسهل له اذاك مقابلة الامير الفتى،

الرحيل

في اواسط يونيو (حزيران) من سنة 1575 وصل
ضون خوان دي اوستريا الى نابولي وبعد وصوله بايام
قلائل حظي سرفانطيس بمقابته بواسطة الدوكي دي
سيسا، وقد اسفرت المقابلة عن اعطاء الامير كاتبنا
رسائل توصية الى اخيه الملك فيليب الثاني ليقلده قيادة
كتيبة «وهو تقليد يستحقه - حسبما جاء في الرسالة -
لما ابداه من شجاعة واقدام ودل عليه من نبل وكرم
واتصف به من مواهب وذكاء».

وكانت رسائل ضون خوان ورسائل الدوكي دي
سيسا ويده المعطوبة كافية في ظنه ليقلد ما يتمناه فيعود
للانضواء من جديد تحت لواء قائده الشاب لكن
الاقدار كانت تخبى لهما غير ما حسباه، فدفعتهما في
طريقين لن يلتقيا: الواحد نحو الموت الزؤام في سهول
فلانديس والاخر الى الاسر الشديد في سجون الجزائر،
فكانت هذه المقابلة آخر عهدهما الواحد بالآخر.

وفي العشرين من شهر سبتمبر (ايلول) من تلك
السنة اقلعت من مرفأ نابولي السفينة «صول» اي (شمس)
حاملة على متنها في جملة من حملتهم الجندي المعطوب
اليد ميغيل دي سرفانطيس واخاه رودريغو.

أمل خائب

اقلعت السفينة «صول» وبمعيتهما سفينتان اخريان
«لامندوثا» و«ايغيرا» والفرح يملأ قلوب ركايبها
وبالخصوص كاتبنا الذي كان يعلل النفس بالاجتماع
قريبا بالاهل والخلان بعد غياب اربع سنوات ومشاهدة
تربة الوطن والحصول على امنيته الغالية التي ستساعده
على نيلها رسائل التوصية التي يحملها من ايطاليا.

وبعد ان قطعت شوطا بعيدا من الطريق وتوغلت
داخل خليج ليون وابصرت مرفأ «المريمات الثلاث»
الصغير اذا بالبحري المكلف بالحراسة فوق مقدمها يبصر
في تلك الليلة وقد اشرف قمرها على المغيب اشباح سفن
تركية تقترب فاخذ يصيح ملقيا الرعب بين البحارة
والركاب، لكن قبطان المركب حافظ على رباطة جأشه
ولم يبد ادنى خوف او قلق.

وكانت السفن التركية اربعة يقودها امير القرصنة
الجزائرية ارناؤوط مامي، وقد خرجت من الجزائر
كعادتها تبحث عن سفن نصرانية لتتنقض عليها، وكانت
السفينة «صول» قد سبقت رفيقتيها فاصبحت منفردة،

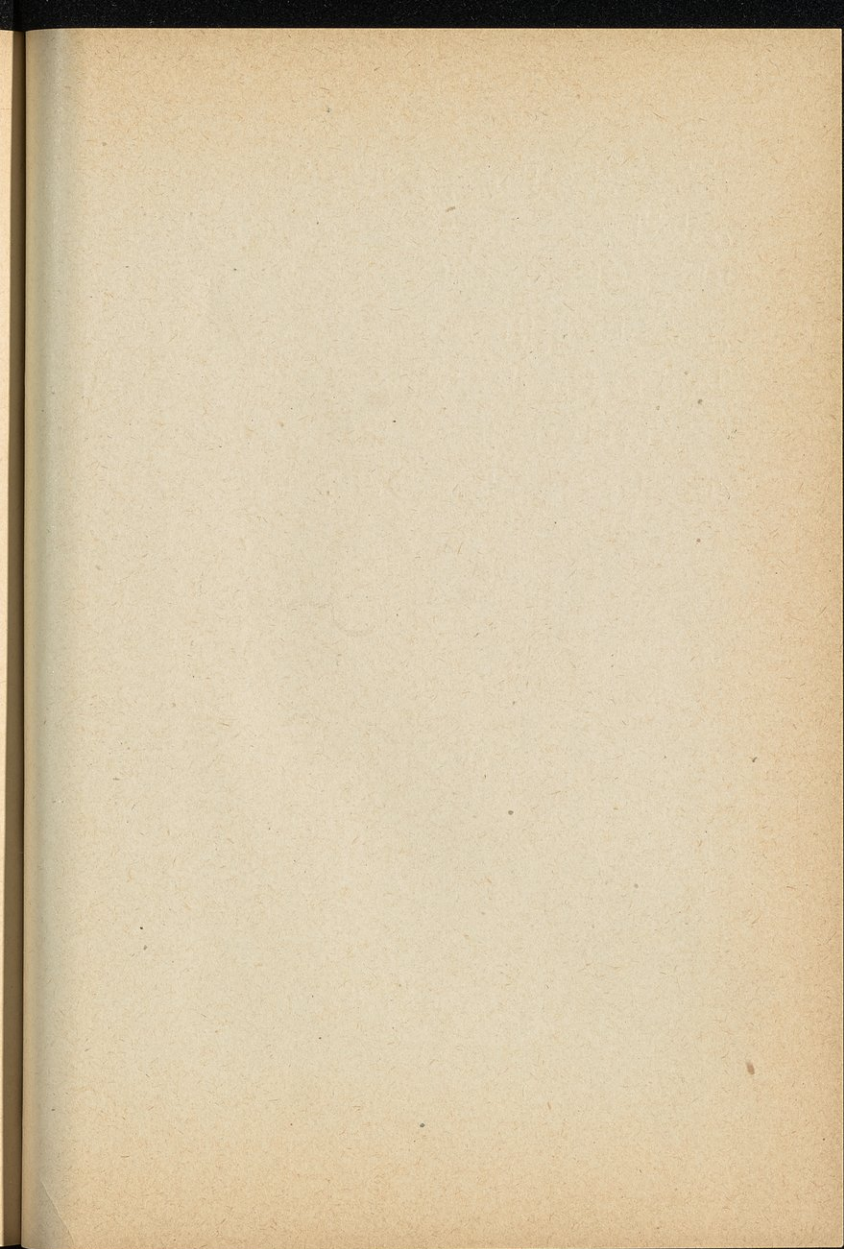
ولما ابصر قبطانها الخطر حاول ان يبلغ بها الشاطئ قبل ان يدركها القراصنة فأمر برفع الشراع واعداد المدفعية بقصد ان يمر بين السفن التركية مسرعاً بينما المدفعية تطلق عليها نيرانها، لكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته لان الارياح هدأت فجأة وبقيت السفينة في مأزق حرج، غير ان الترك لم يحركوا ساكناً في الليل بل اقتصروا على مراقبتها الى ان اصبح الصباح، واذاك ارسلوا وفداً على فلك صغير يدعو قبطان المركب الاسباني الى الاستسلام فرفض الاجابة الى طلبهم واستعد للمدافعة.

وكان ذلك في السادس والعشرين من سبتمبر (ايلول) وبعد قليل بدأت المعركة وظلت ناشبة من الفجر حتى المغيب، وابتدت السفينة جرأة كبيرة في مدافعة السفن التركية الاربعة وصمدت في وجهها النهار كله، وابلى سرفانطيس في هذا اليوم ابلاءً في معركة ليبانطو وظل يكافح حتى الليل اذ بدأت النيران تدب في السفينة من جهاتها الاربعة وقتل معظم رجالها وتعطلت مدافعها وتمزقت قلعوها ولم يبق في الامكان اخماد النيران المندلعة اللسن، واذاك فهم سرفانطيس ان كل

شيء قد انتهى وانه لم يبق له من الواقع المر الاليم
مفر ولا نجاة.

وما هو الا القليل حتى رأى احدى السفن التركية
تتقدم الى المركب الاسباني ويصعد رجالها الى متنه،
فيستولون على كل ما فيه من اناس وغنائم، ومن
جملة الذين لم يلاقوا حتفهم فسقطوا اسارى كاتبنا ميغيل
واخوه رودريغو، وانها والحق يقال لساعة اليمة تلك
التي ابصر نفسه فيها يقيد كالعبيد وينقل الى السفينة
التركية كما تنقل السلع لبيع فيما بعد او يتاجر به في
اسواق الجزائر والقسطنطينية، وها هي احلامه تتبدد
كالسحاب واماله تنقش كالغيوم وافراحه تذوب كالثلج
تحت حرارة الشمس، وها هو ذا حاجر حصين يرتفع
بينه وبين الوطن ووراء هذا الحاجز ليل الاسر المظلم
الذي لا يدرك نهايته سوى عالم الغيب، فلا يتمالك عن
ان تمر امام عينيه تلك الصور المؤلمة المخيفة: صور
الاسارى المشدودين الى مقاعد المراكب ليجدوا ساعات
تلو ساعات دون ان يكل لهم ساعد او تهدأ لهم يد
وويل لمن تقاعس فجزاءه ان يكون غداً الحيتان وصور
الاسارى الذين يحاولون الفرار يموتون فوق المشانق

والخوازيق، وصور الجلد والتعذيب والنزاع البطي في
مطامير الجزائر المظلمة، وكم من مرة سمع الاسارى
المفتكين يقصون على مسمعيه هذه المشاهد فاقشعر لها
بدنه وذابت لها نفسه الما وحسرة، واذا بالاقدار ترمي
به الان وسط هذا العالم الذي كان يخشاه ويحارب للقضاء
عليه، وعوضا عن مشاهدة الوطن والاهل ونيل الامنية
المنشودة ها هو ذا يلقي الاسر مع ما يخبى وراء من
الام واهوال.



الفصل الثاني

في الاسر

الجزائر

قضى سرفانطيس ساعات في حالة ذهول عميق لم يشعر خلالها بما جرى حوله ولا باقتراع الاسارى ووقوعه في نصيب «دالي مالي» شقيق ارناؤوط مالي واقسى القراصنة قلبا واغلظهم معاملة، ولما استفاق من ذهوله ابصر الى جانبه اخاه رودريغو وبعض رفقاء رحلته، والكل مقيد بقيود غليظة لكن قيوده اعظمها واوثقها ففهم ان سبب ذلك رسائل التوصية التي كان يحملها وعليها توقيع ضون خوان دي اوستريا مما حمل القراصنة على الظن بان حاملها ذو مكانة رفيعة وان في الامكان قبض كمية وافرة مقابل اقتكاكه. عبث الدهر الخؤون! يقدم للمرء كأس الخلاوة حتى اذا قاربت شفتاه انقلبت علقما وما كان بالامس محط الامل لنيل العلى اذا به اليوم سبب في التضيق والتشديد.



ما كادت السفن التركية تبلغ مرفأ الجزائر حتى انتشر الخبر في المدينة كالبرق فاقبل الناس زرافات ووحدانا كعادتهم كلما عاد القراصنة من غزواتهم

ليتفرجوا على الاسارى والغنائم، وكانت عودة القراصنة
كالاعباد في حياة الجزائر ويعم الفرح الجميع لان كل
واحد يرى سبيلا للكسب والطرب.

ونزل رؤساء المراكب ثم انزل الاسارى واقتيد كل
الى سجن مولاه، وكانت دار دالي مامي واقعة في الناحية
المرتفعة من الجزائر وفي منتهاها مطمورة يئن في داخلها
مئات من المساجين الاسيان، واليهما سيق سرفانطيس،
وبعد ان ربطت قيوده برزات مدقوقة في حائط المطمورة
ترك في تلك البؤرة المظلمة العفنة التي لا يكاد يدخلها
النور يحرق الارم الما وغيظا ويبلل بدموعه تلك التربة
القاسية التي سيفترشها في اسره المر.

اما اخوه رودريغو فوقع في نصيب امير الجزائر
رمضان باشا.



لا نعلم بالضبط كم من الزمن امضى سرفانطيس
في حبسه المظلم محروما من الاتصال بالعالم ومن استنشاق
الهواء النقي مكبلا بالقيود الثقيلة، وسبب هذه المعاملة
الشاذة كما قلنا قبل رسائل التوصية التي كان يحملها
وخوفا عليه من الفرار امر سيده بزجه في تلك المطمورة

المظلمة. لكن نفس كاتبنا التواقفة الى الحرية كانت من تلك الحالة في جحيم، وفقد كل شهوة للطعام وهزل جسمه هزالا ادخل الخوف على حياته في قلوب حراسه من ان يودي ذلك الضعف بحياته فينقم عليهم مولا هم «دالى مامى» اذا خسر ما يؤمله من دية لافتكاكه، وويل لهم من نقمته! فاسرعوا الى ابلاغه حالة الاسير فامر بان يخفف من قيوده ولم يلبث ان سمح له بالخروج الى المدينة والتجول في شوارعها، فكان ذلك القسط اليسير من الحرية بلسما لنفسه المعذبة وباب فرج امام عينيه وحافزا لهمته للسعي رغم الاخطار العظيمة عن سبيل الحرية لانه حسبما قال فيما بعد في كتابه الخالد «في سبيل الحرية وحدها يمكن ويجب بذل الحياة» وفكرة الحصول على الحرية ستكون شغله الشاغل خلال سنوات اسره الخمس. وقد قال فيما بعد «لم آيس قط من الحصول على الحرية، وكنت اذا عرض لي خاطر وفكرت فيه مليا وباشرت تنفيذه ثم جاء الواقع مخالفا لمبتغاي لا اراجع ولا الين بل ابحت عن امل آخر استند عليه مهما كان ضئيلا وهزيلا». ويقول الاب هايدو في تاريخ الجزائر «انه كاد يفقد الحياة اربع مرات فوق الخازوق او مبقورا

بالكلاب او محروقا حيا». وكانت هذه هي الميئات
 الثلاث التى تستعمل للاعدام والثانية اشنعها وهى عبارة
 عن نوع من المشنقة غرز في وسطها كلاب حاد من الفولاذ
 فيعزى المحكوم عليه وتكتف يداه على ظهره ويرفع بالحبيل
 حتى اعلى المشنقة ثم يفلت فيسقط ويعلق الكلاب بذراعه
 او بساقه او ببطنه ويبقى يتلوى على هذه الحالة حتى
 يلفظ النفس الاخير.

فهذه الميئات الشنيعة ابصرها سرفانطيس بام عينيه
 لكها لم تكن لتوهن عزمه وتثنى همته عن تدبير الحيل
 للفرار، فكما اخفقت حيلة عاد الى تدبير غيرها وهو
 اقوى املا واشد عزما واكثر ثقة بالنجاح.

المحاولة الاولى

لم يكن قد انقضى على سرفانطيس في الاسر سوى بضعة اشهر حين دبر الحيلة الاولى للفرار، فذات ليلة استدعى بضعة اصحاب له وافشى اليهم بقصده، واتفقوا سرا على تنفيذ الحيلة وكان عددهم لايتجاوز الثمانية، وكانت الخطة التي رسمها سرفانطيس تقوم على الفرار عن طريق البر الى مدينة وهران التي كانت حينئذ واقعة تحت حكم الاسبان، ولكن العقبات في سبيل تنفيذ هذه الخطة كانت عديدة، فالطريق وعرة المسلك مخوفة بالاطار وحراس الحدود لايعمض لهم جفن والبدو يخيمون في تلك الجهات ولايسهون عن مطاردة الاسارى الفارين مقابل مكافآت ينالونها، اما العقبة الكؤود فهي جعلهم الطريق، وحاجتهم الى دليل وفي يقودهم الى وهران فالخطة اذا لم تكن بسهولة التنفيذ ولا بمضمونة النجاح لكن نفس سرفانطيس الكبيرة المعذبة في الاسر جعلته يعرض الطرف عن بقية الاخطار بعد ان اتصل باحد المسلمين واكتسب ثقته واتفق معه على ان يكون دليلا له ولرفاقه في هذه المغامرة التي ورائها الحرية المنشودة او الموت الزؤام.

وفي اليوم المعين اجتمع سرفانطيس ورفاقه العازمون
على الفرار وتزودوا بما قدروا على جمعه من الزاد
والاحذية وتنكروا بزى المسلمين، وباشروا السير ليلا
وما أن جازوا المروج المحيطة بالجزائر حتى تصدت لهم
المسالك الوعرة والبراري الخشنة المغطاة بالاشواك
والصخور وواصلوا المشي طيلة الليل رغم العقبات كلها
فاصبحوا منهوكي القوى خائر العزم متورمي الارجل
يكادون لايقوون على مواصلة السير.

وبعد ان بلغوا احد الاماكن ابصروا الدليل يتردد
متحيرا يقدم رجلا ويؤخر اخرى وقد التبست عليه
الطريق، فاصبح من امره في حيرة كبيرة، وما عثم ان
صرح لهم بحيرته واشكال الامر عليه وحاجته الى العودة
على عقبه ليسترشد بمن له بتلك الاراضي معرفة ثابتة
فلم ير هؤلاء مخرجا سوى النزول عند رغبته، فابتعد
عنه ابتعاد غراب نوح.

مرت ساعة وتلتها ساعة اخرى ومن بعدها ساعات
وهم ينتظرون عودة الدليل، ولما اخذت الشمس تميل
الى المغيب بدأت امالهم برويته تتلاشى وما ان حل
الليل بظلامه حتى فقدوا كل امل واطلمت الدنيا في

وجوهم اذ ما عساهم ان يفعلوا الان؟ ان واصلوا السير نحو وهران بلا دليل فذلك معناه الموت الاكيد، وان عادوا الى الجزائر فالموت في انتظارهم ايضا ولكن قد يسعدهم الحظ باختلاق معذرة تبرر تغيبهم ان امكنهم ان يبلغوا المدينة دون ان يلقي القبض عليهم فبعد اخذ ورد قرروا العودة وفي تلك الليلة نفسها سلكوا طريق الاياب. وهكذا فشلت المحاولة الاولى للفرار.

اما كيف بلغوا الجزائر في اوبتهم وما اختلقوه من اذار مقنعة دفعا لكل عقوبة فذلك ما لانعلمه بالتفصيل وكل ما في علمنا هو انهم لم يعذبوا وانما نعرف مما رواه سرفانطيس انه اودع السجن وفرضت عليه مراقبة اقسى واضيق مما كان عليه في حاله الاولى، ولعل السبب في عدم معاقبتهم بالجلد والتعذيب او غير ذلك حسب تعليل بعض المؤرخين ان امير الجزائر الذي لم يكن من القساوة في درجة خلفه «حسان باشا» كان يستعد في تلك الاونة لتسليم مقاليد الحكم الى خلفه المذكور الذي كان ينتظر وصوله بين حين وآخر.

ومع هذا كله فقد خيم الظلام من جديد على نفس سرفانطيس وحياته.

مساعي عائلة سرفانطيس لافتكاكه من الاسر

في سنة 1596 افتك بعض الاسارى الاسبان ومن
جملتهم الفارس غبريال دي كاسطنييدا. وقبل ان يغادر
الجزائر حمله سرفانطيس رسالة الى والديه، يشكو اليهما
فيها مرارة الاسر ويدلهما على الطرق التي يجدر بهما
ان يسلكاها لنجاح مسعاهما. وكانت رسالة ميغيل
تمليها نفس معذبة يحز الالم في اعماقها لانه قد ضيق
عليه تضيقا شديداً بعد محاولته الفرار. ويقول احد
الاسارى المسمى خوان بالكارسيل في مذكراته انه سمعه
يشكو مراراً من سوء معاملة مولاه له. ويستفاد من احدى
الوثائق انه اضطر ان يقترض مالا ليأكل لان مولاه
لم يكن يعطيه طعاما ولا لباسا.

ويظهر ان كاسطنييدا دخل اسبانيا في اواسط
السنة وما كاد يبلغ مدريد حتى قصد توا عائلة
سرفانطيس ليبلغها رسالته ويعلمها بحالته وحال اخيه.
وبوسعنا ان نقدر ما تحدثه هذه المفاجأة في قلوب
افراد تلك العائلة من فرح وألم ممتزجين: فرح بالعلم

بان الاخوين اللذين انقطعت اخبارهما منذ أسرت السفينة «صول» ما زال على قيد الحياة. والم لما يسمعونه من تفاصيل عن تلك العيشة البائسة المحفوفة بالاطار والمهددة بالموت في كل اونة.

وكانت العائلة كعادتها في حالة مادية صعبة لكن الامل بافتكاك الولدين الاسيرين جعلها تتغلب على العقبات وحملها على التضحية بكل غال ورخيص، فرهن الابوان بقية ثروتها الضئيلة وتنازلت الاختان عن مهریهما لجمع الكمية الكافية لاقتداء الاخوين.

لكن كل ما جمعه بشق النفس وعظيم التضحية لم يكن بالشئ الكثير اذا قيس بالكمية المطلوبة للفدية، فلم يكن اذاك بد من افراغ جعبة الوسائل كلها: من طلب توصيات والحاح وجهد واجهاد، وعملت العائلة بمقتضى نصائح ميغيل في رسالته، وزيادة في التأثير ارتدت امه ملابس الارامل واستصحت ابنتيهما وبدأت تطوف على ابواب العظماء مستعطفة مستنجدة وكان ميغيل يلح في رسالته ان يقصدوا خاصة ضون خوان دي اوستريا.

غير ان الحالة السياسية في اسبانيا كانت غير

مستقرة لان ثورة فلانديس - التي كانت تدعمها انكلترا وفرنسا في الخفاء - على الحكم الاسباني كانت على ازدياد بحيث لم ينجح في تهدئة الخواطر واحد من التدابير المتخذة، فلا غرو ألا يعار كبير اهتمام لمصير الخمسة وعشرين الف اسير الذين كانوا يموتون موتاً بطيئاً في مطامير الجزائر ولا غرو ان تذهب سدى دموع ضونيا ليونور والدة كاتبنا ودموع بنتيها، اما ضون خوان دي اوستريا فلم تتمكن من مقابله.

وفي نهاية الامر جمعت العائلة بعد بذلها كل تضحية ما قدرت عليه من المال وتوجهت الام مصحوبة ببنتيها وكلهن مرتديات لباس الحداد الى دير «لامرسيد» ودفعن ما جمعنه الى الراهب خورخي دي اوليفار الذي عينته رهبنته تلك السنة لاقتداءً الاسارى واوصينه بميغيل خاصة لان الانبياء التي كانت تبليغهن عن تصرفاته وعن تعرضه الدائم للاخطار كانت تجعلهن يقلقن عليه اكثر من قلقهن على اخيه رودريغو فلذا كان همهن الان اقتداءه اولاً، وبعد ذلك يفكر في اقتداء رودريغو. وبعد ايام قلائل ابصر الراهب نحو الجزائر حاملاً ثروة آل سرفانطيس وآمالهم.

افتداء رودريغو المحاولات الجديدة

ما ان حل الراهب خورخي دي اوليفار في الجزائر حتى شرع بالمفاوضات مع موالي الاسارى لافتداء من يقدر عليه، ولم يلبث ميغيل ان اتصل به ونفسه مفعمة بامل في نيل الحرية عاجلا، لكن آماله خابت حين علم مبلغ ما دفعته الى الراهب عائلته، فانه وان كان عظيما اذا قيس بثروتها فانه ضئيل جدا اذا قيس بما يطلبه مولاه. دالي مالي، ولم تسفر مساعي الراهب عن نتيجة في هذا الباب لان دالي مالي كان اذاك غائبا عن الجزائر في احدى جولاته البحرية المعتادة على رأس قراصنته وقد ترك تعليمات حاسمة لتوابه بان لا يطلق سراح اسيره باقل من الفدية المعينة، ولما رأى ميغيل انه لا سبيل لاطلاق سراحه قرر ان يفقدى بالمبلغ المرسل اخوه رودريغو عسى ان يكون ذلك الخطوة الاولى في سبيل تنفيذ مشروع جديد للفرار كان قد اعدده من ذي قبل.

وخبر هذا المشروع هو انه كانت لحاكم مدينة
الجزائر دار تقع شرقي المدينة على فرسخ منها، وكانت
تحيط بالدار حديقة فسيحة الارجاء كثيفة الاشجار يعتني
بها اسير اسباني نافاري الاصل يدعى خوان، فاستحكمت
بينه وبين ميغيل سرفانطيس صداقة متينة وزار ميغيل
الحديقة وتفقد انحاءها، وكان في طرفها كهف واسع لا
يعرف بوجوده الا القليلون، فرأى كاتبنا في الكهف
وكثافة الحديقة وموقعها طريقا سهلا لتدبير حيلة جديدة
للمفرار. وكانت هذه تقوم على ان يقترب ليلا من
الشاطئ بالقرب من الكهف مركب اسباني يقوده بحري
ماهر عالم بتلك الانحاء، ويومي الى الاسارى المحتبسين
في الكهف باشارة معهودة فيغادرون الكهف ويسرعون
الى المركب ثم يقلع هذا موليا وجهه شطر اسبانيا.

وكان سرفانطيس قد ادلى بمشروعه هذا الى عدد
من الاسارى ومن بينهم من ينتمون الى كبار العائلات
فوافقوا عليه، ووافق ايضا البستاني خوان على ان
يكون من جملة الفارين.

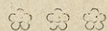
وحيث كان هذا المشروع قد اعد قبل وصول
الراهب خورخي دي اوليفار رأى ميغيل ان اطلاق سراح

اخيه سيساعده على تنفيذه لانه سيقدر اذاك ان يعهد اليه بالقيام بكل ما يوصيه به لنجاح المشروع، ثم استحصل على رسائل توصية من ضون انطونيو دي طوليدو من عائلة الدوكي دي البا ومن ضون فرنسيسكو دي فالنسيا وكلاهما من فرسان سان خوان الى نواب الملك في بلنسية وميورقة ويابسة يرجوانهم فيها ان يبذلوا الجهد في ارسال مركب مسلح باقرب وقت ممكن الى الجزائر ودفع الرسائل الى اخيه واوصاه بما يجب عليه ان يعمله لينجح في مهمته بعد ان يبلغ مدينة بلنسية او جزيرة ميورقة.



كان الرهبان الافتدائيون قد فرغوا من جميع المعاملات وتاهبوا لمغادرة المدينة بالاسرى المفتدين، لكنهم فوجئوا بوصول امير الجزائر الجديد حسان باشا الذي كان في اول امره نصرانيا من البندقية ثم جحد النصرانية واعتنق الاسلام وبلغ بدهائه هذا المنصب الرفيع وفاق من سبقه من الامراء والقراصنة بالظلم والاستبداد والقساوة وقبل ان يقلع المركب حاملا الرهبان والاسارى المفتدين اصدر حسان باشا امرا بان يسلم اليه الكاهن فيانويفا

والفارس ثامورا بدعوى انهما اهاننا بعض المسلمين وان
يحرقا حييين، فخاف الرهبان الاقتدائيون على الاسيرين
واخرجوهما سرا من الجزائر، فثارت ثائرة الامير وتهدد
بان يصب نغمته على الاسارى اجمعين واذاك تقدم
الراهب خورخي دي اوليفار وعرض نفسه رهينة بدل
الاسيرين المهددين بالموت، فقبل حسان باشا لما رآه في
اسر الراهب من باب للكسب لان رهينة الاقتدائيين
لن تحجم عن بذل الفدية مهما عظمت مقابل اقتكائك
رئيسها خورخي دي اوليفار. فزج في السجن وكبل
بالقيود، بينما كان المركب يقلع من مرفأ الجزائر حاملا
عددا كبيرا من الاسارى المفتدين ومن جملتهم رودريغو
دي سرفانطيس ومعه رسائل مينغيل، وكان من جملتهم
ايضا اسير آخر يدعى فيانا، وكان هذا بحريا ماهرا
ومغامرا مقداما عالما بشواطىء افريقيا، وقد تعهد بان
يتولى قيادة المركب الذي سيوجه من اسبانيا الى الجزائر
لتنفيد خطة سرفانطيس.



وبعد ذلك بنحو اربعة اشهر اقلع من ميورقة شطر
الجزائر مركب مسلح يقوده البحري فيانا

أمل يخيب

حوالي العشرين من شهر سبتمبر من تلك السنة تلقى سرفانطيس علما بان المركب الذي يقوده البحري فيانا اقلع من ميورقة، فاخذ يسرع في اتخاذ التدابير النهائية واعداد العدة للفرار حين يبصر العلامة المتفق عليها المؤذنة بوصول المركب، وكان الاسارى العازمون على الفرار مجتمعين في الكهف وقد مضى على بعضهم مدة طويلة فيه فهزلت ابدانهم وانجطت قواهم لانهم لم يكونوا يجراًون على الخروج لاستنشاق الهواء الا في الليل واحدا واحدا لئلا يثيروا الريبة او يقع عليهم بصر المسلمين وكان سرفانطيس خلال هذه المدة كلها يتعهدهم بما يحتاجون اليه من مأكل وملبس يعاونه في مهمته هذه البستاني خوان وجاحد اسباني اصله من مليلية يلقب بدورادور.

وفي ليلة 28 سبتمبر بلغ المركب المنتظر شاطئ الجزائر وابصر سرفانطيس علامة التعارف فحقق لها قلبه طربا، واقبل على رفقا اسره ينبئهم بالخبر ويدعوهم الى الخروج من مخبتهم والاسراع الى المركب.

ونزل بعض البحارة الى الشاطئ ينتظرون الاسارى لينقلوهم حال وصولهم الى السفينة، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان، وذلك ان بعض الجزائريين مروا حينئذ صدقة بتلك الناحية فشاهدوا البحارة والمركب، فدخلهم الريب واطلقوا ارجلهم للريح يفشون الخبر في المدينة وقد كان بوسع الاسارى ان يركبوا السفينة ويفروا قبل ان يصل النبا الى المدينة وتأتي النجدة، لكن الدهول الذي احدثته في نفوس البحارة تلك المفاجأة جعلتهم يركبون السفينة ويتعدون بها على عجل ووقع الاسارى في حيص بيص، ورأى سرفانطيس ما شيده من آمال عظام ينهار من جديد ولا يبقى بين يديه سوى مرارة الخيبة والم الفشل الذريع.

وما ان ابصر الاسارى السفينة تعود على اعقابها حتى هرعوا الى مخبئهم واجمى من وقد احسوا بسيف الموت مصلتا فوق رؤوسهم، لكن نفس سرفانطيس الكبيرة التي لم يكن الخوف ليعرف اليها منفذا القت عليهم درسا في رباطة الجأش وبذل الذات وانعشت نفوسهم الياسة بنور تضحياتها، فطمأنهم بقوله انه يأخذ على عاتقه تبعة كل هذا المشروع فلا داعي لهم الى الخوف واليأس

غير ان نفس ميغيل لم تكن في اعماقها مطمئنة الى نتيجة هذه المغامرة، وبدأت تساورها الشكوك، ولعله بدأ يقض عليه مضجعه شبح الخيانة مجسما في شخص ذلك الجاحد المسمى «دورادور» ولم تكن ظنونه مخطئة فان «دورادور» بعد ان ساعده طيلة تلك المدة لتنفيذ خطته اذا به الان يتقلب عليه وعلى رفاقه، ولعله وقد اكتشف امر المركب ظن ان المشروع سينكشف بكامله فتلحقه العقوبة كالآخرين فظهر له ان يسبق الحوادث قبل ان تسبقه ويكون هو الخبر قبل ان يكون الخبر عنه، وفي 30 سبتمبر اي بعد وصول المركب بيومين التمس مقابلة الامير ليفشي اليه بسر خطير، فاستقبله حسان باشا وانصت اليه، فاعلمه «دورادور» بالقضية من الفها الى يائها وان الاسارى مختبئون في الكهف وان سرفانطيس هو قلب تلك الخطة النابض ودماعها المفكر. وكان حسان باشا كما قلنا سابقا من اقصى القراصنة واغلظهم وقد سجل في سنوات امارته ابشع صفحة في تاريخ الجزائر بفظاظته وقساوته في معاملة الاسارى النصارى، ولعل السر في هذه القساوة رغبته في ان يبرهن للترك وللمسلمين كافة بانه قطع كل صلة بالنصرانية

واتباعها لانه كما ذكرنا ايضا كان نصراني الاصل من
 البندقية، فوقع اسيرا بين يدي العلاج علي ثم جحد
 النصرانية واكتسب ثقة مولاه وبمساعده بلغ هذا المنصب
 الرفيع، ويقول سرفانطيس في مذكراته انه لم يكن يمضي
 يوم دون ان يبرد حسان باشا غليله في تعذيب او اعدام
 احد الاسارى لاتفه الاسباب او بدون سبب البتة، فمن
 السهل ان نتصور ما احده هذا النبأ في نفسه من غضب
 ممزوج بالفرح لان العادة كانت بينهم في ان
 الاسارى الذين يقبض عليهم وهم يحاولون الفرار يقعون
 تحت سلطة الامير مباشرة فيصير من حقه ان يعاقبهم
 على هواه دون ما التفات الى مواليهم.

ولذلك ما كاد يفشى اليه بهذا الخبر حتى امر
 رئيس حرسه بان يسير على رأس عشرة خيالة واربعة
 وعشرين رجالة مصحوبين بالدورادور كدليل الى بستان
 الحاكم حيث الاسارى مختبئون، ويأتي بهم مكبلين
 بالحديد، فتوجه الجنود ورئيسهم الى المكان المعهود،
 وعند وصولهم القوا القبض على البستاني خوان ثم تقدموا
 الى الكهف، وما ان بلغوه حتى تصدى لهم سرفانطيس
 قائلا ان التبعة في كل ما جرى تقع عليه وحده، اما

هؤلاء النصارى فليس لاحد منهم ذنب يعاقب عليه، فدهش رئيس الجنود لرباطة جأشه وارسل واحدا منهم يعلم الامير بما وقع، فعاد الجندي يحمل امرا بزج الجميع في السجن وسوق سرفانطيس امام الامير، فقيدوا يديه ورجليه واقتادوه بين خيالين في شوارع المدينة الى قصر الامير.

على هذه الحالة اخترق شوارع المدينة، والله يعلم كم كان الالم يحز في نفسه وهو يسير مكبلا بالحديد عرضة لهز الصبيان وسخريتهم ليمثل بين يدي أمير عتي لايعرف للمشفقة وجها ويسمع من شفّتيه العقوبة المفروضة عليه لمخالفته الجسيمة، ولم يكن بوسع ميغيل وهو العارف باستبداد الامير ان يتصور عقوبة غير الموت الشنيع على احدى الصور المألوفة، لكن رباطة جأشه لم تغادره وقناته لم تلتن ولا خفف الخطر من حدة عزمه فيما ان مثل امام الامير حتى ردد على مسمعيه ما صرح به امام الجنود وهو انه هو المسؤول وحده عن تنظيم المحاولة للفرار وان الاخرين لايد لهم البتة في هذا كله، وخلافا لما كان ينتظره الجميع وفي مقدمةهم سرفانطيس ذاته اقتصر الامير على اصدار امره بان يحبس في سجن الامير نفسه.

وبينما كان ميغيل ورفقاؤه يودعون السجن كان
الجزء الثاني من المأساة يتمثل على الشاطئ وهو ان
المركب الذي جاء بالامس لنقل سرفانطيس ورفاقه ثم
ابتعد حين اكتشف امره لم يقلع عن تنفيذ المشروع:
وابصر الترك عن بعد انه لم يغادر تلك الناحية نهائيا
ففطنوا لقصده ودبروا حيلة لايقاع بحارته في الشرك،
فخبأوا بعض الجنود على الشاطئ، ولما نزل البحارة الى
البر خرج الجنود من مخائبهم وانقضوا عليهم وامسكوهم
ومن جملتهم فيانا نفسه، وهكذا انتهت هذه الصفحة.



دخل ميغيل المظمورة منتظرا ان ينقل منها الى ساحة
الاعداء بين ساعة واخرى، وانقضت بضعة ايام وهو يرى
الموت بين جفونه، وذات يوم دخل المظمورة بعض الجنود
وفكوا قيوده وامروه ان يتبعهم، فتقدم ميغيل بخطى
ثابتة حاسبا انه الى الموت يسير.

لكن ساعته كانت لم تدق بعد فقد اختارت يد
القدر ذلك اليوم ضحية أخرى، وما تلك الضحية سوى
البستاني خوان الذي كان في طليعة المشتركين بمحاولة
الفرار، ولعله بعد سرفانطيس المسؤول الاكبر عن كل

ما جرى بتسهيله للاسارى المغارة التي كانت في البستان
المعهودة حراسته اليه، ولذا طلب مولاه من الامير ان
يسمح له بتنفيذ حكم الاعدام بيده وها هو ذا
سرفانطيس وبقية المساجين يقتادون ليروا كيف يعدم
البستاني ولتكون هذه المشاهدة لنفوسهم عبرة ولجماهم
كابحا ولحماسهم رادعا.

وكان المشهد رهيبا مريعا احس خلاله سرفانطيس
بنفسه تطير من جسمه وباحشائه تنقطع اسى وحزنا
واخس بالساعات كأنها قرون، وشاهد كيف نصب الحبل
فوق غصن من احدى الشجرات العالية في بستان الحاكم
وكيف ربطت احدى رجلي ذلك المسكين وكيف كان
يرفع حتى اعلى الغصن ثم يفلت الحبل حتى يبلغ الارض
مرارا ومرارا، ثم شاهد ورفاقه كيف بقي على هذه الحالة
معلقا في الجو يتلوى ويتاوه الى ان فارق الحياة.

وعاد سرفانطيس الى مطمورته وكأن لسانه قد
انعقد ونفسه قد افلتت، وغمره حزن عميق زاده شدة
تفكيره بان هذا المسكين قد لاقى حتفه بسببه، وبعد
ان مرت ايام عديدة اخذ ميغيل يستفيق من شبه سبات
عميق واخذت نفسه تنفتح للحياة من جديد وتحس

بالكيان الذي يحيط بها، واول ما بادر الى خاطره التفكير بالفرار، لان نيل الحرية كان كما قلنا شغله الشاغل وفكرته الثابتة، والاهوال التي مر بها في محاولتيه السابقتين لم يكن من شأنها الا ان تزيده عزيمة واقداما.

وكانت مطمورة الامير اقبج مطامير المدينة كما كان هو نفسه اقصى الناس قلبا، ويقول سرفانطيس بهذا الصدد: «انه وان كان الجوع والعري يتعباننا احيانا بل غالبا لم يكن لیتعبنا شئٌ مثل ان نسمع ونرى كل يوم الفظائع المنعدمة النظير التي كان الملك حسان يرتكبها في معاملته النصرى، ففي كل يوم يشنق واحدا او يخوزق آخر او يقطع اذن ثالث وكل هذا لاتفه الاسباب ان لم نقل بلا سبب البتة بحيث ان الاتراك نفسهم كانوا يعلمون انه انما كان يفعل ذلك حبا بفعله لاغير ولان القتل من طبيعته». لكن ميغيل الذي شاهد هذه الفظائع بام عينيه لم يكن لتلين له قناة او ليتراجع عن عزمه، ولم يكن حسان باشا ليطمئن اليه ان لم يكن تحت رقابته الشديدة فاشتراه من مولاه دالي مالي بخمسمائة دينار وكان يقول: «متى ضمنت هذا الاسبني لمعطوب ضمنت النصرى كلهم بل والمدينة كلها ايضا».

المحاولة الثالثة

قلنا ان ميغيل ما كاد يستفيق من هذا الذهول الذي اعقب المأساة التي ختمت بها محاولته الثانية للفرار حتى شرع يفكر بحيلة جديدة، وكأنه هذه المرة ابصر نور الفرج يشع من جهة وهران التي فكر بالفرار اليها في محاولته الاولى، وهو يعلم الان ان حاكمها ضون مارتين دي قرطبة كان لعشرين سنة خلت اسيرا مثله في الجزائر، وقد سجل خلال اسره صفحة مجيدة من صفحات الشجاعة والاقدام لما يزل ذكرها يتردد على شفاه سكان المدينة من اسارى ومسلمين، فهو لاشك يقدر الامور حق قدرها ولن يتردد عن مساعدة فريق من الاسارى ييغون النجاة والفرار.

ولاحت لميغيل هذه الفكرة كأنها نجمة الخلاص فسار وراءها مؤملا، وكتب رسالة مسهبة الى ضون مارتين دي قرطبة يسأله فيها ان يبعث ببعض رجال من ذوي ثقته تكون لهم خبرة بتلك الاراضي ليساعدوه على الفرار مع بعض الاسارى الاخرين، ودفع الرسالة الى رجل مسلم كان قد اتصل به واكتسب ثقته، فخرج الرسول لكنه ما

كاد يبلغ ابواب المدينة حتى اوقفه الحراس لريبتهم في امره، وفتشوه فعثروا على الرسالة وعليها توقيع ميغيل دي سرفانطيس فرفع الامر الى حسان باشا، فامر به ان يعدم على الخازوق، فلفظ انفاسه الاخيرة دون ان يفشي بسر مرسله ضاربا بتضحيته مثلاً في الوفاء لا يقل نبلاً عن وفاء سرفانطيس.

واقترح كاتبنا الى مجلس الامير، وهي المرة الثانية التي يقف فيها امامه هذا الموقف، فصدر الامر بضربه على بطنه الفتي عصا ومعنى هذا الاعدام لان اقل من هذا بكثير يكفي للقضاء على حياة اقوى الناس جسماً واصليهم بنية.

لكن الايام انقضت والحكم لم ينفذ، فاخذ الامل يعود رويدا رويدا الى نفس ميغيل، غير انه هذه المرة توقف قليلاً يتأمل ويعتبر في محاولاته الفاشلة، ولايسعنا هنا الا ان ننقل الصفحة الفتاة التي دبجتها يراع المؤرخ سباستيان خوان اربو في وصفه وضعية سرفانطيس النفسية في هذه الاونة من حياته. قال: «لقد انقضى الوقت وابتعد الامل، والان ما عساه ان يفعل؟ فاذا التفت وراءه وجد الف موضوع للفخر بما قام به ولكنه يجد اكثر منها

للخوف على مصيره فيقشعر بدنه كأنه يرى فجأة أعماق هذه اللعبة الخطرة التي تحركه الأقدار ضمنها، إذ أين هي عظمة أعماله؟ وما هو الذي حصله مقابل ما بذله من جهد وتعرض له من خطر؟ فذات يوم التقى ببستاني مسكين أسير من نافارة إن لم يكن فرحا كان على الأقل قانعاً بالاعتناء ببستانه في انتظار ساعة الاقتداء دون أن يعكر صفو هدوئه أي فكر آخر، فذهب سرفانطيس لزيارته مرة وتحدث وأياه ولان البستاني أمام كلماته وقد سحر لبه الحلم بالعودة إلى الوطن، وبعد ذلك بمدة كان يقضي معلقاً بأحدى رجليه في أعالي شجرة نخل على مرأى من رفاقه.

«وكان هنالك رجل مسلم ساذج من مسلمي الجزائر ولعله كان يعيش سعيداً بصحبة زوجته وابنائها فتصدى له سرفانطيس ذات مرة وسلمه رسالة إلى وهران وبعد ذلك بأيام إذا به ينفذ فيه الحكم بالاعدام، الا يقف سرفانطيس أمام هذه الصدفة متشائماً؟

«وبأي نور تنصب هذه الأعمال على خيبة ضون كيخوطي المتكررة؟ إنها تنصب بنور براق إلى حد أنها تكاد تثير عواطفنا كما لو أننا كنا نرى فيها صميم سره الرئيسي

على وشك ان ينكشف امام اعيننا، فهناك ايضا كما هو الامر هنا، نية مقدسة وضعت تحت خدمة فكرة صالحة تصطدم عند كل خطوة بعقبة كأداءً وهناك مثل هنا ينقلب الخير شرا والسعي في طريق الفضيلة ينقلب ضررا على الساعي وحتى على من سعي من اجلهم

«ولكن هنا ايضا مثل هنالك فوق كل شيء نبل الدافع العاطفي الذي لا يحجم عن اي وسيلة او تضحية دون ما نظر الى النتائج، وهنا مثل هنالك فكرة الخير تحرك سيف الفارس، وهنا مثل هنالك نبل مقاصد وطيبة نفس وكرم قلب لا ينضب بل يعود الى المعركة بعد كل خيبة بقوى جديدة. فحسبه هذا، حسبه ان ينقاد الى خوالج قلبه، فان لم تأت النتائج حسب المقاصد «فان الله في السماء وهو يرى ما في القلوب» فالتأمل يدوم اذا قليلا..

انقشعت هذه السحابة التي كانت تخيم على نفسه وعاد الامل اليها، وعادت تبتسم له الحياة، ومن بعيد اخذت تلوح له من جديد فكرة الفرار.



بدأ ميغيل يفكر في الحرية وسبحت افكاره في الفضاء لتبحث عن محط آمالها الاوحد ضون خوان دي اوستريا

وكم كان يتلهب للاتصال بذلك القائد خصوصا حين
يسمع صبيان الجزائر ينشدون متهمين على الاسارى:
«ضون خوان لن ياتي
والنصراني هنا يموت»

وفي هذه السنة (1578) حصلت وقعة وادي المخازن
التي تغلب فيها المغاربة على البرتقاليين وقتل فيها ملك
البرتقال ضون سباستيان ونخبة فرسان بلاده، ولما بلغ
الجزائر نبأ نزول ضون سباستيان في الشاطيء المغربي
هلعت قلوب المسلمين وسكتت الالسن عن شتم الاسارى
وعم القلق والخوف جميع السكان، وبقدر ما كان
القلق شديدا اذاك كان الفرح عظيما حين بلغت بعد
ايام الانباء بانتصار المغاربة.

لكن ذلك المشهد ترك في قلب سرفانطيس نوعا
من الامل وفتح امام خياله بابا فسيحا للتصور، ورأى
في ذلك القلق الذي استحوذ على الجزائريين لمجرد علمهم
بنزول جيش البرتقال في شواطئ المغرب مفتاح باب
الحرية، فكتب الى صديقه ماتيو باسكيس كاتم اسرار
الملك فيليب الثاني رسالة شعرية مطولة يشرح له فيها
الوضعية ويفهمه بانه اذا جرد الملك اسطولا تحت قيادة

ضون خوان دي اوستريا ودفع به الى مهاجمة الجزائر
 فان فتح هذه المدينة يتم بسهولة كبيرة: لانه متى بلغها
 الاسطول عم الخوف جميع السكان واذاك يثور الخمسة
 وعشرون الف اسير وينضمون الى الاسطول المهاجم فلا
 تلبث المدينة ان تسقط بين ايديهم.

لكن هذا الحلم لم يتجاوز حد الاحلام ولم يبال
 احد برسالة سرفانطيس ولم يعرها ادنى اهتمام.

المحاولة الرابعة

1579

نحن الان في سنة 1579 وقد مر على ميغيل اربع سنوات في الاسر كأنها اربعة قرون! وكم اصبح يرى بعيدا كل ما خلفه وراءه من اهل وعلان وامال واماني! ان فكرة الفرار قد عادت الى رأسه لكن أنى له ان يحققها والطرق مسدودة والابواب موصدة، وقد زاد في الطين بلة بلوغه نبأ وفاة ضون خوان دي اوستريا في فلانديس، فتلاشى معه كل امل في قلب سرفانطيس بزحف اسطول اسباني على الجزائر واحتلالها وافتكاك الاسارى الذين فيها.

ولكنه مع هذا كله لم يفتح للياس الى قلبه طريقا وظل يتربص الفرص باذن صاغية وعين يقظة.

ففي سبتمبر من تلك السنة تعرف بجاحد اسباني اسمه خيرون اصله من غرناطة كان ينتمي الى عائلة رفيعة من تلك المدينة، وقد تسمى بعد اسلامه باسم عبد الرحمن، ويظهر ان «خيرون» هذا قد ساورت نفسه

الشكوك وداخل قلبه الندم على استبداله دينه بدين آخر ونزعت نفسه الى العودة الى احضان النصرانية، وكان تعرف سرفانطيس به وهو في هذه الحالة من الشك، فحفز به كاتبنا الى العمل بما يوحيه اليه قلبه من الندم والعودة الى دين آبائه، واقترح عليه ان يسهل له السبيل للعودة الى اسبانيا، فقبل خيرون فرحا شاكرا، وهنا اخذ ميغيل يهبي مشروعه الجديد، وكان قد اتصل سابقا بناجر اسباني من بلنسية اسمه «ايكساركي» من اهم التجار الذين كانوا يتاجرون بين اسبانيا والجزائر، وكانت له متاجر عظيمة في الجزائر وفي بلنسية وتربطه صداقة بكثير من الجزائريين، ويتمتع باحترام كبير بين النصارى والمسلمين ولا يتأخر متى دعى الامر عن اقتداء بعض الاسارى، فاليه افضى ميغيل بمشروعه الجديد وقوامه ان يقدم «ايكساركي» المال الكافي على سبيل القرض لشراء مركب مسلح باسم خيرون الذي لم يكن ليثير الريبة لاعتباره مسلما، ويعلن ان المركب معد للقرصنة تحت قيادة صاحبه عبد الرحمن اي خيرون، وفي حقيقة الامر يكون معدا لفرار خيرون وسرفانطيس وعدد كبير من الاسارى.

وبدأ تنفيذ المشروع فاشترى المركب واعلم ميغيل
اصحابه المقربون واعدت العدة وتاهب الاسارى العازمون
على الفرار وعددهم يبلغ الستين، ولما لم يبق سوى
يومين لركوبهم البحر اذا بمفاجأة جديدة تهدم كل ما
بنوه من امل!

وخبر ذلك انه كان في الجزائر في تلك الآونة
رجل اسباني اسمه خوان بلانكو دي باث اصله
من مونتمولين في مقاطعة اكستريمادورا يدعي
انه راهب وانه مفوض محكمة التفتيش، وكان ذا طبع
حاد وخلق سيء يخشاه جميع الاسارى، ولا يعرف بالتحقيق
سبب قدومه الى الجزائر وكل ما يعرف انه كان ينافق
ويخاقل، وذات يوم التقى به القس خوان خيل من
رهبنة الاباء المششين وسأله ان يثبت باوراق رسمية صحة
دعواه فلم يمكنه ذلك وظهر نفاقه وكذبه وتجاوز الشك
الى صحة ترهبه، ولعله ان كان في الحقيقة قسا كان
من هؤلاء الافراد القلائل الذين يتخذون من الدين
ستارا يخفون وراءه مطاعمهم واهواءهم.
فهذا الرجل الحسود كانت تؤلمه شهرة سرفانطيس

بين الاسارى، وبلغ به الحد ان امتنع عن مبادلته التحية ولم يكن يفتأ يحوك له الشباك ليوقعه فيها.

وكان عدد كبير من الاسارى على علم بمشروع سرفانطيس لكن بلانكو دي باث لم يكن على بينة من هذا الامر، وقد عني كاتبنا عناية خاصة بالايتسرب الى علمه، غير ان الاقدار شئت ان يبلغه الخبر قبل موعد الاقلاع من المرسى بيومين، فثارت ثائرتة على اقصائه عن تدبير مشروع كهذا واعتبره طعنة نجلاء في صميم عجرفته، فآلى على نفسه ان يثأر من ميغيل ومناصريه، واعمل التفكير في طريقة يبلغ بها الخبر الى مسامع الامير دون ان يمثل بين يديه بنفسه، فافضى بالامر الى جاحد فلورنتينى الاصل اسمه كايبان وهذا بدوره نقل الخبر الى حسان باشا، فاستفسره هذا عن مصدر النبأ فلم يسعه الا ان يدلي باسم بلانكو دي باث فاستدعاه الامير وسأله عن القصة فاطلعه على كل ما في علمه، وامره حسان باشا ان يترك الامر سرا وغرضه من ذلك ان يتيح للاسارى الفرصة ليجمعوا في المركب كي يلقي القبض عليهم اجمعين.

بالرغم عن احتياطات الامير ما لبث الخبر ان انتشر

في المدينة فجزع الاسارى وهلعت قلوبهم خوفا وشرع كل من له اشتراك في المحاولة يبحث عن مختبأ يتقي فيه غضب حسان باشا. وقد تسرب الذعر الى قلب سرفانطيس نفسه لان هذه هي المرة الثالثة التي يطلع فيها الامير على محاولته للفرار، فلا عجب ان يحاول النجاة، فهرب من دار مولاه واختبأ في دار صديقه الفارس ديبغو كاسطيانو الذي كان اسيرا ايضا، ولما رأى حسان باشا ان خطته للقبض على مدبري المشروع قد افسدت عليه ابرق وارعد، وارسل مناديا ينادي بان من يخبي سرفانطيس يعاقب بالاعدام، فازداد الخوف بين الاسارى واضطرب التاجر البلنسي «ايكساركي» وخشي سوء العاقبة على ماله وحياته ان اكتشف الامر.

لكن سرفانطيس لم يلبث ان بدد مخاوفه اذ ما كاد يطلع على الامر الذي اصدره حسان بان الموت جزاء من يخبئه حتى خرج من دار صديقه وهرع الى دار التاجر «ايكساركي» فطيب خاطره واعلمه بانه قد عزم على الاستسلام الى الامير، فعرض عليه «ايكساركي» ان يخفيه ثم يبعث به على متن احد مراكبه الى اسبانيا ويدفع من جيبه فديته، لكن نفس سرفانطيس الالية لم تكن

لترضى بالنجاة تاركة عرضة للخطر الرفاق الذين شاركوه في تدبير الامر، فرد على ايكساركي بقوله: «بوسعك ان تعود مطمئن البال وان تكون على ثقة بانه لا عذاب مهما عظم حتى ولا الموت نفسه بكاف بان ادلي باسم واحد سواي وقل للآخرين ان يطرحوا الخوف جانبا لانني اخذت على عاتقي عبء هذه القضية كله وان كنت متأكدا بان الموت ينتظرني ورائها» وقد اشار الى عزمه هذا بعد سنوات بكلمات وديعة يرى خلال بساطتها نبيل تلك النفسية قال: «عزمت على الاستسلام لئلا يلحق الاذى بنصراني خبأني عنده ولئلا يبحث الملك ان لم يعثر علي على اسير آخر يعذبه ويعرف منه حقيقة الامر».

وهكذا اعطى ميغيل درسا جديداً في الوفاء والاخلاص رافضاً النجاة ومفضلاً عليها التضحية بذاته ليسلم الآخرين.

وذهب يبحث عن صديق له جاحد يسمى موراتو الرئيس ويلقب بمالطرابيو نان ذا مكانة لدى الامير، فاطلعه على ذنبه وعلى عزمه ان يقابل حسان باشا ليعترف له بالحقيقة، فطلب له مالطرابيو المقابلة، ولما مثل بين يديه اعلمه بالامر والقى التبعة كلها على نفسه

كما فعل امامه في المرة السابقة، فهدد بالتعذيب والموت ليقر باسماء شركائه في المؤامرة، لكن لا الوعد ولا الوعيد كانا ليحملاه على البوح بسر الدفين واخيرا ربط حول عنقه حبل المشنقة ورأى الموت منه على قاب قوسين، فلم يلن عزمه ولم تتحرك شفاته.

فما كان من حسان باشا الا ان ازداد عجباً وللأسير تقديراً واعتباراً، ومن اعجب العجائب انه لم يفرض على سرفانطيس اية عقوبة البتة. وهذا ما سمح له ان يقول بعد الحادثة بسنوات في معرض كلامه عن هذا العهد من حياته وعن فظائع حسان باشا: «ولم ينجح معه سوى جندي اسباني اسمه فلان دي سايدرا فانه بالرغم مما قام به هذا من امور ستبقى في حافظة هؤلاء القوم سنين طويلة وكلها من اجل الحصول على الحرية لم يعصه قط ولم يامر بعصوه ولم يقل له كلمة سوء بينما كنا جميعاً نخشى ان يخوزق على اقل واحد من الامور الكثيرة التي اتى بها، كما انه خشى ذلك هو نفسه اكثر ما من مرة».

لكنه وان لم يفرض عليه عقوبة تعذيبية فقد امر بسجنه والتضييق عليه دفعا لكل محاولة جديدة.

لم يبق امام سرفانطيس باب للفرج ولا طريق للخلاص. ومما نزع من قلبه كل امل علمه بانتهاء مدة اماره حسان باشا واستعداده للانتقال الى القسطنطينية بامواله ونسائه وخدمه وعبيده، وكان سرفانطيس يؤمن بان الخلاص من القسطنطينية فيما اذا نقل اليها يكاد يكون مستحيلا، فلا عجب ان يشهد حزنه وتجزع نفسه وتراخي همته، ولكن ما العمل؟ ان الفرار مستحيل لان المراقبة حوله شديدة، وضون خوان دي اوستريا قد توفي بعيدا في فلانديس ورسالته الى ماتيو باسكيس بقيت بلا جواب، وزاد في الطين بلة انتشار وباء الطاعون في الجزائر فكان الاسارى يموتون بالآت كل يوم، فرأى ميغيل ان الابواب قد اقفلت في وجهه كلها ولم يبق امامه سوى الاستسلام الى العناية الربانية لتفعل به ما تشاء.

ولكن هذه الحرية التي اصبح يبصرها في عالم المستحيالات كانت اقرب اليه منها في اي وقت مضى وستأتيه من حيث لم تكن في الحسبان!

في طريق الحرية

في التاسع والعشرين من شهر مايو من سنة 1580 بلغ الجزائر راهبان من رهبانية الاباء المثلثين احدهما اسمه الاب خوان خيل والثاني الاخ انطونيو دي لايبلا وانتشر الخبر بين الاسارى كالبرق، فذب الامل الى القلوب وعم الفرح جميع النفوس، وسرعان ما اتصل سرفانطيس بالاب خوان خيل الذي انبأه عن حال اهله واصحابه وعن حالة البلاد عامة، واعلمه بان عائلته اعطته ثلاثمائة دينار (اسكودو) لافتدائه، فرأى ميغيل اماله تتلاشى من جديد لان حسان باشا يبغى به الف دينار، اذ قد اشتراه من دالي مامي بخمسمائة بقصد ان يريح به خمسمائة اخرى، ومن الصعب ان يرضى باقل من هذه الكمية، ولا سبيل الى جمع الفرق لانها كمية باهظة وحاول الراهب ان يطيب خاطره، واعد اياه بانه لن يألو جهدا من اجل افتكاكه، لكن نفس كاتبنا لم تكن لتطمئن لما كان يعلمه من جشع حسان باشا وقساوته.

ولم يلبث الاب خيل ان تثبت بنفسه من ان ميغيل

كان محقا في تخوفه لان الامير لم يلن ولم يرض باقل
من الالف دينار فلسا واحدا، فأنصرف الى تدبير امور
اسارى آخرين اسهل اقتداء من ميغيل، وفي شهر اغسطس
(آب) اقلع مركب يحمل البعثة الاولى المؤلفة من مائة
وثمانين اسارى وعلى رأسها الاخ انطونيو دي لابيلا،
وبقي الاب خوان خيل يكافح في سبيل افتكاك اسارى
آخرين.

واقبل شهر سبتمبر (ايلول) واقترب موعد خروج
حسان باشا من الجزائر، فاخذ يعد العدة للسفر، وامر
بنقل اموله وحريمه وخدمه وعبيده واساراه الى المراكب
المهيئة لنقله، ومن جملة الاسارى الذين نقلوا ميغيل
سرفانطيس، وها هو ذا اليوم التاسع عشر من ذلك
الشهر، يوم سفر حسان باشا قد حل والاسير لا يرى
سبيلا الى الحرية! وها هو ذا مكبل بالحديد في احد
جوانب المركب ينتظر ان يقلع بين ساعة واخرى فيقاد
الى القسطنطينية ليباع في اسواق رقيقها كما تباع الدواب
فوداعا ايتها الحرية ووداعا يا تراب الوطن! وداعا الى الابد!
واطبق جفنيه كي لا يرى القلوع تنشر والمراسي
تقلع والمجاديف تحرك، لكنه ما لبث ان فتحها حين

سمع صوتا يناديه واذا به يرى امامه طلعة الراهب
 خوان خيل! فخيّل له انه ملاك بزي انسان! لكن الراهب
 طمأنه وأكد له انه قد اصبح حرا فقد قبل حسان باشا
 في آخر ساعة ان يطلق سراحه مقابل خمسمائة دينار
 فاقترض المائتين اللتين كانتا تنقصان لتكمل الخمسمائة
 ودفعها الى الامير، ونزعت القيود من يدي الاسير
 ورجليه ورأى اذاك بملء عينيه انه في الحقيقة حر
 طليق، فتقدم الى الراهب وعانقه والدموع تقطر من
 عينيه وبصحبته غادر المركب.

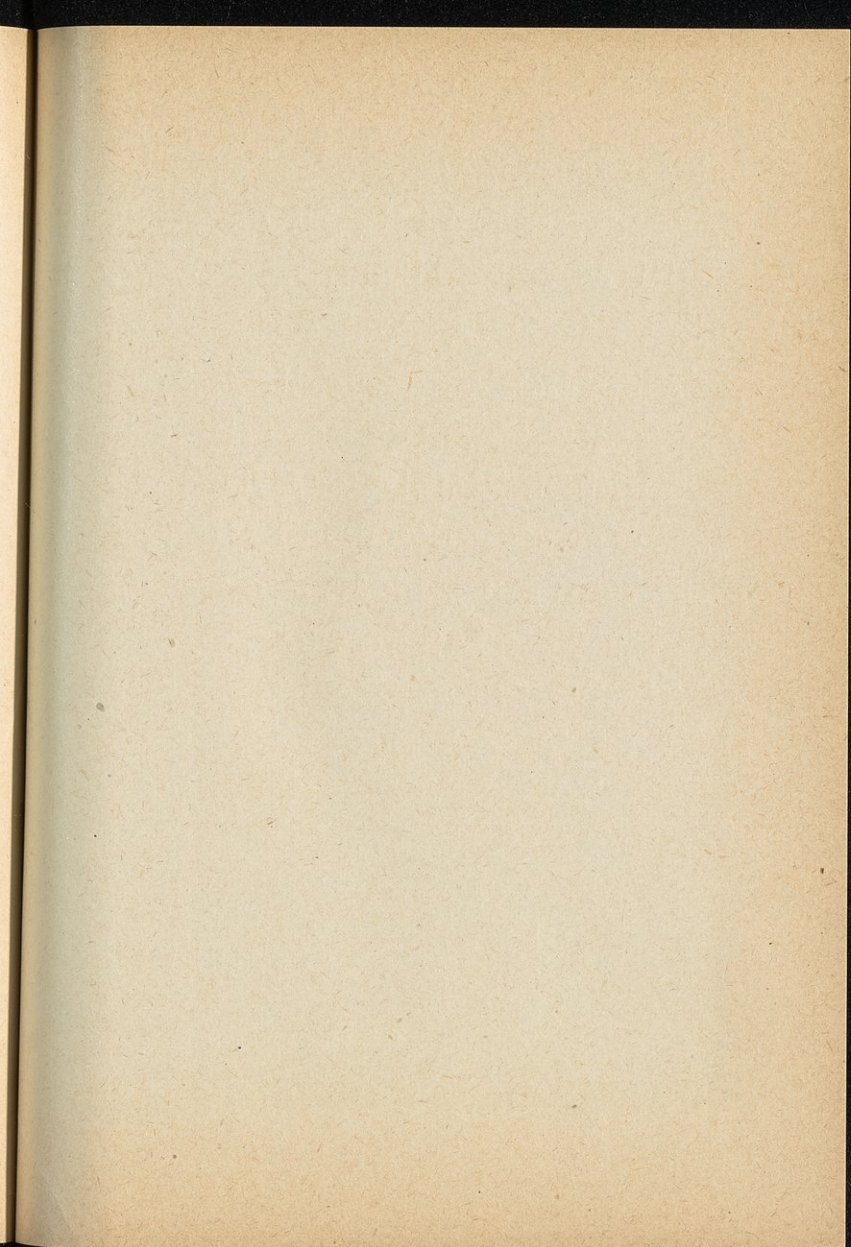
سرفانطيس يجمع البيانات على نبل تصرفه في الاسر

خرج سرفانطيس من المركب الذي كان مزمعا ان ينقله الى القسطنطينية ليبيع في اسواق رقيقها واطل على حياة الحرية كمن يستفيق من سبات عميق، فها هو ذا الان بعد خمس سنوات من العذاب الاليم ينال ما كانت تصبو اليه نفسه وما لم يكن ليانف من بذل حياته في سبيله، ولكنه لم يوجه همه الى الابحار حالا لانه كانت تشغله قضية اخرى تفوق في نظره قدرا الحرية نفسها، وذلك ان المسمى بلانكو دي باث ذاك المارق الذي وشى به الى حسان باشا عند محاولته الاخيرة للفرار كما اشرنا الى الامر سابقا لم يكن عزمه ليهن في ملاحقة كاتبنا والقذح به والخط من كرامته، فما كاد يطلع على خبر افتكاكه حتى اقبل على الاب خوان خيل ورفع اليه ان ميغيل سرفانطيس ارتكب

أثناء المدة التي قضاها في الأسر عددا غير يسير من الجرائم العمومية والخصوصية، وبلغت وشايته كاتبنا فلم يصبر على هذا الضيم، وفضل على الإسراع في الإبحار مع ما كان في نفسه من شوق إلى الوطن أن يبقى في الجزائر الوقت الكافي لبيد مزايم عدوه ويثبت للملا بياض صفحته ونبل سيرته.

وفي فاتح شهر أكتوبر (تشرين الأول) من سنة 1580 التمس تقريراً عن حياته خلال أسره في الجزائر من الأب خوان خيل نفسه الذي كان يمثل في الوقت نفسه ملك إسبانيا والبابا أي السلطتين الزمنية والروحية ففتح التحقيق بالقضية أمام الكاتب العدل الرسولي بيدرو دي ريبيرا وفرغ منه في الثاني والعشرين من الشهر نفسه وأسفر عن منح الأب خيل كاتبنا شهادة مشرفة ختمت بما يلي: «وأثناء أسره قام بأعمال مجيدة تستحق من جلالتيكم أن يكافأ عليها». وفي هذا التحقيق أدلى عدد كبير من نخبة الأسارى الأسبانيين بشهادتهم ونخص بالذكر منهم ذلك الرجل النزيه الفاضل مثال التضحية والصبر الدكتور ضون انطونيو دي سوسا مجمعين كلهم «على أن سرفانطيس كان مثالا في نكران

الذات والسعي وقدوة صالحة بسيرته وانه بذل في سبيل
رفاقه في الاسر مجهودا كبيرا مخاطرا بحياته من اجلهم
وانه بمختصر القول كان لهم ابا واما». ويشير المؤرخ
ضون نيقولاس دياث دي بن خوميه في كتابه «الحقيقة
في امر الكيخوطي» المنشور في مدريد سنة 1878 ان هذه
الوثيقة اكتشفها ثيان برمودث في قصر اللونخة باشبيلية.
وتجدر بنا الاشارة هنا الى ان هذه الشهادة لم تنفع
صاحبها كما كان يؤمل، ولعله كان يعتقد انه حسبه ان
يبلغ مدريد ويعرض يده المعطوبة وشهادته المشرقة ويذكر
باسم ضون خوان لينال جزاءه المنتظر، لكن الواقع جاء
معاكسا لكل ما كان يؤمله.



الفصل الثالث

سرفانطيس يطاء تراب الوطن

في يوم لا يعرف تاريخه بالضبط وانما يرجح انه حوالي الرابع والعشرين من شهر اكتوبر من سنة 1580 وطأت رجلا سرفانطيس تراب اسبانيا، فالمركب الذي كان يحمله ارسى في بلدة دانية من اعمال بلنسية، وقد خف جم غفير لاستقبال العائدين . ويقول سرفانطيس في وصف ساعة الوصول هذه «ان الاسارى خرجوا الى البر واحدا واحدا كأنهم في طواف وقبلوا ترابه مرة تلو مرة ودموع الفرح تغمر عيونهم».

واقاموا اياما قليلة في دانية ريثما اعد استقبالهم رسميا في بلنسية، ثم قصدوها مشاة على الاقدام كأنهم يسيرون الى الاشتراك في احد الاعياد الشعبية مارين بالقرى والمدن الساحلية الى ان انتهى بهم السير الى عاصمة الاقليم الشرقي نغني بها بلنسية، وهناك استقبلوا استقبالا حافلا، وتوجهوا توا الى الكتدرائية ليؤدوا واجبات الشكر على وصولهم سالمين، وكانوا مكشوفى الرؤوس مرتدين جلبابا ازرق هو لباس الاسارى، ووراءهم بعض الصبيان يقرأون بصوت عال «لائحة الاسارى

المفتدين» وهي لائحة كان الاباء الاقتدائيون يطبعونها
ثم تباع ويوزع ريعها بين الاسارى المفتدين.



على هذه الصورة دخل اسبانيا من كان يؤمل
حين غادرها لعشر سنوات خلت ان يعود اليها عودة
الابطال المظفرين!



اقام ميغيل في بلنسية نحوا من شهرين درس خلالها
حالة اسبانيا السياسية، ومنها كتب الى عائلته يعلمها
بوصوله سالما ويطلب منها ان تفتح تحقيقا جديدا في
قضيته ليضيفه الى الشهادات التي جاء بها من الجزائر
وان تكون نتيجته مهياة لوقت وصوله، وفي الرسالة
نفسها يلتمس من والديه بعض المساعدة كاشفا لهما
بالتماسه هذا عن حالة الفقر المدقع التي بلغها.

في مدريد

في اواخر سنة 1580 وصل ميغيل الى مدريد فاستقبلته عائلته بفرح عظيم وحنان كبير، وكانت حالتها المادية قد ازادت سوءاً بما اضطرت الى دفعه لافقداً الولدين ميغيل ورودريغو، وكان هذا قد انخرط برتبة ملازم ثان في لفيف ضون لوبي دي فيغيروا الذي انتقل بجنوده الى البرتغال، واما شقيقته اندريا فقد ترملت بوفاة زوجها الفلورنتيني اوفاندو وبقيت تقيم في دارها مع ابنتها كونستانسادى اوفاندو بينما كانت شقيقته الاخرى ماغدينا تزداد يوماً بعد يوم ابتعاداً عن امور الدنيا وانصرافاً الى اعمال البر والتقوى، اما ابواه فقد اصبحا منهوكي القوى ضعيفي العزم.

وجد ميغيل في هذا الجو العائلي ما كانت تصبو اليه نفسه من حنان، لكنه لم تمض عليه سوى مدة قصيرة حتى عاد يفكر بامر مستقبله وما يحتاج اليه من اقدام وحزم. ولا بد له للحصول على ما كان يؤمله وينتظره ان يتصل بالبلاط الملكي ولم يكن البلاط اذاك في مدريد، وخبر ذلك هو انه بعد وفاة ملك البرتغال

ضون سباستيان في وقعة وادي المخازن ولي العرش
 عمه الشيخ البكر دينال هنريكي الذي لم يلبث ان لبي
 داعي ربه بعد قليل، وبقي العرش شاغرا، فتقدم عدة
 مطالبين من جملتهم رئيس دير اوكراتو، وكان من
 بين المطالبين ايضا ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي
 كانت امه ابنة ملك البرتغال.

فاستدعى فيليب سفيره كريستوبال دي مورا وامره
 ان يبلغ اشراف البرتغال دعوى ملكه، ويظهر ان قسما
 منهم لم يكن راضيا على الامر، فلما رأى فيليب الثاني
 ان القضية لن تحل بالسبل الدبلوماسية امر قائده
 الدوكي دي البا ان يزحف على تلك البلاد، وانتقل هو
 ببلاطه الى مدينة بطليوس المجاورة للبرتغال ليتحول منها
 الى لشبونة متى اقتضى الحال.



قضى ميغيل في مدريد مدة غير طويلة درس
 اثناءها الوضعية السياسية وبنوع خاص الوضعية النفسية
 في العاصمة، واني تردد وحل لم يجد الا التشاؤم وادرك
 بثاقب بصيرته الانحلال الاخلاقي المسيطر على اولي الامر
 المحيطين بالملك كالسوار بالمعصم، وعلم مما سمعه وشاهده

ان اصحاب المناصب الرفيعة انما يسعون معظمهم وراء
ارضاء مطامعهم، وان الاستشفاع بما أتاه من مآثر كجندى
اولا واسير ثانيا قد لا يؤدي الى نتيجة تذكر، وان
معركة ليبانطو قد انطوت في عالم النسيان انطواء
قائدها ضون خوان في عالم الموت، فلا فائدة ترجى من
التلويح بيد معطوبة فيها وخمس سنوات في الاسر مليئة
بأعمال التضحية والاقدام، لكن هذا كله لم يثنه عن عزمه
وظل متفائلا بمستقبله، ورأى شمس الان طالعة من سماء
البرتغال فصمم على الانتقال الى ذلك البلد آملا
ان يجد فيه من المجد ما لم يجده في ايطاليا، وكان مما
يقوي فيه هذا الامل علمه بان في البرتغال والبلاط
صاحبه القديم ماتيو باسكيس سكرتير الملك وضون انطونيو
دي طوليدو شقيق الدوكي دي البا ورفيقه وصديقه في
الاسر واحد الذين اختبأوا في الكهف حين كان ميغيل
يعد العدة للفرار وقد نجا سالما بفضل اقدام ميغيل وتضحيته
وكان يؤمل ان يجد من كلا الصديقين عونا كبيرا ولما
يكن قد علم ان السلطان ينسى الاصحاب لكنه بعد ان
يمر بهذه الخيبة ايضا يقول يوما في كتابه الخالد على

لسان بطله: «تامل ياسانتشو! ان الوظائف تبدل العادات ولعلك ان رأيت نفسك حاكما تنسى امك التي ولدتك!»
 وبينما كان يعد الوثائق اللازمة في مدريد اخذ
 يتردد الى النوادي الادبية مجددا صلته القديمة بالادباء
 ومتعرفا الى غيرهم من الادباء الشباب الذين كانوا قد
 بدأ نجمهم يتألق، فتعرف الى التيارات الادبية الجديدة
 وقرأ المؤلفات الحديثة واحس بنشاطه الادبي يتجدد، وكان
 الفن الجديد الفاشي هو فن «قصص الرعاة» ولعل فكرة
 قصته «لاغالطيا» نشأت في دماغه خلال هذه المدة.



وكان ميغيل يتردد على دار اخته اندريا، وقد
 تكون في احدى زياراته اتت امامه على ذكر ضونيا
 كاطالينا سالازار ابنة احد الاشراف من بلدة اسكيفيا
 وكانت تربط عائلة سرفانطيس بعائلتها قرابة قديمة،
 لكن كاتبنا كان يسبح في عالم احلامه، فلم يعر تعريض
 شقيقته ادنى اهتمام. وانما همه الاوحد بلوغ البرتغال.

في البرتغال اسناد مهمة سرية الى سرفانطيس

بعد ذلك بقليل وصل سرفانطيس الى البرتغال مصحوبا بصديقه رودريغو دي تشافيس، وكانت تلك البلاد قد خضعت كلها لسلطان فيليب الثاني، ما عدا جزر «ترسيراس» التي ظلت موالية لرئيس دير اوكراتو الذي كان يتلقى مساعدة فرنسا وانجلترا، واصبح فيليب الثاني يستعد للانتقال الى مدينة طومار الى حيث استدعى مجلس الاعيان البرتغالى للانعقاد لان الوباء كان قد انتشر في لشبونة.

واتصل ميغيل بالبلاط وبدلا مما كان يؤمله من وظيف اداري او رتبة يوزباشى اسندت اليه موقتا مهمة سرية لدى حاكم قلعة مستغانم في الجزائر بالقرب من وهران، فقد كلف بحمل رسالة وتعليمات شفوية الى الحاكم المذكور، والقيام بهذه المهمة معناه مغادرة الوطن من

جديد والتعرض للاخطار التي تعرض لها سابقا من قتل
او اسر بين ايدي القرصان، لكن نفسه الكبيرة لم
تكن لتعير الاخطار عظيم اهتمام.

فحمل الرسالة وتوجه الى قادس لينتقل منها الى
وهران، وفي قادس دفع اليه محاسب البحرية الملكية في
23 مايو (ايار) من سنة 1581 تنفيذا لامر ملكي مؤرخ
في طومار خمسين «اسكودو» على حساب المائة الاسكودو
التي عينت له كنفقة للسفر، اما الخمسون الاخرى
فستدفع له عند عودته، ومن هنالك ابخر شطر وهران.
قضى ميغيل مهمته على احسن وجه وعاد الى اسبانيا

حالا وفي قرطاجنة في السادس والعشرين من شهر يونيو
(حزيران) من السنة نفسها اي بعد خروجه من قادس
اربعة وثلاثين يوما قبض الخمسين اسكودو الاخرى
وواصل السير الى البرتغال على امل ان يلقي الان
المنصب الذي كان يعلل النفس به، وفي 31 من شهر
يوليو (تموز) كان يتفرج على دخول الملك فيليب الثاني
مدينة لشبونة دخول الفاتحين. وكان يوما مشهودا
ترك في نفس كاتبنا اثرا عميقا اذ تجلت له فيه عظمة امته.
ورأى سرفانطيس في جيبه مائة اسكودو والحياة

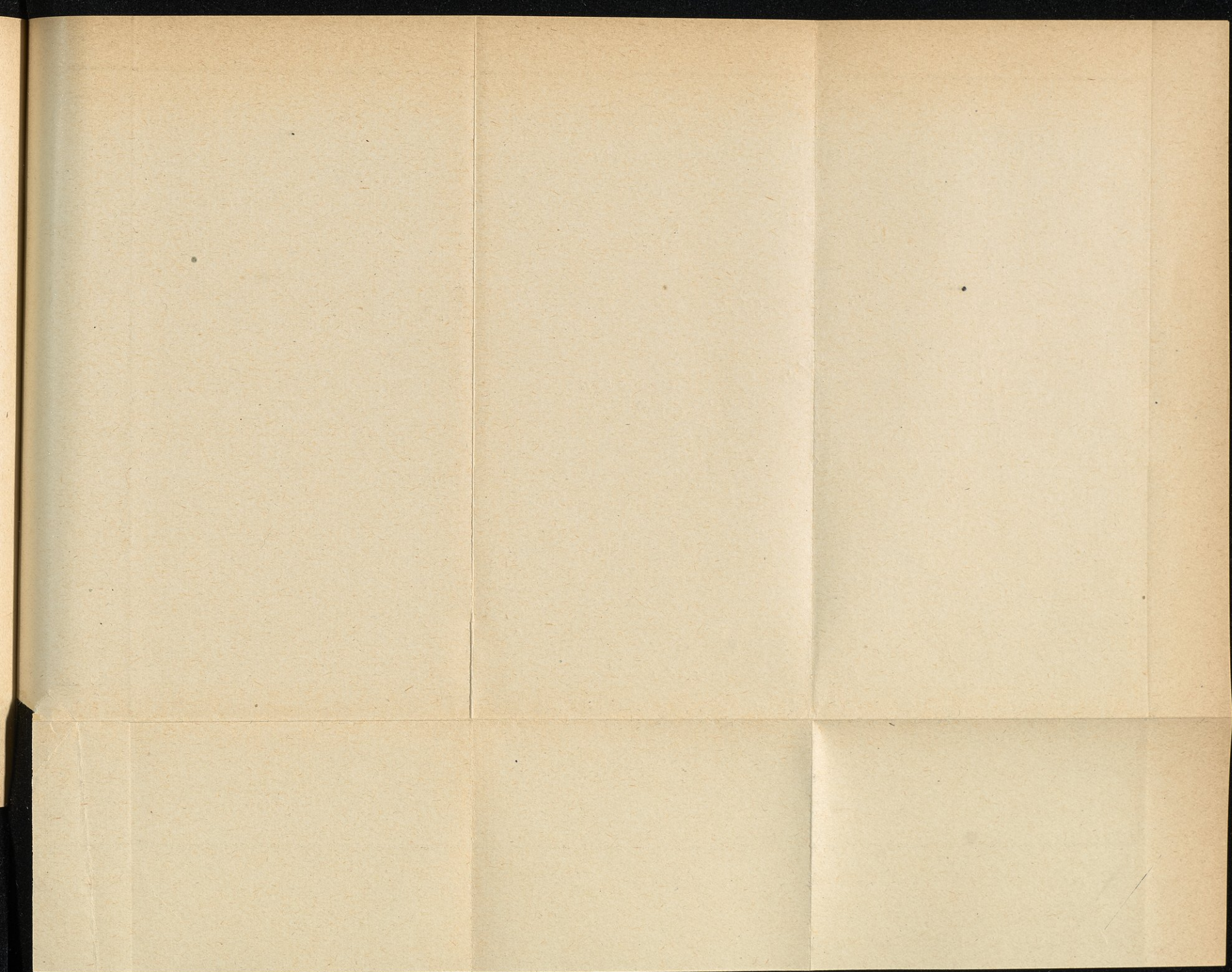
طافحة باللهو والسرور في العاصمة البرتغالية فاس تسليم
اليها مرحا كأنه نسي امر مستقبله ورأى مصيره أمينا
والحق يقال انه كان بحاجة الى الراحة بعد ما قاساه
من الم وعذاب في السنوات الفائتة. وكان من حقه بعد
ما قام به ان ينام مطمئنا واثقا من مصيره وان يرجو ما
اتى به نيل ما يؤمله.

لكن جزر السعادة (آزورس) كانت كما قلنا لا تزال
ثائرة على فيليب الثاني مؤيدة لرئيس دير اوكراتو تساعدها
كل من انكلترا وفرنسا الاولى سرا والثانية علانية
فقر رأي الملك ان يجهز حملة بحرية لاختضاعها فحشد
اسطوله في لشبونه واسند قيادته الى امير البحر الماركيس
دي سانطا كروث، وفي 29 من شهر يونيو (حزيران)
من سنة 1582 اقلع الاسطول قاصدا جزر السعادة وكان
من جملة المحاربين الذين حملهم رودريغو شقيق ميغيل
الذي سجل في تلك الحملة صفحة مجيدة، اما ميغيل نفسه
فمسألة اشتراكه في هذه الحملة موضوع خلاف بين
المؤرخين، فمنهم من يجزم بانه اشترك بها ومنهم من
ينفي ذلك.

وعلى كل حال سواء اشترك بها ام لم يشترك فان



خريطة اسبانيا وفيها تظهر اسماء المدن والقرى المذكورة في هذا الكتاب



المدة التي قضاها في لشبونة كانت من اجمل اوقات حياته، وخلالها كتب قصته الاولى التي عنوانها «لاغالاطيا» او قسما كبيرا منها، ويرى المؤرخون انه استمد كثيرا من مشاهدتها من الجو الذي كان يعيش فيه حينئذ وخاصة من نبل نفسه وطيبة قلبه.

وفي لشبونة ايضا مثل دورا غراميا جديدا لاتعرف تفاصيله بالضبط، والثابت عند المؤرخين هو انه اغرم بامرأة برتغالية يقال انها كانت من عائلة رفيعة واسمها آنا دي فرانكا ورزق منها ابنة سميت باسم ايزابيل، ويزعم ان آنا دي فرانكا ترهبت فيما بعد، اما البنت فسياتي الكلام عنها في غير مكان من هذا الكتاب

العودة الى مدريد

مرت الايام تلو الايام وفرت الدنانير من جيب ميغيل واحدا تلو الاخر والوعود تاتيهِ تترى دون ان يقبل اليوم الذي يراها فيه تنقلب حقيقة ثابتة، وفي نهاية الامر استفاق من ذلك الحلم اللذيذ ولمس الحقيقة المرة باصابعه والحقيقة هي ان وعود من كان يؤمل منهم المساعدة مستندا على صداقتهم القديمة وعلى تضحيته في سبيلهم انما هي مواعيد عرقوب، فلم ير بدا من العودة الى بيت ابيه وعودته في هذه الحالة انما كانت اشبه منها بالخذلان.

وهنا بدأ سرفانطيس يرى الواقع على علته ويفهم الامور على حقائقها والنفوس على اوضاعها، وابصر ان الصداقة كما تصورها ووصفها في قصته «لاغلاطيا» انما هي من جملة احلامه، ورأى الحياة في وسط هذا الجو المسموم بالمطامع والاحقاد والشهوات حربا عوانا اشد وطأة على نفسه الابية من ميادين القتال او سجون الاسر، وفهم الان ان خروجه من الجزائر لم يكن خاتمة جهاده بل فاتحته.

عاد اذاً الى مدريد وشرع يتصل بكبار ادباء عهده وتوثقت عرى الصداقة خاصة بينه وبين ضون خوان روفو غوتيريث مؤلف قصة «اوستريادا» ورفيق ميغيل في وقعة ليبانطو، وعرفه هذا بالشاعرين لويس دي غونغورا وبيدرو دي باديا، ولعله تعرف في ذلك العهد ايضا على لوبي دي بيغا الذي بدأ نجمه يتألق حينئذ في سماء الشعر والمسرح ولما يتجاوز الحادية والعشرين من سنه، وفي هذا الوقت اتم ميغيل قصته «لاغالطيا» وحملها برفقة صديقه باديا الى الطباع بلاس دي روبليس، فعرض عليه هذا ان يطبع له القصة مقابل قيمة لاباس بها، وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع له الفا وثلاثمائة وستة وثلاثين بليوناً وهي كمية لا يستهان بها لو قوبلت بما كان يدفع اذاك للمؤلفين مقابل مؤلفاتهم، وفي 22 فبراير (شباط) من سنة 1584 ظهرت القصة مطبوعة.

وفي هذه المدة مثلت في مدريد بعض رواياته المسرحية منها «معاملات الجزائر» و «نومانسيا» و «المعركة البحرية» وغيرها ونالت استحسان الجمهور واقباله

زواج سرفانطيس

لم تكن حالة عائلة سرفانطيس المادية كما قدمنا حسنة لان ما انفقته لاقتداً ولديها من الاسراجهاز على البقية الباقية من ثروتها الصغيرة: فلما عاد ميغيل من البرتغال الى حضن العائلة كانت هذه قد بلغت حالة يمكن وصفها بالفقر الى حد انه اضطر ان يرهن في شهر سبتمبر (ايلول) من سنة 1583 ست قطع من المخمل الاحمر كانت لاخته اندريا مقابل ثلاثين دكة.

وكانت اخته هذه لاتفتقر تتحدث عنه الى ضونيا كاتالينا سالازار التي اشرنا اليها سابقاً، ففعل كلامها فعله في قلب الفتاة التي اغرمت بميغيل، ووقع التعارف بينهما، وداخل الحب قلب ميغيل ايضاً، ولم يلبثا ان اتفقا على الزواج، لكن عائلة كاتالينا عارضت في الامر وبالرغم من المعارضة تم القران في 12 دسمبر (كانون الاول) من سنة 1584 في كنيسة القديسة مريم في بلدة اسكيفيا، ولم يحضر من اقارب العروس احد حفلة الزواج لما ذكرناه من معارضتهم في عقد القران.

ولم يلبث ان نشأ سوء التفاهم بين الزوجين لان

ضونيا كاتالينا كانت ذا خلق على طرفي نقيض من
 خلق زوجها الذي تحبه حبا شديدا: فهي متمسكة بتراب
 بلدتها ودارها واملاكها تحب الحياة المستقرة الهادئة
 بينما هو يعشق الحرية والتنقل كالطير لا يعرف
 هدوءاً ولا استقراراً، هي تفكر بحياة القرية والعناية
 بارضها وكرومها وغلاتها وهو يهوى حياة الخيال والعناية
 بالشعر والقصص ونتاج الفكر، هي تؤثر العيش في بيت
 اهلها الهادي وهو يود العيش في مدريد الصاخبة على
 اتصال بالحلقات الادبية وارباب المسارح واجواق التمثيل
 فاني لهما ان يتفقا؟ ولذا اخذ ميغيل يقسم وقته
 بين مدريد واسكيفيا، ثم اخذت زيارته الى اسكيفيا تقل
 شيئاً فشيئاً حتى انقطعت في النهاية واصبحت زوجته
 في حكم المهجورة.

سرفانطيس ينصرف الى المسرح

قلنا سابقا ان سرفانطيس عاد من البرتغال خائبا وان امله بالحصول على منصب في الجيش او الادارة تلاشى، فلم يبق امامه الا الادب، وكان مغرما بالادب المسرحي ورأى فيه باب الخلاص ماديا وادبيا، وبنوع خاص بعد ان رأى في زواجه خيبة جديدة. فانصرف الى المسرح بنشاط كبير ووضع في سنتي 1584 و 1585 عدة روايات مثلت في مدريد ونالت استحسان الجمهور، واخذ اسمه ينتشر في الاوساط الادبية والمسرحية خاصة، لكن، توفيقه هذا لم يطل لان مزاحما جديدا في هذا الميدان لم يلبث ان كسفه بين جملة من كسفهم من امراء المسرح حتى خلا له الجو فخلق فيه وحيدا، وهذا المزاحم لم يكن سوى لوبي دي بيغا، فما ان بدأ يدفع رواياته الى المسرح حتى تقلص ظل جميع المؤلفين المسرحيين وسرفانطيس في طليعتهم.

وكان لوبي في عنفوان الصبا لما يتجاوز الحادية

والعشرين من سنه وقد اتاه الحظ من كل جهة: فهو ينتمي الى عائلة رفيعة وعمه يحتل منصبا من ارفع مناصب الدولة، وقد منحه الله طلعة بهية وذكاء مفرطا وهو يحسن عزف العود والرقص وهز الحسام ونظم الشعر ومغازلة الحسان، وما كاد يدفع رواياته الى التمثيل حتى اخذت سيول الثروة تنصب عليه غزيرة، فينفق منها عن سعة ويتقلب في احضان النعمة والرخاء.

ولعل سرفانطيس تعرف به في احدى حلقات المثليين لكن المنافسة لم تلبث ان نشبت بينهما ولعلها كانت اقوى من جانب كاتبنا، فان لوبي دي بيغا لم يكن له ما يحسد سرفانطيس عليه وقد ابتسمت له الحياة وفتحت له ابوابها على مصراعيها، ولعل ميغيل على طيبة قلبه ونبل نفسه وشهامته كان ينظر وهو يهوي كل يوم من سوء الى اسوأ بشيء من المرارة والالام الى منافسه الراجع في بحبوحة من العيش كان هو يحلم بها ويرى نفسه جديرا بها، وانه وان كان يعترف بتفوق لوبي في المسرح لايمكنه ان يخلق في نفسه هذه الثورة على من قضى على آخره امل من آماله.

وفي هذه الاونة فجع بوفاة والده ضون رودريغو
الذي اسلم الروح في 13 يونيو (حزيران) من سنة 1585



ابتعد ميغيل عن المسرح فاضلمت الدنيا امام عينيه
وبات حائراً لا يدري صوب اي شاطئ يولي وجهه، فلم
ير بدأ من الاستعطاف والتذلل والوقوف على ابواب
الكبراء وقضاء الساعات الطويلة في قاعات الانتظار سعياً
وراء وظيف يضمن له النجاة من هوة الفقر التي
وقع فيها.

سرفانطيس يعود الى اشبيلية

خابت مساعي ميغيل في الحصول على الوظيفة كما خابت آماله في التفوق كمؤلف مسرحي، واخذت الدنيا تزداد في عينيه ظلاما، ففي هذه الاونة في سنة 1586 نراه يعود الى اشبيلية مدينة صباه واحلامه، لكنه لم ياتها هذه المرة كما اناها لعقدين مضيا يوم كان الشباب يصبغ وجهه والامل يملا جوانبه والمستقبل لما يزل امامه صفحة بيضاء يؤمل ان يسجل عليها سطورا مجيدة! لا بل جاءها الان وبياض الكهولة قد صبغ مفرقيه وتوالي النكبات قد حط من عزمه والفشل قد قص جناحي خياله المتقد وسود من صفحة المستقبل اسطرا شقية كتبت بماء البؤس والتعاسة، جاءها الان كرجل عادي، كعميل لبعض المحلات التجارية المدريدية ليقبض لها ديونا من تجار آخرين في اشبيلية وقد يكون للقيام ببعض عمليات تجارية صغيرة لحسابه الخاص، كل هذا ليضمن

لنفسه بعض موارد الرزق الذي كادت تنسد في وجهه
ابوابه كلها.

لكن اقامته في اشبيلية لم تطل هذه المرة ، وما
ان قضى المهام التي جاء فيها حتى عاد الى مدريد، ومنها
انتقل الى اسكيفيا، اذ نراه في الخامس والعشرين من شهر
اكتوبر (تشرين الاول) يتولى هو وزوجته صفة عرابين لفتاة
تلقت ذلك النهار ماء العماد في كنيسة تلك البلدة، غير
ان اقامته في اسكيفيا لم تطل، بل عاد الى مدريد الى
تلك الحياة التي تكاد ان تكون تشردا، وعاد الى
الكفاح في سبيل العيش.

سرفانطيس يعين مفوضا لتموين الجيش

استقام الامر لفيليب الثاني في البرتغال، لكن انكلترا ظلت تناوئه وتبالغ في اعمالها الاستفزازية، فأوت رئيس دير اودراتو وواصلت مد الثوار في فلانديس بينما كان قراصنتها يتصدون للمراكب الاسبانية الراجعة من اميركا فيسلبونها ما تحمله من الذهب، وذهبت جميع احتجاجات اسبانيا ادراج الرياح، ولما طفق الكيل امر فيليب الثاني ببناء اسطول ضخم في لشبونة، وبلغ الخبر انكلترا فقلقت في بادئ الامر لكنها ما لبثت ان تبدد قلقها واستحوذت عليها موجة من الحماس عمت جميع سكانها على اختلاف مذاهبهم، وبدأت بدورها تعد العدة للمصراع الذي لم يكن منه بد.

شرع فيليب الثاني ببناء الاسطول وفي الوقت نفسه شرع يتمويله وتجهيزه، وكانت العادة في ذلك العهد ان يفرض التموين من حبوب وزيت على المدن والقرى كل على قدر اهميتها، وتوضع بالمفروض لوائح ترسل الى سلطات

كل بلدة، وهذه تجمع الكمية المعينة حتى اذا اقبل مفوض التموين - وهو الموظف الحكومي - استلمها، وبعد مدة يدفع ثمنها من الذهب القادم من امريكا على الغالب، وكانت الحكومة شأن كل الحكومات في ذلك الزمن تتأخر اشهرها بدفع الثمن وذلك ما يثير ثائرة المزارعين فيصبون جام غضبهم على مفوض التموين الذي كانت مهمته لهذا السبب غاية في الصعوبة.

وقد شاء حظ سرفانطيس الذي كان يكافح الفقر والعوز ان يعين مفوضاً للتموين في احد اقاليم اسبانيا الجنوبية، واضطر الى قبول هذه الوظيفة التي لم تكن بالمغرية لضيق ذات يده وخيبته في الحصول على غيرها مما كان يصبو اليه.

وفي اواخر سنة 1586 او اوائل السنة التالية انتقل الى اشبيلية ليستلم وظيفته، وتوجه الى فندق طوماس غوتيريث الذي كان في اول امره ممثلاً وصاحب جوق للتمثيل وكانت تربطه بكاتبنا صداقة قديمة من ذلك العهد، ثم تخلص عن حرفته السابقة وفتح له في اشبيلية فندقاً كان يعتبر من ارفع فنادقها وفيه ينزل كبار الضيوف والزائرين سواء قدموا من بقية انحاء اسبانيا

ام من الخارج، وقد مد لسرفانطيس يد المساعدة في غير
ما مرة، لكن كاتبنا انتقل بعد مدة الى فندق آخر اقل
فخامة وارخص ثمنًا.



ما كاد ميغيل يصل الى اشبيلية حتى توجه الى
زيارة المأذون ديبغو دي فالديفيا نائب مفوض التموين
العام ضون انطونيو دي غيبارا الذي كان اذاك غائبا
عن المدينة، وبعد ايام قليلة خرج سرفانطيس من اشبيلية
متوجها الى بلدة استجة لياشر القيام بمهام وظيفته الجديدة
لكنه لم يلبث ان اخذ يصطدم بالعقبات والمصاعب لان
المزارعين كثيرا ما كانوا يمانعون بتسليم الغلة المفروضة
عليهم لتأخر ميقات الدفع، وبدلا من ان تجبرهم السلطات
المحلية على تسليمها كانت تكتفي بما يدفع اليها عن
طيبة خاطر - ولم يكن الا القليل - تاركة امر استعمال
القوة الى المفوض الذي يصبح والحالة هذه قبلة احقاد
الجمهور، اصف الى هذا ان بعض رجال الكنيسة كانوا
من جملة الذين يمتنعون عن تسليم التموين، ولذا ما
كاد يمر على ميغيل سوى وقت قصير في الوظيفة حتى
اصطدم بالمتنعين الصدمة الاولى وكان ذلك في بلدة

استجة حيث اضطر لحجز كمية من الحبوب والزيت
كان قسم منها ملك الكنيسة والقسم الاخر ملك رجالها
فصدر حرم كنسي بحقه واضطر الى الذهاب الى اشبيلية
وبعد أخذ ورد رفع الحرم عنه وارجع المحجور الى اصحابه
وقد وقع له حادث آخر مثله في بلدة كاسترو دل ريو.

لكن تصرف ميغيل في وظيفته رغم شدته الخارجية
اكتسب له اعجاب المزارعين وتقديرهم لانهم رأوا فيه
موظفا نزيها وما اقلهم في ذلك العهد، ولذا حين وجهت
اليه التهمة مرتين بانه استبقى لنفسه بعض ما جباه
للبحرية هب هؤلاء الذين كانوا اكبر معاندين لاوامره
نفسهم ليدافعوا عن نزاهته ويشهدوا ببياض صحيفته
وصدق تصرفه.

وفي سنة 1588 ازدادت وظيفته اتساعا اذ عهد اليه
فضلا عن مهمته السابقة امر طحن الحبوب ونقلها وبعد
مدة اضيف اليه امر خبزها وشحنها، فكاد المسكين ان
يغرق في هذا البحر الخضم من الاعباء التي لم يخلق لها.
وكان تردده على اشبيلية في هذه الآونة قليلا
واقامته فيها حين يزورها قصيرة، اما علاقته بالادب
فكادت ان تكون مقطوعة ولم يبق بينه وبين المسرح

صلة كانه لم يكن يوما مؤلف ثلاثين مسرحية قوبلت بالاستحسان
في نفس مدريدا! لا! ان حياته الان حياة عمل لا يمت الى
الادب بصلة واشغاله العديدة تستغرق كل مجهوده
الجسمي والعقلي والجو الذي يعيش فيه والمحيط الذي
يحيط به لا يعرفان للادب معنى.



في 22 يوليو (تموز) من سنة 1588 خرج الاسطول
الاسباني من مرفأ لاكورونيا الواقع في الشمال الغربي
موليا وجهه شطر انكلترا، لكن الحملة اسفرت عن
اندحار كبير سببته العاصفة الهوجاء التي هبت وسوء
ادارة قائدها «مدينة صدونيا»، وفي 23 سبتمبر (ايلول)
من السنة نفسها وصلت بقية الاسطول الاسباني المندحر
الى سانطندير، ومن الثلاثين الفا الذين خرجوا من
لاكورونيا لم يرجع سوى عشرة الاف، واعتبر هذا الانكسار
اعظم انكسار اصيبت به اسبانيا لانه عجل تدهورها ودل
العالم على ضعفها وانحلال قواها، واعتبر مبدءاً عهد
انحطاطها.

وكان سرفانطيس حينئذ في اشبيلية، فتألمت نفسه
تألماً شديداً وهاجت عواطفه وسالت قريحته فتناول القلم

ونظم قصيدة عامرة فياضة بالروح الوطنية والعاطفة القومية وختمها بنداء حار موجه الى الملك فيليب الثاني يدعو الى اعداد العدة لغسل العلم الاسباني من ادران هذه الهزيمة والتأثر لهذا العار.

لكن الوضعية في اسبانيا كانت قد تبدلت والنفسية انقلبت واكتفي بالقاء تبعة الانكسار على العاصفة واسدل الستار على المأساة كأن شيئاً لم يجر، وذهبت صيحة سرفانطيس كمن ينفخ في واد، ولم يحرك فيليب الثاني ساكنا واقتصر على ترديد الكلمة التي فاه به والده الامبراطور كارلوس الخامس (شارلوكين) بعد هزيمته في وقعة ايتسبروك: «ان الله لم يردده».

سرفانطيس يحلّم باميركا

لم تزل النكبات تنصب على سرفانطيس، فها هو ذا الآن بعد ان اصيب الاسطول الاسباني بالانكسار يبقى بلا وظيفة صفر اليدين لامال له ينفق منه ولا مورد يرده، فكاد يصبح عالة على اصدقائه، ولا عجب ان راودته في هذه الحالة فكرة الانتقال الى اميركا لان هذه القارة كانت حينئذ قبلة الخائبيين ومحط آمال المنكوبين البائسين، فاخذ ميغيل يعد العدة للسفر اليها.

وفي شهر فبراير (شباط) من سنة 1589 قدم لائحة ارفقها بايمان مغلظة بما انفقته في ما طحنه من الحبوب في استجة، وقد جاء في اللائحة: «اقسم بالله وبشارة الصليب ان كل ما ذكر انفقته على الطحن وفضلا عن ذلك انفقتم كميات اخرى لم اقيدها، واني اوقع هذا البيان باسمي الخاص في 6 فبراير (شباط) من سنة 1589».

وبعد هذا التاريخ بمدة قليلة نراه يستوفي من احد اقاربه المسمى خوان دي سرفانطيس خمسين دكة قد يكون اسلفه اياها حين كانت حالته اكثر يسرا.

وفي يونيو (حزيران) من السنة نفسها وقع لصديقه القديم طوماس غوتيريث صاحب الفندق الذي اشرنا اليه من قبل في اشيلية سندا ماليا يستفاد منه ان ميغيل كان مدينا له بكمية من المال، وقضى فصلي الصيف والخريف وهو يقدم لادارة المالية بينات عن حساباته، وكانت المالية مدينة له براتبه كله لانها كما قال احد المؤلفين «لم تكن تدفع لموظفيها رواتبهم ومع هذا كانت تطلب منهم حسابات واضحة».

وفي هذه المدة علم بان بعض المناصب شاغرة في اميركا فطمحت نفسه الى شغل احدها، ولذا بعد ان فرغ من تادية حساباته الى المالية وصفى قضاياه الخاصة تناول القلم في شهر مايو (ايار) من سنة 1590 وكتب الى رئيس «مجلس الهند» - وهو المجلس القائم اذاك بادارة شؤون اميركا - العريضة التالية:

«مولاي: يقول موقعه ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا انه خدم صاحب الجلالة في المعارك البرية والبحرية التي وقعت منذ اثنتين وعشرين سنة وبنوع خاص في المعركة البحرية (ليبانتو) حيث اصيب بعدة جراح وفقد يده بسبب طلق ناري، وفي السنة التالية شهد معركة نافارينو

ثم معركتي تونس ولاغوليطا، ولما كان عائدا الى هذه العاصمة في المركب «صول» مزودا برسائل من مولاي ضون خوان والدوكي دي سيسا لينعم عليه صاحب الجلالة بما يستحقه وقع اسيرا هو واخ له خدم جلالته في المعارك نفسها ثم اقتيدا الى الجزائر حيث انفقا ما كان لهما من مال لاقتداً انفسهما من الاسر، وكذلك انفقا كل ثروة والديهما ومهر اختيهما اللتين بقيتا فقيرتين لتفتديا اخويهما، وبعد افتكاكهما من الاسر خدما صاحب الجلالة في البرتغال وفي الجزر المثلثات مع الماركيس دي سانطا كروت، وما زالا الان في خدمة جلالته الواحد في فلانديس برتبة ملازم اما الاخر ميغيل دي سرفانطيس فهو الذي حمل الرسائل والتعليمات الى حاكم مستغانم وذهب الى وهران بامر من صاحب الجلالة، وبعد ذلك ادى خدماته في اشبيلية في تموين الاسطول تحت اوامر انطونيو دي غيبارة كما هو مذكور في الافادات التي لديهما، وطول هذه المدة كلها لم ينعم عليه باية وظيفة ولذا فانه يلتمس ويرجو بكل تواضع من جلالته ان تنعموا عليه بوظيفة في الهند (اميركا) من الثلاث او الاربع الوظائف الشاغرة الان وهي: محاسب

مملكة غرناطة الجديدة او حاكم سوكونوسكو في بلاد
غواتيمالا او محاسب المراكب الملكية في قرطاجنة او
صاحب المظالم في مدينة لاباث، فاية وظيفة منها انعمت
بها عليه جلالته قبلها لانه رجل حاذق وذو استحقاق
كاف لتنعيم عليه جلالته بوظيفة ولان رغبته في البقاء
ابدا في خدمة جلالته وختم حياته كما ختمها سلفه من
قبله، وفي اجابة طلبه يلقي خيرا وافرا».



قدم سرفانطيس العريضة وكله امل بان طلبه
سيستجاب فيكون خاتمة احزانه وفاتحة عهد السعادة
والرخاء، وبينما كان ينتظر الجواب الذي لم يكن يتوهمه
الا محققا لاماله شرع يتم ما بقي له من معاملات ففي
31 من شهر يوليو (تموز) وقع توكيلا لكل من زوجته
ضونيا كاتالينا واخته ضونيا ماغدينا لتنوبا عنه في قبض
ما يجب له سواء كان مالا ام سلعة وللمرافعة في سائر
فصول الخصام ان اقتضى الامر.

وانقضى الصيف كله وتبعه الخريف وميغيل في
انتظار الجواب على عريضته في اشبيلية وكاد يقبل
الشتاء بزمهريره وحالته تنحط من سيئ الى اسوأ الى

ان عجز عن شراء كسوة شتوية يتقي بها البرد القارس
فاضطر الى اللجوء الى اصحابه وفي 8 نوفمبر (تشرين
الثاني) اشترى خمسة اذرع ونصف من القماش الردي من
دكان ميغيل دي كافيديس وشركائه وامضى بثمانها
وقدره عشرة دكات سندا ماليا يستحق بعد مرور ثلاثة
اشهر وكفله صديقه الفندققي طوماس غوتيريث. الى هذه
الدرجة من الفقر بلغت حالة كاتبنا في هذا العهد!



وبعد مدة بلغ ميغيل القرار الملكي في الجواب على
عريضته وقد وقع على اسفلها ان يبحث عن وظيفة
تسند اليه داخل البلاد الاسبانية.

وما ان بلغه الجواب حتى اظلمت الدنيا في وجهه
من جديد وودع امانيه المعسولة واماله المذهبة ورأى
نفسه في الهوة من جديد كأنه لم يكتب له سوى مرارة
الحياة وألم الشقاء.

عودته الى مفوضية التموين

في الاشهر الاولى من سنة 1591 قدم اشبيلية ضون بدرو دي ايسونثا وكانت تربطه بسرفانطيس صداقة قديمة ليشغل منصب ادارة التموين في اسبانيا الجنوبية بدل انطونيو دي غيبارة الذي اعفي من هذا المنصب فكان وصوله بردا وسلاما على قلب ميغيل الذي رأى فيه بابا مل جديد فخف اليه مساما مستعظفا، فعرض عليه انسونثا ان يعود الى وظيفته كمفوض للتموين، ولم يجد ميغيل له بدا من القبول لاشتداد حاجته الى مورد للرزق، فقبل على مضض وعاد الى حياته السابقة، حياة التنقل بين المدن والقرى وجمع المؤونة والاصطدام بالمزارعين المعاندين.

وفي سنة 1592 أم اشبيلية مدير جوق تمثيلي شهير في مدريد اسمه رودريغو اوسوريو، وكان سرفانطيس يعرفه من عهده السابق ايام كانت تمثل مسرحياته في العاصمة، وليس من المستبعد ان يكون اوسوريو نفسه قد مثل مسرحياته، فانشرح لهذه الملاقاة صدر كاتبنا

وانتعشت نفسه وتنبهت افكاره واستفاقت ميوله
الادبية من سباتها العميق وعادت الى مخيلته
ذكرى تلك الايام البعيدة ايام كانت مسرحياته تمثل
في مسارح العاصمة وتقابل بالاستحسان الكبير والتصفيق
الحاد، وكأن الذكرى جددت في نفسه الرغبة التي كادت
ان تكون ميتة، واسترجع الثقة بنفسه والايمان بقيمته
وعبقريته، فوقع مع رودريغو اوسوريو عقدا يتعهد بموجبه
ان يقدم له ست روايات مقابل خمسين دكة عن كل
واحدة يقدمها له عند طلبه، وتمثل ضمن العشرين
يوما التي تلي التسليم، ومن جملة ما جاء في العقد وهو
دلالة على ثقة سرفانطيس بنفسه: «واذا ظهر بعد التمثيل
انها من احسن المسرحيات التي مثلت في اسبانيا وجب
عليه دفع الكمية المذكورة، واذا ظهر انها ليست من
احسنها كان في حل من دفع اية كمية كانت».

سرفانطيس في السجن

لاندرى ان كان سرفانطيس قد وضع المسرحيات التي وعد بها ام لا وعلى الأرجح انه لم يضعها، وعلى كل حال من الثابت ان واحدة منها لم تمثل، وبدلاً مما كان يؤمله من مال ومجد اذا به يزج بعتة في السجن ليقاسي امر الالام واشنع الولايات.

وخبر ذلك هو ان الاختلاس الفاحش الذي كان يرتكبه مفوضو التموين في ما يصل الى ايديهم حدا بالحكومة بعد ان استنفدت الحيل عبثاً في تدارك الامر الى تعيين مفتشين على المفوضين، لكن الدواء جاء اقبح من الدواء وما كان يفعلُه المفوضون صار يفعلُه المفتشون وعليه يزيدون، وهذا التدبير اوقع المفوضين في اخرج مازق، فمن جهة معارضة الشعب وممانعته ومن جهة ثانية كيد الاعيان والكبار ومن جهة ثالثة كيد المفتشين الذين كانوا معظمهم يعملون لحسابهم الخاص اكثر مما يعملون لصالح الدولة.

ونكب سرفانطيس بمفتش من بلدة استجة اسمه فرنسيسكو موسكوسو، فكان هذا يضمّر لمفوضنا المسكين

حقدا كبيرا لعله يعود الى العهد الذي كان فيه سرفانطيس
يجمع المؤونة من تلك البلدة، فما ان كادت تبلغه
وشاية بان سرفانطيس اخرج ثلاثمائة فنيقة من القمح
من هري استجة حتى وجه امرا دون سابق تحقيق في صحة
الوشاية الى بلدة كاسطرو دل ريو حيث كان سرفانطيس
يقوم بهمام وظيفته ليلقي عليه القبض، فحاول ان يثبت
براءته لكن محاولته ذهبت ادراج الرياح وعلى مرأى
ومسمع من الجميع اقتيد الى سجن البلدة وزج فيه.

وقد عمل السجن في نفسه ما لم تعمله النكبات
ولا الاخطار ولا سنوات الاسر الخمس مع ما رافقهما من
الاهوال، لانه رأى في حبسه على هذا الشكل تعديا وظلما
وتشفيا، وادرك هنا مدى الشر الانساني ومدى ما يفعله
الحقد في النفوس والى اي حد من الظلم والشر يدفعها،
ولم ينعه عن الابتعاد عن جادة الخير سوى طيب نفسه
ونبلها هذا النبل الذي لم يفارقه قط في ايام الشدة والشقاء.
فما خرج من السجن حتى وجد رئيسه وصديقه
اسنوئا في ضيق بسبب وشاية رفعت به يزعم فيها ان
معاون سرفانطيس واسمه نقولا بنيطو استولى على كمية
كبيرة من الشعير الذي للجيش الملكي وانه وان كانت

الوشاية موجهة ضد المفوضين فقد ترك هؤلاء جانبا ووجهت الهجمات ضد رئيسهم اسنوثة بقصد ايقاعه في المصيدة ومحاكمته مع تعريض شخصه لخطر السجن واملاكه لخطر الحجز، وعلم ميغيل بالوشاية فلم يتردد في التصدي للدفاع عن رئيسه وصديقه ووجه رسالة الى الملك يلقي على عاتقه كل تبعة في هذه القضية مؤكدا براءة اسنوثة التامة ومتعهدا بتقديم ضمانات عن كل ما وجهت به التهمة وطالبا الا يزجج اسنوثة ادنى ازعاج بسبب هذا لا في شخصه ولا في ماله.

لكن مجلس المحاسبات لم يعر رسالته كبير اهتمام وظلت القضية قائمة، وما حلها سوى وفاة اسنوثة التي حدثت بعد ذلك بقليل، فخلصته من المحاكمة وما قد يعقبها من حجز وسجن.



خلف اسنوثة في رئاسة ادارة المؤونة في اشبيلية المحاسب «ميغيل دي اوبييدو» ورغم الحادثة الاخيرة ظل سرفانطيس في وظيفه، وعهد اليه هذه المرة جباية المؤونة من القسم الغربي من اسبانيا الجنوبية، فطاف عددا كبيرا من المدن والقرى، وجمع المؤونة على حسب عادته، لكنه

اصبح اقل نشاطا واقل مرحا، واصبحت نفسه التعبه تتوق الى الراحة والهدوء

وفي هذه المدة، بينما كان يجتاز تلك المرحلة المؤلمة من حياته كانت والدته العجوز ضونيا ليونور دي كورتيناس تلفظ النفس الاخير في دار حقيرة من شارع ليغانيطوس في مدريد ولم يكن حولها ليغمض جفניה سوى ابنتها اندريا وماغديلينا، اما ابناها ميغيل ورودريغو فلم تنعم بمشاهدتهما قبل ان تسلم الروح، وكان ذلك في اوائل نوفمبر (تشرين الثاني) من سنة 1593.

وفي ربيع السنة التالية انتقل ميغيل الى مدريد لتصفية بعض القضايا مع ادارة المالية، وفي هذه الرحلة اغتنم الفرصة لتصفية بعض قضاياها الخاصة ومن جملتها تدبير امر ابنته غير الشرعية ايزابل دي سابيدرا التي كانت مسجلة رسميا كابنة الونصو رودريغو وأنا فرانكا فدير ميغيل الامر بحيث لا تبقى الفتاة مهملة وبعد ذلك بسنوات في 11 أغسطس (آب) من سنة 1599 تعهدت اخته ضونيا ماغديلينا بعقد كتابي بان تتخذها لخدمتها وتتكفل بتربيتها، والقصد من هذه الصورة اخفاء الحقيقة عن زوجة سرفانطيس.

وبعد ما صفى ميغيل كل القضايا واعد العدة للرجوع الى اشبيلية اذا به يفاجأ بنبأ الغاء مفوضيات المؤونة واعادة تنظيم تموين الاسطول على اسس جديدة فانقض النبا عليه كالصاعقة ورأى نفسه من جديد دون مورد رزق يرده، فما كان منه الا ان استأنف الالتماس والالاحاح حتى حصل اخيرا على وظيفة جديدة بواسطة رجل اسمه اغوسطين دي سيتينا كان من ذي قبل محاسبا في اشبيلية وهناك تعرف به سرفانطيس وكانت الوظيفة الجديدة جباية القبالات المتاخرة في مملكة غرناطة، وكان لابد قبل استلامها من تقديم ضمانه مالية، فكيف العمل وميغيل لا يملك شروى فقير، ويعز عليه ان يتذلل لامراته لتضمنه، واخيرا وجد ضامنا في شخص رجل اسمه فرنسيسكو سواريث دي طارانكون لكن الضمانة التي قدمها هذا لم تكن كافية، وفي آخر الامر لم ير ميغيل بدا من اللجوء الى زوجته فاقنعها لتساعده على امنيته وفي 21 اغسطس (آب) من سنة 1594 وقعت امام الكاتب العدل خيرونيمو فليكس تعهدا بالضمانة المطلوبة، وبعد يومين صدر المرسوم الملكي بتعيينه في الوظيفة فودع زوجته واختيه وخرج في مغامرته الجديدة.

وكانت الوظيفة صعبة التنفيذ اكثر خطرا وتعددا
من الوظيفة السابقة، ففي اوائل شهر سبتمبر (ايلول)
بلغ مدينة وادي آش وفيها باشر القيام بمهام وظيفته،
لكنه سرعان ما وجد ان القسم الاكبر مما عهد اليه
جبايته قد جبي سابقا وانفق بين رواتب الجباة والكتاب
والمحاسبين ونفقات تنقلاتهم والقسم الاخر جبي ايضا لكنه
موقوف على تصفية الحساب، فلم يجب سوى قدر ضئيل
ومن ثم انتقل الى بلدة باصا واصطدم فيها بعقبات جديدة
اجبرته ان يطيل اقامته فيها اكثر مما كان يؤمل، ولهذا
لما بلغ بلج - مالقة كان الاجل الذي عين له قد انصرم
فكتب الى مدريد يلتمس اطالته عشرين يوما، واستجيب
التماسه فانتقل الى مالقة، ومنها الى رنדה في 9 دسمبر
(كانون الاول) ومن ثم واصل السير الى مطريل
فسالوبرينيا، وعبر الجبال في قلب الشتاء حاملا ما امكنه
ان يحصله ودخل اشبيلية مغموماً مقهوراً تقض عليه
مضجعه تلك الحسابات التي لايعرف اولها من آخرها.
دخل اشبيلية ثم توجه الى مصرف سيمون فرايري
ودفع اليه قسما من المال الذي بيده وسلمه مقابلته حوالة
على عميله في مدريد كي لايقوم بالرحلة من اشبيلية الى

مدريد حاملا المال كله، لكن حظه العاثر ابى الا ان
يمنى بنكبة جديدة، وذلك انه قبل ان يبلغ مدريد جاءه
الخبر بفلاس مصرف سيمون فرايري، فعاد على اعقابه الى
اشبيلة مسرعا وحين وصلها وجد ان صاحب المصرف
قد فر من اسبانيا بينما كان الحجز جاريا على ما خلفه وراءه
من املاك، وبعد ايام قليلة تلقى ميغيل من مجلس
المحاسبة رسالة تهديدية فيما اذا لم يوفق الى استرجاع
الكمية التي سلمها الى المصرف، فعظم همه وزاد غمه والتجأ
الى ذوي النفوذ وجادل وتضرع وبعد اللتيا واللتيا امكنه
ان يسترجع الكمية كلها ويبعد عن نفسه شبح السجن
المصلى سيفه فوق رأسه.



لم يرجع سرفانطيس الى مدريد للمثول امام مجلس
المحاسبة، بل فضل البقاء في اشبيلية ولم تعد نفسه ترغب
في الوظائف، وانقضت سنوات عديدة لا نعلم عن حياته
خلالها شيئا البتة واول خبر عنه يعود الى اشتراكه بعد
ذلك بمدة طويلة بمباراة شعرية اقيمت في سرقسطة
بمناسبة تطويب سان خاسنطو قديسا، ونيله الجائزة
الاولى فيها.

في اشبيلية

بقي سرفانطيس في اشبيلية ولا شاغل يستغرق وقته ومجهوده، فانصرف الى التفكير والتأمل، واخذ يستعيد في ليالي اشبيلية الهادئة ذكريات الماضي واحلامه الخائبة وآماله الضائعة ويقابل بين ما كان يؤمله وما صار اليه فبدأت تتجسم في دماغه فكرة ساورته منذ بعيد فكرة تصوير القلب النبيل ساعيا وراء المثل الاعلى فيصطدم في كل خطوة بعقبة اقامتها النفوس الشريرة، ولما نضجت هذه الفكرة في دماغه شرع بوضع مؤلفه الخالد «ضون كيخوطي» لكن الحياة حوله ظلت جارية في مجاريها العادية ضاربة باحلامه عرض الحائط، ومن جملة حوادث هذه الحياة قضية القبالات التي لما تكن قد انتهت اضيف الى ذلك ان حساباته منذ ان كان مفوضاً للتموين لم تصف بعد، فكل هذا كان بمثابة خطر دائم يهدده، وما لبث مجلس المحاسبات ان ابلغ ممثله في اشبيلية ان يطلب من سرفانطيس تقديم ضماناة عن الكميات التي مازالت في ذمته من القبالات وان يستدعيه الى العاصمة لتقديم الحساب بلا تاخير والا فليقبض عليه ويقده معتقلا الى

مدريد، فاكتفى ممثل المجلس بحبسه في سجن اشبيلية، ومنه ارسل ميغيل طلبا الى مجلس المحاسبات يلتبس اطلاق سراحه نظرا لقلّة الكمية الباقية في ذمته ولاستحالة ترتيبيه اوراقه ما دام في السجن، فاستجيب طلبه واطلق سراحه بعد ان قضى سجيناً ثلاثة اشهر.

وفي السجن تعرف على الكاتب الشهير ماتيو اليمان مؤلف قصة «قزمان بن الفرج» من امهات قصص الشطار الذي قضى في ذلك السجن والسبب نفسه سنوات عديدة وتعرف ايضا على كثير من مشاهدة الحياة واسرارها باختلاطه بذلك العدد الكبير من المساجين الذي كان يتجاوز الالفين من مختلف الطبقات الاجتماعية.

خرج من السجن وعاد الى حياة الشقاء والبؤس، وتنقضي السنون دون ان نعرف عنه شيئا البتة، وجل ما نعلمه هو انه في سنة 1597 نظم موشحا في رثاء الشاعر «هيريرا» الذي كان موضوع اعجاب سرفانطيس في ايام الصبا وفي سنة 1598 حين حل فصل الخريف واقبل البرد اضطر الى شراء كسوة شتوية، وكان شراؤها هذه المرة بالدين ايضا، وكفله المأذون «فرنسيسكو دي آغيل» ويعرف انه بعد ذلك بقليل اي في نوفمبر (تشرين

الثاني) اشترى قنطارين من البسكويت العادي بست دكات وكان الشراء بالدين ايضا وكفله رجل يدعى خيرونيمو دي بينيغاس ويستنتج المؤرخون من سند هذا الدين الذي ما زال محفوظا ان سرفانطيس كان يقوم خلال هذه المدة بعمليات تجارية يعيش من كسبها ومن جملتها بيع المؤونة للمراكب يساعده على ذلك ما اوجده لنفسه من علاقات ايام كان مفوضا للتموين.

على ان المهم من هذه الحقبة كلها هو انه خلالها وضع القسم الاول من مؤلفه الخالد «ضون كيخوطي» وسجل على صفحاته خلاصة ما قاساه وتعلمه من اسرار الحياة في هذه المدة وما قبلها.



في 12 سبتمبر (ايلول) من سنة 1598 فارق الحياة الملك فيليب الثاني فعمت اسبانيا من اقصاها الى اقصاها موجة من الحزن عميقة واقامت في البلاد باسرها الجنائز والصلوات، وشاركت اشبيلية مشاركة فخمة بهذه الاحتفالات، وبمناسبتها وضع سرفانطيس موشعاً أبين فيه الملك الراحل.

وما كادت تنتهي هذه الاحتفالات حتى قدم اشبيلية

الشاعر الكبير لوبي دي بيغا الذي كان اذاك في اوج الانتصار وقد قارب الاربعين من سنه، ولم يعرف منذ العشرين سوى الانتقال من نصر الى نصر واينما حل انفتحت امامه ابواب المسارح وقوبلت رواياته بالاعجاب، وكانت العداوة بينه وبين سرفانطيس قد بلغت اذاك اشدها، ولا سبب لها على الغالب - والحق يقال - الا هذا الحسد الخفي الذي كان يشعر به سرفانطيس حين يرى زميله مطوقا باساور النعمة متقلبا في احضان النعيم بينما حياته هو تنصرم في بؤرة من الشقاء والتعاسة مع علمه بكفائه ونبوغه.

قلنا ان لوبي قدم اشبيلية فقبل بما عهد ان يقابل به من الحماس في الاوساط المسرحية والادبية، لكن زمرة الخائبين ومن جملتهم سرفانطيس، هؤلاء الذين لم يجدوا في الحياة سوا منها المادية او الادبية غير الخيبة والفشل تالبوا عليه ورشقوه بنبال اهاجيهم وكان سرفانطيس في الطليعة، فنظم بحقه قصيدة لاذعة الهجاء. لكن ميغيل حين ابتسم له الحظ فيما بعد عرف ان يتجرد من حسده ويرجع على اعقابهِ فيقدر لوبي حق قدره وينوه بنبوغه وشاعريته.

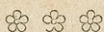
اسطورة ارغاماسيا

قلنا سابقا ان هذه الفترة من حياة سرفانطيس محاطة بالغموض فلذا حامت حولها الاقاويل والافتراضات ومن جملتها ما سماه المؤرخون باسطورة «ارغاماسيا» وارغاماسيا هذه بلدة تقع في مقاطعة «سيوداد ريال».

ومفاد الاسطورة انه اسندت الى سرفانطيس مهمة تحصيل العشور التي كانت مترتبة على سكان البلدة نحو رئاسة دير سان خوان، لكنهم ثاروا بكاتبنا واعتقلوه وسجنوه، وتقول رواية اخرى ان سبب سجنه في هذه البلدة هو انه عهد اليه القيام بمهمة تتعلق بمعمل البارود الذي كان فيها، فاضطر لتسيير المعمل الى الارتفاع من مياه وادي يانة مما اضر بالسكان الذين كانوا يستغلونها للرعي، وتقول رواية ثالثة انه حبس في «الطوبوسو» بسبب تعريضه باحدى نساء تلك البلدة.

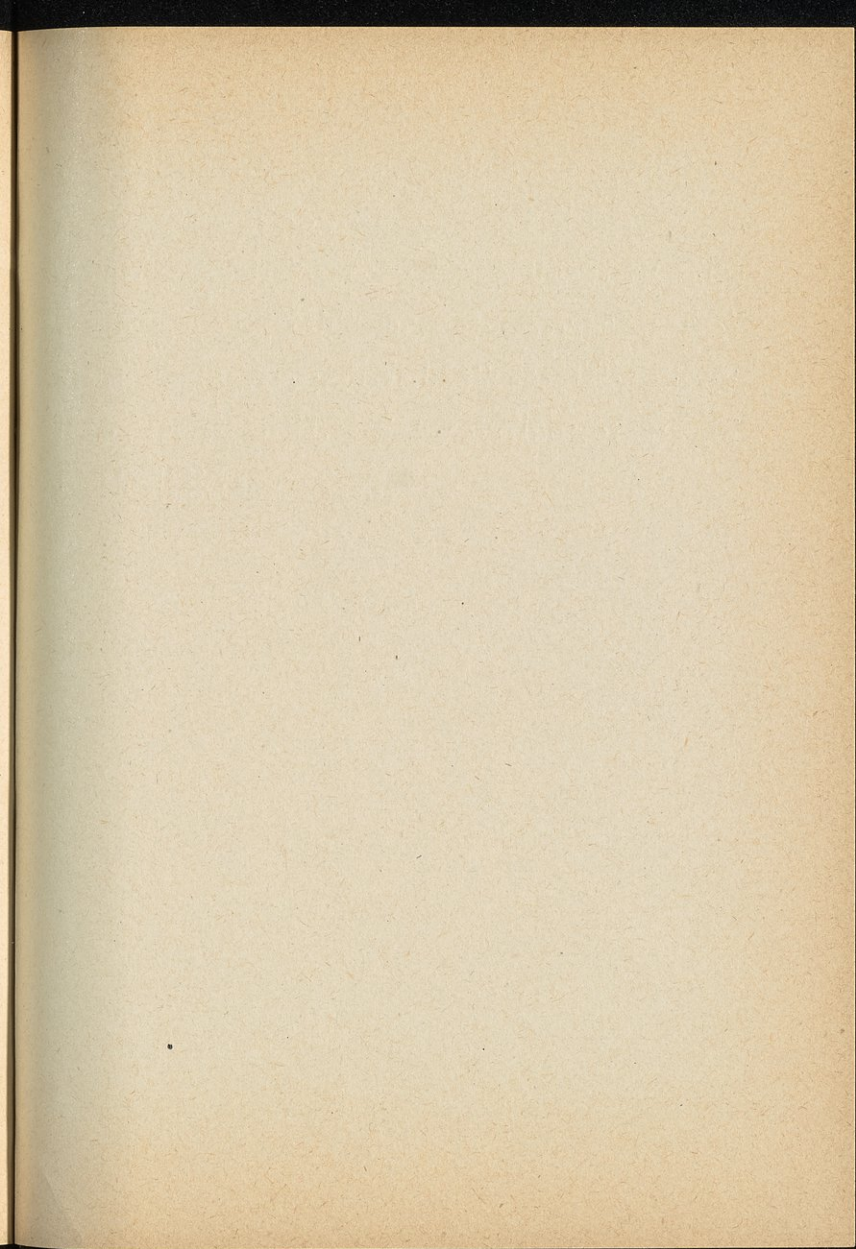
هذا وان المؤرخين العصريين قد نفوا صحة هذه الروايات لعدم استنادها على اساس صحيح، لكنه منذ مئة عام كان سكان «ارغاماسيا» يروون حديثا بلغهم بالتواتر يؤكد فيه ان سرفانطيس سجن في تلك البلدة

ويذكر ذلك الحديث مطلع رسالة يقال ان سرفانطيس وجهها من سجنه مستغيثا الى رجل من بلدة «قصر سان خوان» يدعى خوان برنابي سايدرا لعله كان من اقاربه، وتقول الاسطورة انه اشار الى سجنه في ارغاماسيا حين قال في مقدمة كتابه انه وضعه في السجن، وسواء صحت هذه الاسطورة ام لم تصح فالثابت - حسب قول احد المؤرخين المعاصرين - هو انه حين عاد هذه المرة الى مدريد كان يحمل معه مخطوطة الكتاب.



ولابد لنا قبل ان ننتقل الى هذه المرحلة الجديدة من حياة كاتبنا العظيم ان نتوقف هنيئة لنشير الى براءة ساحته رغم سجنه مرارا بسبب حساباته مع ادارة المالية فان دخوله السجن انما كان من قبيل ما نسميه اليوم بالسجن الاحتياطي دون ان يكون على المسجون اي دليل يثبت انه مذنب وان هي الا من جملة المعاملات الادارية المألوفة في ذلك العهد، فكل موظف يتاخر في تادية الحساب كان يصدر بحقه امر بالسجن الاحتياطي ولا عجب ان يتاخر الموظفون عن تادية الحسابات خصوصا متى كانت من نوع المعهود بها الى سرفانطيس

كثيرة التعقد، ولو لم يكن سرفانطيس برياً الساحة
من كل تهمة لما عين بعد خروجه من السجن بقليل
لجباية القبالات الملكية من مملكة غرناطة، ويؤيد برأته
كلامه في معرض كتاباته عن سجنه دون استحياء ولا
خجل: فلو لم يكن بريئاً لما أمكنه وهو الانوف العزيز
النفس ان يشير الى سجنه دون ان يورد لنفسه
الاعذار الكثيرة.



الفصل الرابع

سرفانطيس في بلد الوليد

بعد ان توفي فيليب الثاني خلفه ابنه فيليب الثالث وكان ضعيف الارادة قليل العزم، فسلم شؤون الملك الى ضون فرنسيسكو غوميث دي ساندوبال المعروف بالدوكي دي ليرما، وكان هذا همه الاكبر استثمار منصبه الرفيع واسناد المناصب العالية الى اقاربه، وما بقي منها اسناده الى من يحسن الرشوة، فنقل البلاط الملكي الى مدينة بلد الوليد مقابل كمية كبير من المال تلقاها من سكانها حسبما يقال، كما انه فيما بعد تناول من سكان مدريد كمية اخرى اكبر منها لارجاع البلاط اليها، وهذه الكلمة الموجزة كافية للدلالة على الفساد الاخلاقي الذي كان مسيطرا في ذلك العهد على الدوائر الحكومية، ومن جراء هذا عم الفساد المجتمع باسره واخذت اسبانيا تتدحرج بسرعة نحو هاوية الخراب.

على هذه الحالة كانت بلد الوليد سنة 1603 حين قدمها سرفانطيس لكنه قبل ذلك مر بمدريد وكانت

قد سبقته اليها شهرة كتابه الذي كانت بعض مقاطعه قد صارت تتداولها الايدي وترددها اللسن في النوادي الادبية وفي الفنادق وبين مختلف الطبقات، فما ان بلغ مدريد حتى تقابل مع الطباع فرانسييسكو دي روبنس - نجل الطباع الذي نشر له قصة «لاغلاطيا» منذ عشرين سنة - واتفق معه على طبع الكتاب ولا شك انه اسلفه قسما مما تم الاتفاق عليه لكي يقدر على المتول امام أهله بمظهر لائق.

وزار اخته ماغدينا التي كانت تسكن الان وحدها بمعية ابنته ايزابيل بصفة خادم كما قلنا سابقا لتمكن من تربيتها دون ان تثير شبهة في نفس زوجه ضونيا كاطالينا. وكانت العائلة قد فجعت منذ سنتين بوفاة شقيقها رودريغو في فلانديس في وقعة «لاس دوناس» وابلغ ميغيل شقيقته رغبته في ان تجتمع العائلة ويواجهون ما بقى من العمر منضمين تحت سقف واحد. لان الشيخوخة قد بدأت تهدد وحدته وصار يشعر بالحاجة الى العيش بين اهله. فهللت شقيقته للفكرة ورحبت بها.

ومن ثم انتقل الى اسكيفيا حيث كانت زوجته

التي لم يرها منذ سنوات ولعلها بدأت بدورها تشعر
بعبء الوحدة في دار واسعة لا رفيق لها سوى امها
العجوز فانتعشت في نفسها جذوة الحب والشوق التي لم
تنطفئ قط نحو هذا الرجل الذي تزوجت به عن حب
واخلاص بالرغم عن معارضة اهلها وممانعتهم. فما كان
منها الا ان لانت امام وعود ميغيل واقتنعت بمغادرة
اسكيفيا ومرافقته الى بلد الوليد لتعيش معه ومع اختيه
وابنته التي اصبحت امرها معروفا لديها، وبلغ بها الحب
والتضحية ان رضيت بتبني الفتاة ومعاملتها كما لو
كانت ثمرة احشائها.

وانتقل الى بلد الوليد مصحوبا بتزوجته واخته
وابنته فاستقبلته شقيقته اندريا مفتوحة الذراعين، وكانت
قد قدمت هذه المدينة مع ابنتها منذ مدة وفيها كانتا
تعيشان من احتراف الخياطة لدور بعض الكبراء، وكانت
اندريا تكن نحو اخيها عطفًا كبيرًا فرحبت ايضا ايما
ترحيب بفكرة العيش تحت سقف واحد، واستقر بهم
المقام في دار جديدة البنيان مقسومة الى طابقين في الحي
المسمى «بالمجزر» بالقرب من قنطرة فوق نهر اسكيفيا
على مقربة من «باب البر».

بعد ان صفى سرفانطيس حساباته المتعلقة بالوظيفتين اللتين شغلتهما سابقا جعل يسعى من جديد للحصول على وظيفة ادارية هادئة تضمن له العيش في 'شيخوخته' لان الارباح التي درها عليه مؤلفه «الكيخوطي» وان كانت لا يستهان بها لو قوبلت بارباح المؤلفين في ذلك العهد فانها لم تكن بكافية لاعالته هو وعائلته العديدة الان ولرفع معيشتهم الى ذلك المستوى الذي كانت تتوق اليه نفسه، فاستأنف ذلك العهد المطوي منذ نحو من عشرين سنة ايام عاد من البرتغال الى مدريد وكان يهبط درجا ليصعد آخر ويغادر غرفة انتظار ليدخل اخرى متقربا الى الكبراء ملحا في الالتماس وبعد ان امضى شهرين في الانتظار - حسبما يروي المؤرخون - حظي بمقابلة الدوكي دي ليرما، لكن الدوكي - حسبما يقال ايضا - استقبله بازدراء ولم يعر مطالبه ادنى اهتمام فخرج من هذه المقابلة بخفي حنين وعاد الى الاشتغال بالادب والتجارة كعميل ولذا قيل عن حياته في بلد الوليد «انه كان يكتب ويتعاطى التجارة» ولا عجب وقد سدت امامه ابواب الرزق وعلى عاتقه عبء عائلة كبيرة.

في طليطلة

في شهر يوليو (تموز) من سنة 1504 توفيت في بلدة اسكيفيا حماة سرفانطيس، فقدمها بمعية زوجته ضونيا كاطالينا، وصادق على قسمة تركة الفقيدة بين وارثيها ضونيا كاطالينا واخيها فرنسيسكو دي بالاسيوس.

وفي شهر اغسطس (آب) من السنة نفسها انتقل مصحوبا بنسيبه هذا لبيع بعض العقارات، وفي هذه الرحلة والرحلات التي تلتها الى تلك المدينة التقى سرفانطيس دون شك بالشاعر لوبي دي بيغا.

وكانت العداوة القديمة بين الادييين قد خمدت نارها وتلتها فترة تقارب في علاقتهما يشهد عليها ما جاء في مقدمة رواياته «دراغونيطا» التي طبعت سنة 1602 في مدريد من ابيات تقريضية للمؤلف وضعها سرفانطيس، لكن هذه الفترة لم تطل واذا بهما في سنة 1605 قد عادا الى العداوة السابقة التي بلغت هذه المرة من الحدة ما لم تبلغه من ذي قبل، وقد افرغ لوبي جعبة حقه في رسالة وجهها تلك السنة الى صديق له في بلد الوليد وقد جاء فيها: «اما عن الشعراء فحدث

ولا حرج! وتاهيك عمن في هذا الجيل! فكثيرون منهم
ستفتح اكمامهم في العام المقبل لكن ليس بينهم من
يسفل الى درجة سرفانطيس ولا من تبلغ به البلاهة
الى تقريظ «ضون كيخوطي»، وليس من الصعب ان
تشتم من هذه الجملة الاخيرة رائحة الحسد. فان لوبي
الذي كان ينظر خلال عشرين سنة من عل الى سرفانطيس
لا بد ان يكون قد احس بطعنة في كبريائه حين رأى
شهرة «ضون كيخوطي» قد ضربت في الافاق والمؤلف
لما يكمل طبعه.



عاد سرفانطيس الى بلد الوليد بعد ان انهى القضايا
التي قادته الى طليطلة، وعاد الى تلك الحياة الهادئة
بين ذويه واصحابه وكان في السنتين اللتين مرتا على
حلوله في هذه المدينة قد توطدت اواصر الصداقة بينه
وبين جملة اشخاص نخص بالذكر منهم ضون بدرو
دي طوليدو مولى قرية هيغارس الذي تعرف به ميغيل
في اشبيلية والتاجر الجنوبي اغسطين راخيو والبرتغالي
سيمون منديس جابي «اعشار البحر» في مملكة قشتالة
وكانت له ايضا صلة بالكوندي دي سالدانيا ابن الدوكي

دي ليما وبالكوندي دي ليمونس وضون خوان دي
 اوربينا كاتب الدوكي دي سابويا، وكان الثلاثة الاولون
 كثيرا ما يترددون الى داره فيتسامرون ويدور الحديث
 حول شؤون شتى من تجارة وسياسة وادب، ويتخلل
 السمر قراءة ميغيل بعض المقاطع من كتابه الخالد الذي
 كان تحت الطبع.

وكلما تقدم الطبع ازداد كاتبنا فرحا واطمئنانا
 وثقة بنفسه وتحسنت حالة العائلة ماديا ومعنويا فامكنهم
 ان يتخذوا خادما للقيام بشؤون البيت واخذ الجميع
 ينظرون بشيء من التفاؤل الى المستقبل ومن التقدير
 والاعجاب الى ميغيل.

ظهور الكيخوطي

في 26 سبتمبر (ايلول) من سنة 1604 صدر الاذن الملكي بنشر الكتاب لكنه لم يصدر الا في اوائل سنة 1605 لما استغرقت من وقت معاملات التصحيح والتسعير، فقبل بروج لم يعرف له سابق نظير، وانتشرت نسخه في كل مكان وبين جميع الطبقات، والكل بين معجب ومكبر، وقد فاق الرواج الذي صادفه كل ما كان يصبو اليه سرفانطيس او يحلم به من فوز، وتكررت الطبعات في مدة قصيرة، وفي 11 ابريل (نيسان) من السنة نفسها وسع سرفانطيس التفويض الممنوح للطباع فرنسيسكو دي روبلس فجعله شاملا للبرتغال واراغون وبلنسية وقطلونيا، وفي اليوم التالي في 12 نيسان امضى له توكيلا يفوضه به لملاحقة الطبعات السرية.

وامام هذا النجاح الذي فاق كل حسابان والشهرة التي تعدت كل حدود وامتدت الى سائر الانحاء شعر كاتبنا باستقرار داخلي وطمأنينة باطنية جاءت الان في الشيخوخة لتعوض عما افلت من يديه من اكاليل المجد التي كان يؤمل ان تزين جبينه في ريعان الصبا ونشوة الفتوة.

دعوى اسبيلطا

في ليلة 27 يونيو (حزيران) من سنة 1605 حوالي الساعة الحادية عشرة بينما كان سرفانطيس قد آوى الى الفراش وزوجته وابنته واختاه وابنة اخته قد ذهبن الى الكنيسة اذا بتاوهات تمزق سكون ذلك الليل وصوت ضعيف متقطع يستنجد ويستغيث لكن الاستغاثة كادت تذهب ادراج الرياح في ذلك الليل البهيم، وسرعان ما خف من بلغت اذانهم الى اغلاق نوافذ بيوتهم يسترقون الخبر دون ان يجراً واحد منهم على مد يد الاغاثة للمستغيث لانه طالما انقلبت الاعانة ويلا على المعين بسبب تصرفات العدالة في ذلك العهد.

لكن واحدا من الناس في ذلك الجو الموبوء ما زال نبيل النفس عالي الهمة لايبالي بالخطر اذا كان لابد منه لمساعدة الغير، واحدا لم يحجم في عهد الصبا - منذ ثلاثين سنة - عن المثول مرارا بين يدي امير ظالم حقوق مستبد والقاء المسؤولية كلها على عاتقه ونفيها عن اصحابه ليبعد عنهم كل شر او اذى. وها هو ذا الان وقد قارب الستين يكرر تلك المبادرة النبيلة التي جرت

عليه بين بني قومه من الوليات ما لم يجره عليه في
الاسر بين الاعداء.

اجل! سمع سرفانطيس نداً المستغيث فهب من
فراشه وهبط الى الشارع مصحوباً بفتى في الخامسة عشرة
من عمره كان يسكن مع امه في نفس البناية في البيت
الواقع ازاء بيت كاتبنا، وما ان بلغا الباب حتى وجدا رجلاً
جريحاً يقارب الثلاثين من عمره يتقدم مترنحاً والدم
يقطر غزيراً من جراحه وما زال السيف بيده اليمنى
والترس بيده اليسرى، فحملاه الى دار ضونيا لويسا مونطويا
ام الفتى الذي رافق سرفانطيس، وهنالك هبوا له فراشا
على الارض، واستدعوا جراحاً لمعالجته، فجاء الجراح ووجد
فيه جرحين بليغين وشرع بتضميدها، ولكن ما عثم
ان اقبل مامورو العدالة وعلى رأسهم قاضي التحقيق
كريستوبال دي بيارويل وشرع بالتحقيق.



كان الجريح شاباً من نافارة اسمه غاسبار دي
اسبيليطا يعيش في بلد الوليد تحت كنف الماركيس دي
فالسيف رئيس رماة الملك، وكان اسبيليطا لاشغل له سوى
مسامرة الماركيس والانصراف الى حياة اللهو والمرح،

فعلى مائدة الماركيس كان يتناول الغداء والعشاء ويقيم في غرفة في احد المثلوي وان كان لا يأوي اليها ليلا الا في القليل النادر حسبما شهدت بذلك فيما بعد ربة الفندق ويستفاد من التحقيقات التي اجريت انه كانت له علاقات غرامية بزوجة كاتب يسمى غالبان ، ويظهر ان هذا اطلع على امر تلك العلاقات فاضمر في نفسه الانتقام من اسبيليطا وفي ليلة 27 يونيو (حزيران) كمن له مقنعا عند القنطرة القريبة من دار سرفانطيس لعلمه انه سيمر بها، ولما بلغها اسبيليطا تصدى له وكلاهما بسلاحه واسفر البراز عن اصابة اسبيليطا بجراح خطيرة فتحامل على نفسه وتابع سيره مستغيثا ولا مغيث حتى قارب دار كاتبنا وطرقت اذنه استغاثته فهبط لاعاثته على الوجه الذي ذكرناه سابقا.

وقد ادلى عدد وافر من الشهود بافادات تؤذي كلها الى ايضاح القضية على الوجه المبين؛ ومن جملتهم ربة الفندق الذي كان يعيش فيه اسبيليطا وفتاة التقت به قبيل اصطدامه بخصمه والتقت بهذا ايضا وهو مقنع وشهادة زوجة الكاتب غابيلان - التي احتفظ القاضي بمضمونها - واقرار اسبيليطا نفسه الذي اعترف مرارا ان

خصمه لم يغدر به وانما تبارزا تبارز الفرسان ولاداعي الى التحقيق وبالرغم عن وضوح القضية شأت ارادة قاضي التحقيق الملتوية، لامر في نفسه، سلك سبيل آخر والاغضاء عن الحقيقة والتمسك بحجج او هي من خيط العنكبوت والقاء التبعة على سرفانطيس وعائلته.

وبعد يومين توفي اسبيليطا رغم ما احيط به من عناية، وواصل القاضي تحقيقاته الملتوية الى ان انتهت به الامر الى اصدار امر بسجن سرفانطيس وزوجته واختيه وابنته بتهمة مقتل اسبيليطا بعد ان حاكت خيلته الخسبة حكاية مفادها ان قاتل اسبيليطا هو سرفانطيس وعزا السبب الى علاقات غرامية بين القاتل وابنة الكاتب، وهكذا اسفر البهتان في يد قاض لايعرف للعدل وجهها ولا للضمير صورة عن زج سرفانطيس وهو يقارب الستين مع كل افراد عائلته في السجن الملكي جزاء له على مده يد الاعانة الى جريح يستغيث في ظلام ليل معتم.

لم يطل سجن سرفانطيس هذه المرة، لكن الصدمة كانت عنيفة وانه وان كانت نفسه قد الفت مرارة الجور وتعنت الزمان لم يكن لهذه المأساة الجديدة بد من ان

تفتح في قلبه من جديد ذلك الجرح الذي كان قد
 اوشك ان يلتئم منذ قليل عند ظهور «الكيخوطي»
 واكثر ما زاده غصة هذه المرة شمل عائلته كلها
 بالنكبة، ولم يكن من السهل عليه ان يراهن جميعا
 يتحملن الم السجن بسبب بادرة نبل استفزه الى
 الاتيان بها قلبه الكريم.



في هذه السنة عاد البلاط الملكي الى مدريد، وفي
 خريف السنة نفسها انتقل اليها سرفانطيس بعائلته، ففي
 مدريد له اصحاب اقدمون وله علاقات بنوادي الادب،
 وامل بالحصول يوما على وظيفة ما، هذه الوظيفة التي
 مر عليه ربع قرن وهو يسعى وراءها دون ان يدركها،
 وكانت هذه سفرته الاخيرة، ولن يغادر مدريد بعد
 اليوم الا ليلاقي ربه.

سرفانطيس يستقر في مدريد

عاد سرفانطيس بعائلته الى مدريد ونزل في دار واقعة في شارع «لاماغدالينا» وراء قصر باسترانا وبالقرب من هذه الدار كانت تقع مطبعة «كويستا» حيث تطبع طبعة جديدة من كتابه وبالقرب منها ايضا يقع دير رهبان «النعمة» ودير الرهبان المثلثين. وفي الاول ترقد رفات والده وله في الثاني ذكريات حية تعود الى عهد اسره في الجزائر لان اقتداه كان على يدهم كما قدمنا. وها هي ذا حياته الان في مدريد تنسال بهدوء وطمأنينة فطبعت كتابه قد تكررت حتى بلغت السبع ومدخوله وان لم يصبح اهلا لاحلاله بين الاغنياء فهو كاف ليبعد عن العائلة شبح البؤس وليوفر لها عيشة متوسطة وفي مدريد وصل سرفانطيس ما كان قد تصرم من الروابط بحلقات الادب واحيا الصداقات القديمة فضلا عن الجديدة التي اكتسبها.

وبعد وصوله الى مدريد بقليل زفت ابنته ايزابيل

الى ضون ديبغو سانس دل آغيل، وكان هذا من عائلة
نبيلة ذا ثروة لابأس بها، واقام الزوجان في دار قريبة
من شارع البساتين كان لضون ديبغو بعض الحقوق
عليها، وفي اوائل سنة 1608 رزقا طفلة سميت باسم والدتها
ايزابيل، لكن الحظ لم يشأ الا ان يعمر صفو هذا
الاستقرار فما كادت تنقضي مدة قصيرة على ولادة الفتاة
حتى كان والدها ضون ديبغو يفارق الحياة تاركا ثروته
بين يدي ارملة ايزابيل، وما ان ووري جثمانه حتى
اطل شخص جديد يسعى وراء يدها، اسمه لويس مولينا
وكان هذا لم يزل في شرح الشباب مضطرب الحياة
منصرفا الى التجارة فضلا عن شغله امانة سر المثرين
الايطاليين كرلوس وانطونيو طراطا صاحبي المصرف
الشهير الذي كان يحمل اسمهما، وقد كان زار ايطاليا
واسر وهو عائد الى اسبانيا وسبق الى الجزائر حيث لا
بد ان يكون قد سمع بالماثر التي قام بها سرفانطيس
ولم يزل ذكرها مترددا على السنة الاسارى، وبعد افتدائه
من الاسر حل ببلد الوليد وتعرف بسرفانطيس وتوطدت
بينهما عرى الصداقة وشعر كاتبتنا نحوه بعطف كبير
وعامله معاملة ابوية.

لكن مولينا لم يقابل الكاتب بنفس ما عامله به من اخلاص وصدق وولاء، وانما رأى الان بعد وفاة زوج ايزابيل فرصة سانحة للحصول على مهر كبير ووضع يده على الثروة التي خلفها لزوجته وابنته ضون ديبغو سانس فتقرب من الارملة متوددا واخيرا تم الاتفاق وعين يوم الزواج، واحب سرفانطيس ان يعرب لابنته وصهره المقبل عن كرمه ولعله كان يؤمل بان ريع كتابه سيرتفع الى ان يسمح له بتحقيق ما نواه لانه في هذه الآونة انما كان مدينا للطباع باربعمائة وخمسين بليوننا، خلاصة الامر انه في 28 اغسطس (آب) من سنة 1608 وقع سرفانطيس تعهدا امام كاتب عدل يلتزم فيه بتادية الفتي دكة الى صهره، وكفله ضون خوان دي اوربيننا كاتب الدوكي دي صابويا الذي اشرنا اليه فيما سبق.

وفي 8 سبتمبر (ايلول) احتفل في كنيسة القديس لويس بزواج لويس مولينا وايزابيل دي سرفانطيس، وكان كاتبنا يظن ان بهذا الزواج دارا جديدة ستفتح امامه في شيخوخته، لكن آماله خابت هذه المرة ايضا، لان مولينا لم يسكت عن المهر الذي تعهد سرفانطيس بتاديته ولم تسعفه الحال على الوفاء، فلاحق خوان دي

اورينا وحصل منه تلك الكمية وادى الامر الى توتر العلاقات بين الكاتب من جهة وابنته وصهره من جهة أخرى.



في 17 ابريل (نيسان) انخرط سرفانطيس في اخوية «عيد القربان الاقدس» التي اسسها في السنة السابقة احد الرهبان المثلثين، وكانت هذه الاخوية بحيرة يلتجئ اليها التعبو القلب، طلباً للراحة النفسية والتقرب من الله، وقد انضم اليها بعد سرفانطيس كثير من كبار كتاب عهده نخص بالذكر منهم فيسنطي اسبيل وكيبيدو ولوبي دي بيغا، لكن سرفانطيس كان اكثرهم ممارسة لواجبات الاخوية وحضوراً لحفلاتها الدينية.

وبعد مدة قليلة فجع كاتبنا بوفاة شقيقته اندريا فتألمت نفسه لهذا المصاب تألماً عميقاً لان اندريا كانت المحور الذي يدور حوله الجميع وصلة الوصل بين افراد تلك العائلة، ولم يمض الا وقت قصير على وفاتها حتى اقبلت زوجته ضونيا كاطالينا في 16 يونيو (حزيران) من سنة 1610 الى مكتب الموثق بلطاسار دي اوخينا واصله من نفس بلدتها اسكيفيا واملت عليه وصيتها دون

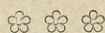
ان تطلع زوجها على الامر، فاوصت لاختها فرنسيسكو بكل املاكها ولزوجها بحق التمتع ببعض الاراضي المذكورة في الوصية، وبعد وفاته تتمتع بها ابنة اخته كونستانسا مدة سنتين ثم تعود تلك الاملاك الى عائلة ضونيا كاطالينا، واوصت لزوجها ايضا بسريرهما وجميع املاكها المنتقلة «عربونا - على حد قولها في الوصية - لما تبادله من حب ووئام» واوصت ايضا ان تدفن في كنيسة اسكيفيا الى جانب والدها.

لكنها في 20 اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1626 اي بعد وفاة المؤلف بعشر سنوات جددت وصيتها فألغت من الوصية السابقة تلك الفقرة المتعلقة بدفنها في اسكيفيا واوصت بان تدفن متى توفيت في دير الابرأء المثلثين حيث كانت ترقد رفات زوجها. وتعليقا على هذا التعديل في الوصية يقول احد المؤرخين المعاصرين: «اجل! ان العاطفة التي كانت تجرها نحو اهلها مؤثرة في النفس، لكن هذه العاطفة الجديدة متى اعتبرنا تربيتها واخلاقتها تظهر لنا اكثر تأثيرا، وتدلنا دلالة حاسمة على تلك القوة الجذابة التي كان يحسن بها سرفانطيس امتلاك قلوب من يعيشون الى جانبه»

سرفانطيس يتشوق لزيارة نابولي

في سنة 1610 عين الكوندي دي ليموس نائبا عن الملك في مملكة نابولي، وكانت تربط سرفانطيس به بعض روابط الصداقة وكان الكوندي فضلا عن ذلك مغرما بالشعر والادب وله بعض التأليف المسرحية، وقد عرف بعطفه على الأدباء، فما ان انتشر خبر تعيينه لهذا المنصب الرفيع حتى هلل له الادباء وقل من لم يحلم منهم بالرحيل الى نابولي مع حاشية الكوندي لشغل وظيفة فيها، وكان سرفانطيس في طليعة من عللوا النفس بهذه الرحلة، لكن ما عثم ان خاب امله وتركت هذه الحنية الجديدة في نفسه مرارة شديدة، ويعزو معظم المؤرخين هذه الرغبة القوية بالرغم عن شيخوخته في الذهاب الى نابولي وما تلا عدم تحقق هذه الرغبة من الم عميق الى ما خلفه من ذكريات في تلك المدينة ايام شبابه حين كان جنديا، ويرون كما ذكرنا في غير مكان من هذا الكتاب في تلك الجملة التي جاءت في

كتابته «رحلة البارناس» الذي وضعه تعزية لنفسه عن فوات هذه الرحلة من يده اذ قال: «وبكل حنو عانقني صاحبي ونااداني «أبت وناديته «بني» وهكذا احق الحق». يرون في هذه الجملة التي يفسرونها على ظاهرها سبب هذا الشوق وهذه المرارة التي اعقبت الحبيبة



في سنة 1611 توفيت شقيقته ضونيا ماغلينا، وكانت حالة كاتبنا المادية قد عادت في هذا العهد الى اسوأ مما كانت عليه، فلم يتمكن من دفع نفقات المأثم التي كانت تبلغ اثني عشر بليوناً، فقام بدفنها راهبات سان فرنسيسكو في ديرهن مجاناً لوجه الله.



لم يبق الان في الدار سوى سرفانطيس وزوجته وابنة اخته، فشقيقته توفيتا وابنته وزوجها قطعاً كل علاقة تربطهما به بعد ان لاحق صهره مولينا كفيله وصديقه خوان دي اوربينا لقبض المهر الذي تعهد له به سرفانطيس بكفالة اوربينا، فكادت الدار تقفر بعد

ان كانت عامرة، وحالة كاتبنا المالية رغم كل ما در عليه كتابه عادت كما قلنا الى اسوأ حال وعادت الديون تتراكم عليه وتثقل كاهله، فلا عجب ان تخيم على نفسه سحابة من الكآبة تتجلى في ما الفه في هذا الطور.

وفي سنة 1612 تأسس في مدريد ناد ادبي دعي باسم «اكاديمية سلباخى» وكانت الجلسات تنعقد في دار ضون فرانسيسكو سلبا، وضم النادي كبار ادياء العصر وعلى رأسهم لوبى دي بيغا، وهذه المرة نرى سرفانطيس عضوا في النادي الجديد وان كان في الجلسات لا يحتل مكانا بارزا، ونرى العدواة بينه وبين لوبى دي بيغا قد خمد سعيها في هذا الطور.



لم تحط النكبات الجديدة من عزم كاتبنا بل بالعكس ولدت في نفسه نشاطا ادبيا منتجا لم يعرفه ايام الفتوة، فانهى مجموعة قصصه المسماة «القصص المثلث» ووضع مؤلفه «رحلة البارناس» واعاد النظر في مسرحياته ليجدد طبعها ولعله شرع بكتابة بعض فصول من «برسيليس» وفي الوقت نفسه كان يواصل الكتابة

في القسم الثاني من مؤلفه العظيم «ضون كيخوطي»
ففي هذه السنوات العشر كتب اكثر مما كتبه
فيما مضى من عمره وسيكتب في السنوات الست الباقية
له اكثر مما كتبه في تلك العشر.



سرفانطيس يشترك بمباراة شعرية

كانت مدريد تستعد للاحتفال في 12 اكتوبر (تشرين الاول) من سنة 1614 بتطويب القديسة تريسة واعلنت اللجنة المشرفة على الاحتفالات عن مباراة شعرية يمكن الاشتراك فيها لجميع شعراء اسبانيا، وتألفت اللجنة التحكيمية من ثلاثة شبان من كبار العائلات الاسبانية، وعين لوبي دي بيغا مستشارا فنيا لهم.

وكان سرفانطيس من جملة الذين تقدموا لهذه المباراة، وهنا يقف بعض المؤرخين حيارى امام هذه المبادرة ويعجبون كيف ان سرفانطيس رغم شيخوخته - اذ كان في السابعة والستين من عمره - وما بلغه من مكانة ادبية تقدم الى مباراة لايشترك فيها عادة الا من كان حديث العهد بالشعر، لكن معظمهم يعللون تصرفه هذا باحتياجه الى المال، ويرون في امله بالحصول على الجائزة المالية الدافع الاقوى الى ذلك، وليس ذلك حقا بالامر العجيب.

واجتمعت اللجنة وفصلت في المباراة ومنح
سرفانطيس جائزة، وفي وسط الاحتفال اعلنت النتيجة
ووقف لوبي دي ييغا وقرأ بنفسه على الجمهور قصيدة
سرفانطيس.



صدمة جديدة

انتهاء القسم الثاني من «ضون كيخوطي»

لم يمض على ظهور «ضون كيخوطي» سوى سنوات قليلة حتى انتشر في اسبانيا كلها وتجاوز حدودها الى بلدان اخرى وترجم الى عدة لغات، وبينما كان سرفانطيس يشغل باعداد القسم الثاني اذا به يفاجأ في هذه السنة نفسها (1614) بظهور كتاب عنوانه «القسم الثاني من ضون كيخوطي» بقلم فرنانديس دي ابيانيدا فاثار الامر ثائرة سرفانطيس ولا سيما ان فرنانديس دي ابيانيدا اسم مستعار لشخص تحركه عاطفة الحسد الممقوتة. اما الكلام عن قيمة هذا الكتاب بالنسبة الى مؤلف سرفانطيس فتتركه للقسم الثاني حيث نتكلم مطولاً عن مؤلفات كاتبنا، وانما هنا نكتفي بالقول ان ظهوره اقض على سرفانطيس مضجعه وحرك همته للاسراع في انجاز

القسم الثاني من كتابه؛ فاكب بحماس لم يعهد له
 مثيل سابق ولم يهدأ له بال ويسكن له روع حتى
 أتى على آخره.

وفي اوائل فبراير (شباط) من سنة 1615 قدمه
 للرقابة في مدريد، وكان اذاك في الثامنة والستين
 من عمره.



المرحلة الاخيرة مرضه ووفاته

كان سرفانطيس مصابا منذ مدة بمرض عضال لما يعرف نوعه بالتحقيق، فالبعض يقولون انه داء الاستسقاء ويزعم الآخرون انه مرض في القلب وحاصل الامر انه ما كادت تقبل سنة 1616 حتى كان الداء قد استفحل وضعفت قواه فاشار عليه الاطباء بتبديل المناخ، فانتقل الى بلدة اسكيفيا لكنه لم يشعر بالتحسن المؤمل فعاد الى مدريد ليقضي فيها آخر ايامه.

ولما حل شهر ابريل (نيسان) من تلك السنة كان سرفانطيس قد بلغ اقصى درجات الضعف والهزال بحيث لم تبق له قدرة على مبارحة الفراش، لكنه ظل محتفظا حتى الساعة الاخيرة برباطة جأشه وصفاً ذهنه، وقد ادرك ان ساعة الموت قريبة فانصرف الى الاستعداد لها وتصفية ما بقي في النفس من رغبات.

ففي الثاني من الشهر المذكور انخرط في سلك «جمعية القديس فرنسيس الثالثة» وقد انخرطت فيها من ذي قبل زوجته وابنة اخته.

وفي هذه الايام القليلة الباقية له من العمر كتب
 اهداء كتابه «برسيلس» الى الكوندي دي ليموس وقد
 جاء ذلك الاهداء بمثابة وداع حار يوجهه كاتبنا الى
 البشرية فيه ما يلي: «تلك الايات القديمة التي طالما
 تعنى بها الناس والتي مطلعها «الان وقد وضعت رجلي
 في الركاب» كنت اود الاتأتي في محلها في هذه الرسالة
 لاني اكاد اقدر ان ابدأها بالكلمات نفسها قائلًا:

الان وقد وضعت رجلي في الركاب

تساورني الام الموت

اكتب اليك ايها السيد العظيم رسالتي هذه
 امس مشحت واليوم اكتب هذه الرسالة، ان الوقت
 قصير والنزاع يقرب والامال تنقص...»

وهذا الاهداء مؤرخ في 19 ابريل (نيسان)..

ونراه قبل ان يغادر هذا العالم يتناول القلم من
 جديد ليكتب وداعه الاخير، فيقول: «الى الله ايتها اللطافة»
 الى الله ايتها الظرافة، الى الله ايها الاصدقاء المرحون
 اراني الفظ انفاسي الاخيرة وارغب ان التقى بكم
 فرحين في الحياة الاخرى». وهي آخر كلماته التي وصلتنا.

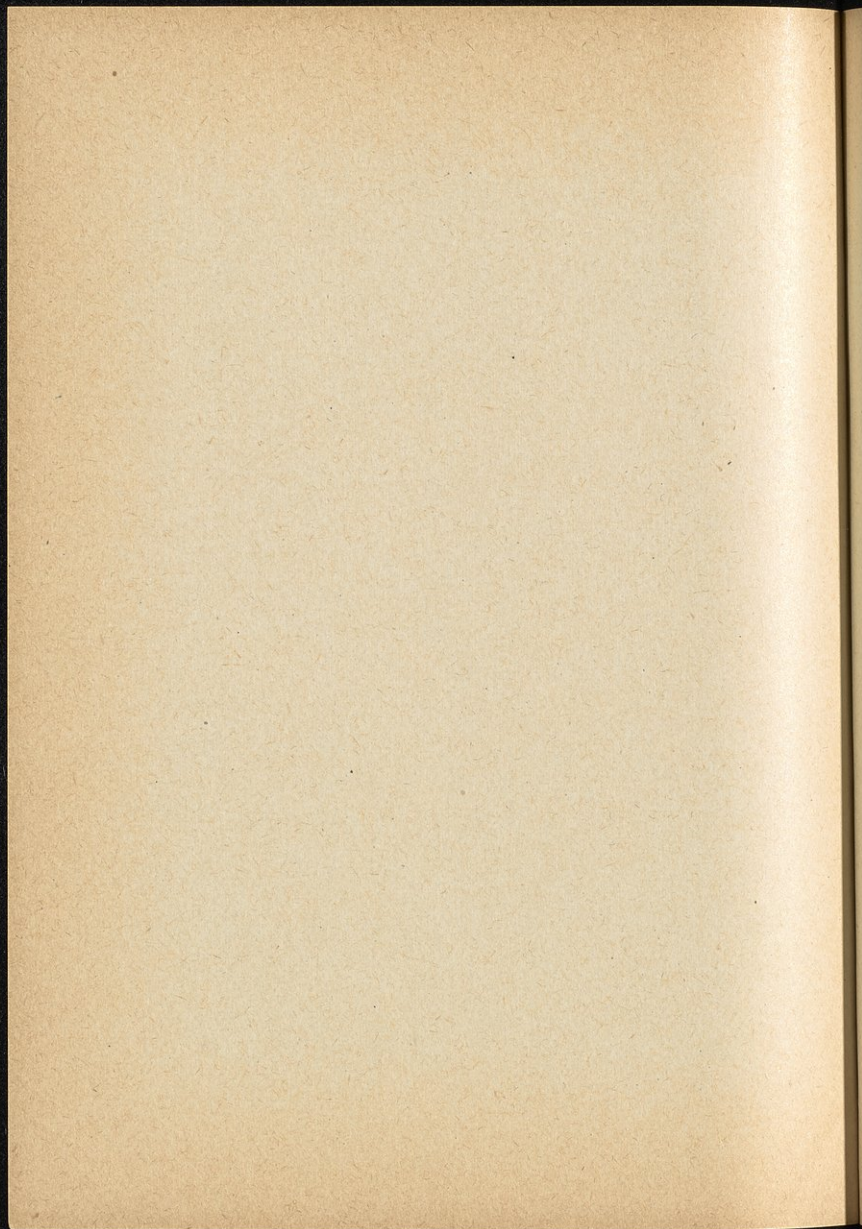


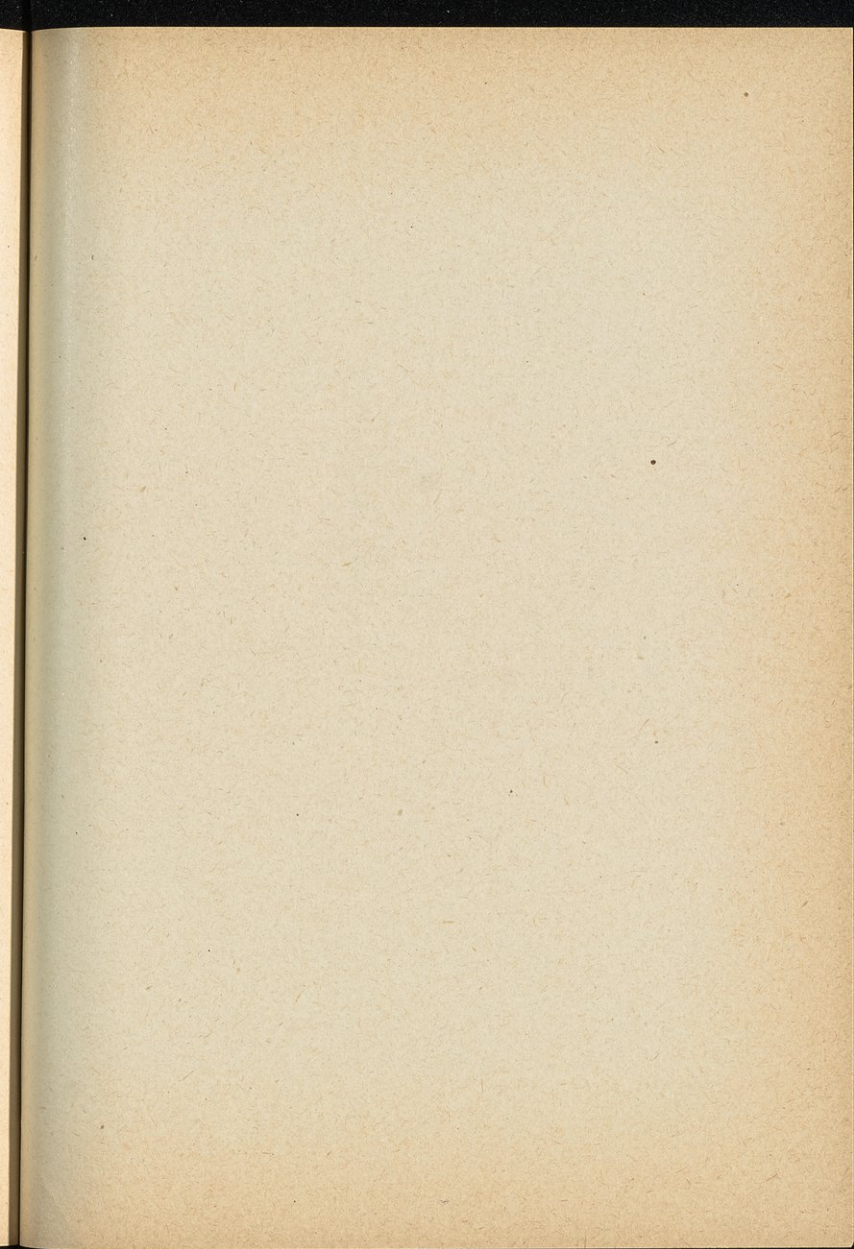
وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه لفظ النفس
 الاخير محاطا بزوجته وابنته وابنة اخته والكاهن ضون
 فرنسيسكو مرتينس مرسيا. ونقل جثمانه الى كنيسة
 دير الامهات المثلثات وهنالك ووري الثرى، دون ان
 توضع على قبره بلاطة او علامة تذكارية. ولم يحضر
 جنازته الا عدد قليل من اصدقائه واديبان خاملا الذكر
 اسم اخدهما لويس فرنسيسكو كالديرون والاخر
 فرنسيسكو دي اوربينا. ويقول المؤرخون ان لوبي بيغا
 لما علم بوفاته جاء فصلى على نفسه امام جثمانه.



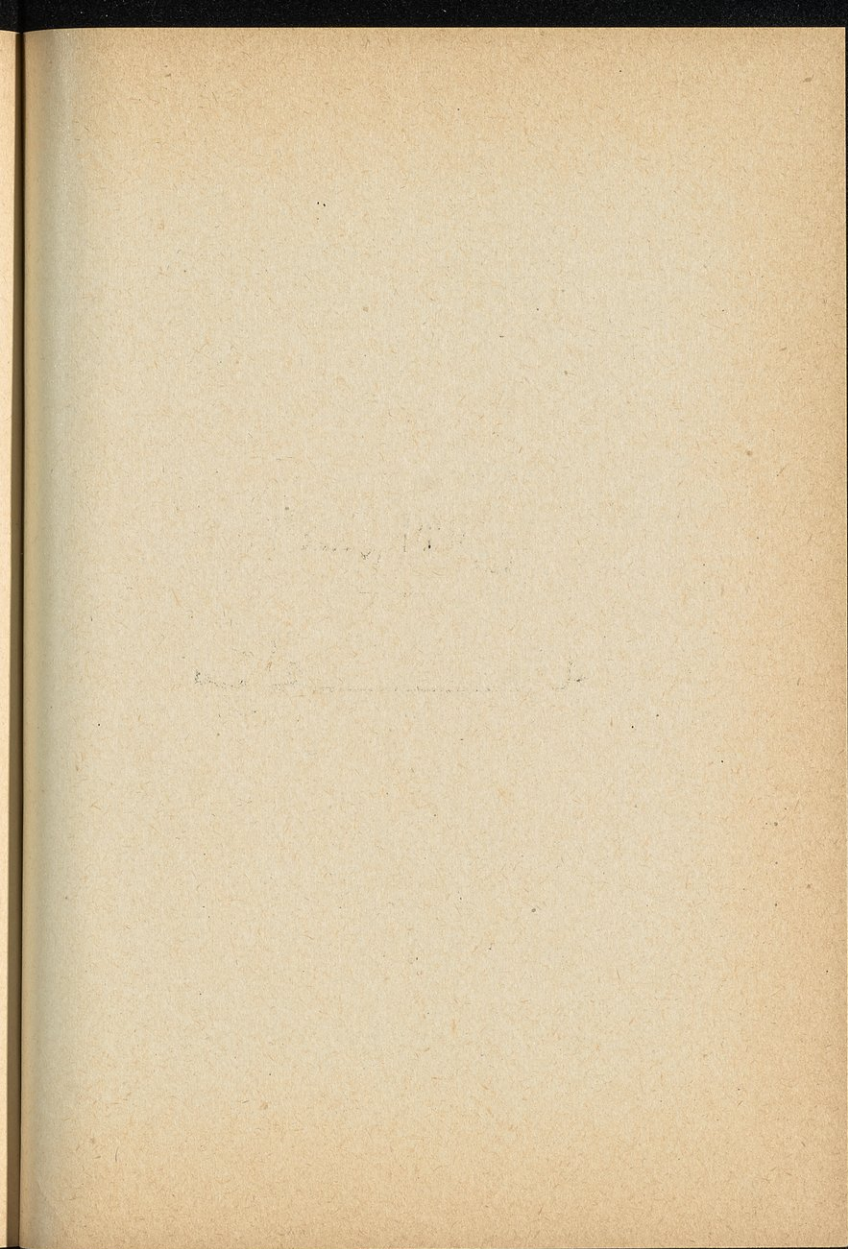
وهكذا بين الاهمال والحمول دفن مؤلف «ضون
 كيخوطي» وضاع لحده بين بقية اللحود اذ طغت يد
 الزمان العاتية فساوت بينه وبين بقية من كانوا
 هنالك يدفنون.

لكن سرفانطيس وان ضاع لحده حي لا يموت،
 وما دام للادب في الانسانية مقاما وللفكر مرتبة وللمروءة
 قدراً فان سرفانطيس سيبقى قدوة الكرام ومثال
 المفكرين وامير الادب العالمي بلا نزاع.





القسم الثاني
مؤلف اته



الفصل الاول

ظهور سرفانطيس في «عكاظ»

لقد اطلعنا بأسهاب على نواحي سيرة هذا النابغة،
وتعرفنا الى ما قاساه من احوال في عنفوان صباه، والان
فلنقتف أثر حياته الادبية التي يركز عليها مدار بحثنا
هذا، منذ ان ظهر في «عكاظ» العصر الذهبي الاسباني
حتى النهاية. ولذا رأينا ان نوزع انتاجه، ونقسم
بضاعته الى مراحل، نستهلها بدراسة كتابه الاول المسمى
«لاغلاطية» وهو الذي مهد لمن سيحمل فيما بعد لقب
«امير الادب الاسباني» ويحتل مركزا عالميا فيجلس عن
يمين صاحب الاليادة، السبيل لدخوله معركة «عكاظ»
ذلك الحين، وتتميمها للفائدة آثرنا ان نثبت هنا ملخصا
لهذا المؤلف، قبل ان نشعر في تحليل قيمته وذكر
اقوال النقاد فيه.

« لا غالاتية »

الموضوع: « اليثيو وأرستو » راعيان يعيشان على ضفة نهر تاجه، وقعا في حبائل غالاتيه وهاما بها هياما مبرحاً، وهي مثلهما راعية رأت نور الحياة على تلك الضفاف. يوقفها عن متابعة الاناشيد الغرامية وصول راع آخر اسمه ليسندرو يقص عليهما خيانة كارينو ووفاة ليونيدا حبيبة الاول. وكانت غالاتيه وفلوريسا جادتين في التقاط الازهار لتجدلا منها شرائط زينة لشعريهما عند وصول تيولندا التي تروي وقائع حبها مع أرثيدورو التي زاد في تعقيدها تشابهها لشقيقتها ليونردا وكذلك تشابه أرثيدورو وشقيقه غالرسيو. ينضم الى حلقة هؤلاء الرعيان، ترسي ودامون الشهيران، وبعد العزف والغناء يذهب الجميع لزيارة الناسك سيليريو الذي يعيد على مسامعهم حوادث حبه لنيسيدا في نابولي، وحب صديقه تمبريو لها كذلك، وفرار هذا الاخير الى اسبانيا ظناً منه ان حبيبته قد ماتت، وما كان من الاول، اذ ما تعذر عليه اكتشاف مقر صديقه، الا ان ذهب فتنسك.

يحتفل بزفاف دارانيو وسلفيريا. يحتدم الجدل

بين لينيو الذي لم يعرف الحب وبين تيرسي حول
 رافة الحب اوشره. يصل تمبريو ونيسيدا الى صومعة
 سيليريو. ويزور الرعيان عن بكرة ابيهم ضريح مليو.
 ثم تعزف قيثارة كاليوبي ثناءً شعرياً عاطراً موجهاً للجمهرة
 من الشعراء الذين ما زالوا على قيد الحياة ومعاصرين
 لسرفانطيس»

يقع الجزء الاول من هذه الرواية التي يدور
 موضوعها حول حياة الرعيان في ستة كتب، وقد
 اختلف الادباء في تعيين تاريخ نشرها بالضبط، فمنهم من
 قال انها خرجت سنة 1584 ومنهم من اكد ان ذلك
 كان سنة 1585 ويوجد فريق ثالث يقول انها الفت
 ما بين سنتي 1581 و 1583، ونشرت سنة 1584 الا انهم
 رغم تباين آرائهم فيما يتعلق بنشرها قد اتفقوا على
 أنها وضعت بعد رجوع سرفانطيس الى مدريد من الاسر،
 الامر الذي المع اليه في الكتاب الخامس. وفي الكتاب
 السادس نشيد «كاليوبي» الذي قد يكون افضل ما يوجد
 في متن الرواية كلها. ويرى بعض الكتاب انه فضلا عن
 كون المؤلف في مجموعه قدم قربانا على مذبح الذوق الادبي
 الرائج، كان وضعه لهذه القصة بدافع العوامل النفسانية

التي ايقظتها في صاحبه من ستصبح فيما بعد زوجا له
ولو انه على ما يظهر لم يتعمد تمثيلها في «لاغلاطيه»
لا ولا ان يمثل نفسه في شخصية «اليسيو» حسبما زعم
الا انه مثل فيها اشخاصا كثيرين من معاصريه، لاناتي
على ذكر اسمائهم لعدم فائدة القارىء العربى من ذلك.
«لاغلاطيه» ان هي الا نفث الشيطان او رواية
عن حياة الرعيان من طراز «لاديانا» لصاحبها «متنميور»
وطراز مؤلفات مقلديه، الا انها قد تكون حسب رأي
«مينندث اى بلايو» النقاد الاسباني الذائع الصيت، قد
نالت قصب السبق في هذا المضمار، اذ «لاتتجلى في رعيان
ورواعي سرفانطيس تلك السذاجة التي انما هي وقف
على من كانوا من طينتهم، على انه في بعض الاحيان
تنجس منهم السذاجة الانسانية اي هذه البساطة الساحرة
التي تأخذ بمجامع القلوب وتستولى على الالباب، والتي
ما كانت قط من صفات عصر دون آخر حتى ولا من
مميزات العصر الذهبي ذاته، بل هي من كافة العصور
لانها تتفجر حقا من اعماق القلب».

وقال «سان-ماك جيراردان»: جاء مؤلف سرفانطيس
وشمس هذا النوع الادبي تجنح الى الغروب. وكما

قال «سيخادوز»: «ظهر ومعين هذا الموضوع كاد ينضب ومهما بالغ صاحب «لاغالاطيه» في شحذ قريحته واذكاء نار عبقريته المبدعة وسعى ليودع فيها نثراً رشيقاً وشعراً أصبح دون شعر من تقدموا رقة وهلهلة، فما كان ليكتب له الفلاح لان الذوق الادبي كان قد شرع يسلك سبيلا اخر».

اما ذوق سرفانطيس فكان في غاية الجودة نظراً لولعه بالانبعاث الذي كان قد كلف به كلفاً شديداً اثناء اقامته في ايطاليا، ولما كان يجد وراء الراحة من حياة المجازفات لم يلق آئذ من ادب سوجه رائجة سوى هذا الذي دشّن به حياته الادبية، أدب الرعيان الذي ما كان قط غير ظاهرة من ظواهر الانبعاث التي حصّها الذوق وصقلها، ولذا شرع يجرب فيه ميزاته الدفينة ككاتب، وعندي ان هذه الاسباب التي دفعته الى هذه المحاولة هي نفسها كانت العامل الوحيد الذي جعله ان يلقى نجاحاً متوسطاً من كتابته «لاغالاطيه» ولم يعرف احد مثله عيوب هذا الطراز وعيوب مؤلفه ذاته، اذ قال: «احلام سكبت سكبا حسناً». فقد خلق ليكون كاتباً انبعاثياً انيقاً وهكذا ظهر في كتابه الذي ما دبجه

الا لامر اعطق وابعد غورا، خلق ليكون كاتباً اسبانيا
 قحا، وروائياً يفرغ اشياء حسنة الديباجة لاصلة لها بالاحلام
 لقد اخذ ينبلج صبح الشخصية الاسبانية والادب الوضعي
 عند سرفانطيس في عدة حوادث من متن «لاغالاطيه».
 وهما الصفتان اللتان ستكونان سدرة المنتهى التى سيتربع
 فيها عند ما يضمحل طيف الاشياء الوهمية الا أنه ترك
 تيار الزى يجرفه لما كان منشأً ففى هذه التجربة
 برز الابداع وبدا الاسلوب والتعبير بحلة خاصة من
 حيث الرقة والوضوح والاناقة. وضع سرفانطيس نصب
 عينيه «لاركاديا» لصاحبها «ساناثارو» و «لاس ديانس»
 لمؤلفيهما «منتميور» و «خيل بولو»، الا انه انجل
 كتاباً فريداً داخل نطاق هذا الحقل الفسيح ودمج روايات
 قصيرة تنذر «بالمثلى» وبالتالى ذكريات حياته الخاصة.
 اما فيما يتعلق ببعض الافكار الافلاطونية التى
 عرضها سرفانطيس فى «لاغالاطيه» وهى نفس تلك
 الافكار التى تقوم عليها دعائم الزهد العامة ويتكون
 منها محور الشعر الاجنبى النزعة فى زمانه فقد قال عنها
 مينندث اى بلايو فى تاريخه عن الافكار الجميلة: «انه
 لمن الزيع التمسك بما تمسك به احد السرفانطيين المعاصرين

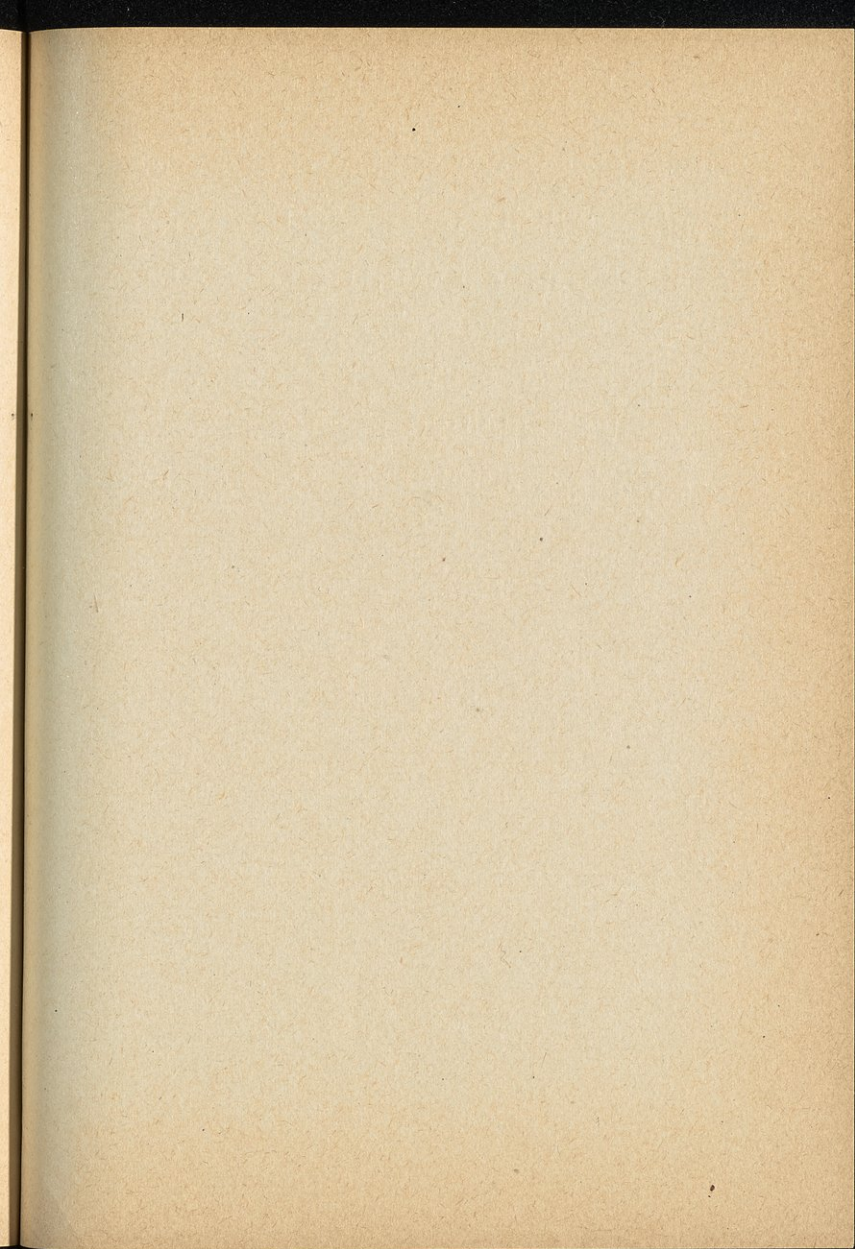
من ان سرفانطيس في «لاغالاطيه» لم يرم الا لتجديد وتعريف نظرية افلاطون، غير انه من الاكيد ان في الكتاب الرابع من هذه الرواية التي تبحث في حياة الرعيان، باكورة العبقريّة الفتيّة لسلطان كتابنا ادخلت في ثناياها مشادة حب وجمال - ذات منعة المعية حتى في الشكل - بين ترسي الرزين و«لرسيو» الرجل الذي لم يعرف الحب، وان فحواها افلاطوني محض ينتمى الى «ليون العبراني» حتى في استعمال الالفاظ...

وسرفانطيس نفسه - كما قدمنا - التفت الى عيوب مؤلفه وفي سياق الحديث عنه في «الكيوخوطى» كتابه الخالد يقول: «اما كتابه ففيه شىء من الابتداع، يعد بشىء الا انه لا يستدل شيئاً، فينبغى انتظار الجزء الثانى الموعود به، عله في التصحيح يتوصل نهائيا لاحراز الرحمة التى تنكر عليه الان»

وطبعت هذه الرواية التى ما ظهر قط جزؤها الثانى الموعود به، مرتين في حياة المؤلف (لشبونة 1590 وباريس 1611) ويذكر رويس ست عشرة طبعة، الا ان الطبعة الوحيدة الصالحة هى طبعة مدريد من سنة 1863 لانها نسخة عن الاولى لسنة 1581.

وقد ترجمت «لاغالاطيه» ثلاث مرات الى الالمانية،
ومرتين الى الانكليزية واقتبسها الى الفرنسية فلوريان
سنة 1783، وقد ترجم الى الاسبانية كتاب فلوريان هذا
فيشتي رودريغث اريانو سنة 1797، واما كتاب «كنديدو
ماريا تريغاروس» (عشاق لاغالاطيه واعراسهم) المطبوع
في مدريد سنة 1798 تتميما «للاغالاطيه» سرفانطيس، فهو
تقليد لفلوريان اكثر منه لمؤلف الكيخوطي.





الفصل الثاني

شاعرية سرفانطيس

يتأسف سرفانطيس في مؤلفه «رحلة البرناس» المطبوع سنة 1614 بمدير يد بمرارة وانكسار لعدم تحليقه في الشعر، فينشد:

«وانا الذي دوماً اجد وأسهر

كيما اطل كشاعر او اظهر

في نعمة ابت السما ان تعطيني...»

واثناً عملية تطهير مكتبة ضون كيخوطي (الجزء

الاول الفصل السادس) يقول سرفانطيس عن نفسه انه كان اكثر توفيقاً في التعاسة منه في الشعر.

ولم يحجم الكتاب المعاصرون لسرفانطيس او ممن

تأخروا عنه قليلاً مثل «سوارث دي فيغيروا وضون

استيبان م. دي فياغس» وسواهما عن مس شعور سرفانطيس كشاعر ومهاجمته.

ويكتب لوبي دي بيغا في رسالة له لاذعة فكاهية:

اما عن الشعراء فحدث ولا حرج، انها لسة جيدة هذه!

وقد بدأ جلهم ينضج للسنة المقبلة، الا انه ليس بينهم من

يسفل الى درجة سرفانطيس ولا من تبلغ به البلاهة

الى مدح الكيخوطي». وبرغم تباين وجهات النظر واتساع شقة الخلاف بينه وبين بطل «ليبانطو» عاد لوبي بعد وفاة خصمه، في كتابه «غار ابولو» سنة 1641 الى انصافه كشاعر.

واما الانتقادات الواهية التي وجهها اليه بعضهم وانكارهم عليه شاعريته انكاراً مغرضاً فسرعان ما تضحل امام اطراء لوبي، واحرى بذلك نظراً لقيمة بعض قصائده بالذات. ولاريب في أن اشعاره دون نثره مرتبة وهي لاتسمح له ان يتبوأ المقام الاول بين الشعراء، ولكن لايصح بحال من الاحوال ان يستند الى مثل هذا لتجريده من شخصيته كشاعر كما حاول ذلك البعض، وكثيرا ما تتجلى شاعريته في نثره، وكثيراً ما اظهر ولعه بالاشعار فراح يدرج من ابياته او ابيات غيره في متن رواياته.

واما فيما يتعلق بشعر الغير فقد بدا دون ماشك أن سرفانطيس كان يفضل «الرومنسارو» و «غرسيلاسو» وتقرأ بتكرار الشواهد او ما أثر فيه من «الرومنسي» (الموشح) في الكيخوطي وتقتضى الاشارة الى انه اكسبها قلبا في غاية الروعة والجمال كما يستدل على ذلك من كتاب «لوس ثيلوس» (الغيرة) حيث اتى بها على سبيل

المدح او كالايات التي في مسرحيته الهزلية في بلاط
الموريسك المسماة «الكايردو اسبنيول» (المقدم الاسباني)
وغيرها. ولا تحصى الايات الرائعة التي اوردها سرفانطيس
في الكيخوطي، مثل التي نقرأها في حادثة «التيسدورا»:

«عادة تأخذ قوى الغرام

لاخراج النفوس عن مدارها

البطالة المهملة، آلة،

وعادة تكون الخياطه والفلاحه

وبقاء المرء دائما مشغولا

دافعاً لسم اللواعج الغرامية،

وفي رواية «لاختيانيا» تغني برثيوسا هذا الموشح
الجزل ومن الابتكارات الموفقة من حيث الصبغة والرشاقة:

«يا جميلة يا جميلة بك يزداد زوجك هيماً

يا ذات الايدي الفضية لدى ملك البشرية... (1)»

وهذا الموشح المقتضب الذي يشرح فيه حالة الفتيات
الخادومات لا يقل من حيث الرشاقة والظرافة والتعريض
اقتضاباً عن امثاله «لغونغرا» (2)

(1) اسم جبل واقم بالقرب من غرناطة

(2) شاعر اسباني امتاز بالشعر الرمزي

« يا لتعاسة الفتيات اللاتي جاءت بهن السماء
 من اجل ادوار غريبة ليخدمن اربابها... »
 واما تأثير «غرسيلاسو» في الكيخوطي فجلي واضح
 لاغبار عليه اذ بينما يتحدث مع ابنة اخيه (او اخته)
 يردد مقاطع لهذا الشاعر الاسباني الكبير:

«من اجل الخلود تقتفى

هذه السبل الوعرة

لبلوغ المقعد الاسمى

الى حيث لا يرتقي قط

من، من هناك يتدحرج...»

وفي «نشيد الكرستوستمو» يتعقبه تعقبا حثيثا حتى
 ليكاد يظا عرقوبيه، وفي بعض الاحيان ينسج على منواله
 حتى في القافية الوسطى، ونشيد «ميرينو» المغنى في
 «لاغلاطيه» لعدم اخلاص «سلفيريا» يعيد الى الذهن
 «ذلك التأوه العذب المتفجر من صدر راعيين».

واما في السونيت والمداعبات الشعرية أو الهزليات
 فيخلق تحليقا منقطع النظير واشهر ما صاغه منظومة
 فيليبى الثانى في اشبيلية، وليوم دخول الدوكى دي
 مدينة سيدونيا الى قادس في يولى سنة 1596 ومنظومة

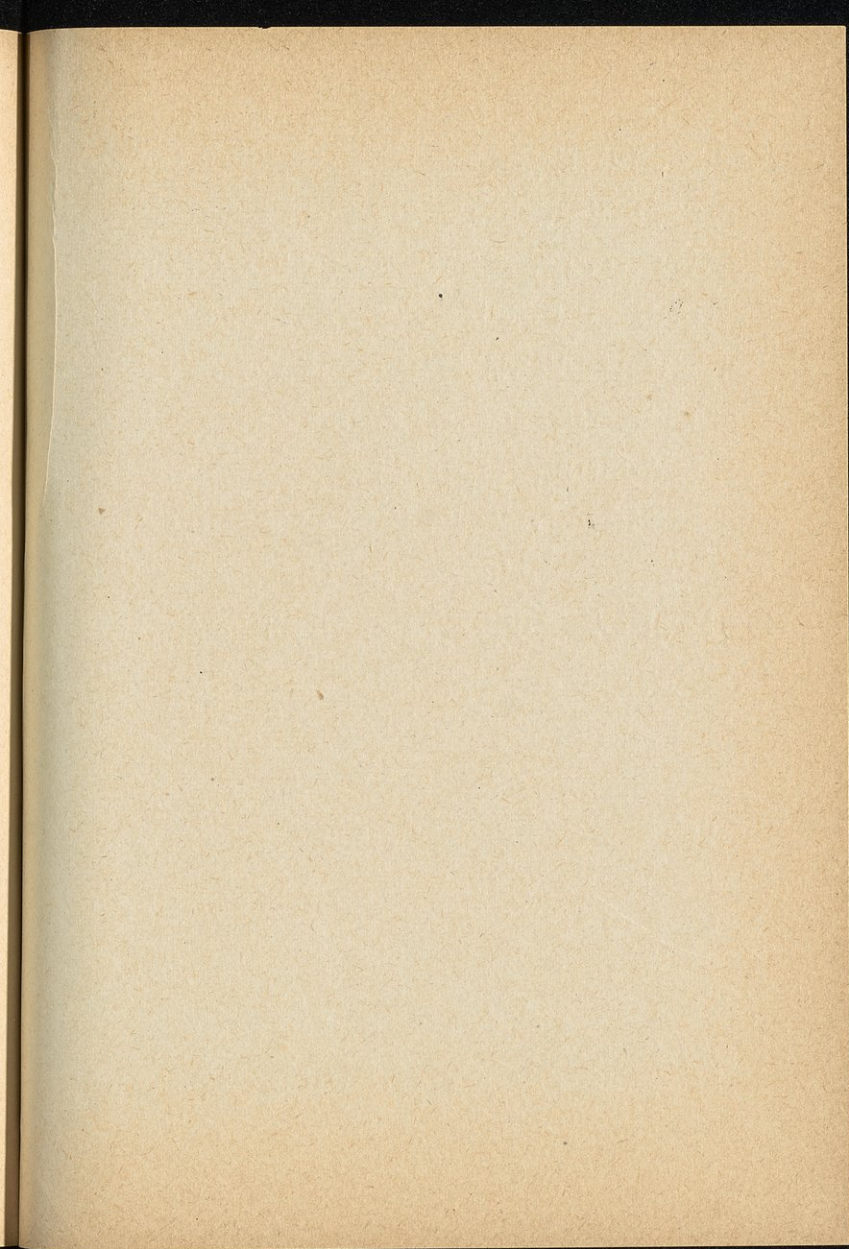
اخرى تنسب احيانا الى كيبيدو عنوانها: «صلف دومسوط
وسروال...»

ومن قصائد النقد الادبي: نشيد كليوبي في
«لاغلاطيه» و «سفرة البرناس» ولهذه صبغة خاصة
تتعلق بسيرة حياته مثل «رسالة الى ماتيو فاثكت» وبعض
قطع شعرية من «سفرة البرناس» تتبع في صيغتها
اسلوب «ثيسري كوبرالي».

ولئن استثنينا الان مسرحياته فتجدد بنا الاشارة
الى ان كثيرا من القصائد التي لم تمتد اليها يد الحدثان
تخلد ذكره كشاعر على مدى الازمان، واما هذه القصائد
فهي: اربع لدى وفاة زوجة فيليبي الثاني نشرت في مجموعة
مراثي ضونيا ايزابيل دي فالوا للمعلم لوبي دي هويوس
سنة 1589. منها مراثاة باسم الجامعة عدد فيها سرفانطيس
مآثر الكردينال اسبينوسا، وعدة قصائد اخرى موجهة
الى جمهرة من الكتاب بمناسبة نشر مؤلفاتهم (الراهب
بدرو دي باديا، لوبي ملدونادو، الونسو دي برو، خوان
روفو صاحب «لاوسترايدا»، لوبي دي فيغا في دراغوتا،
خوان يڠوي دي سالص في محبي ترويل» ملحمة ذات
مآسي سنة 1616، فرنثيسكو ديات في مبحث... كل امراض

الكلي ... سنة 1588) وثلاث سونيت اخرى الى ثلاثة رجال
 ذائعي الصيت (ضون دييغو دي مندوثا، ومرثاة لهرندو
 دي هرارا، ومديح للمركيس دي سنتا كروث) ونحسات
 مرفوعة الى سان خاسينتو شطر فيها مربعات قدمت الى
 مسابقة شعرية في سرقسطة، واغنية الى تأله الام تريسا
 دي خسوس بمناسبة تطويها قديسة، ومنظومة ذات
 موضوعات شتى موجهة الى الكوندي دي سلدانيا، وقصائد
 اخرى منها ما اكتشف حديثا مثل السونيت المرفوعة
 لبرتولوميو روفينو واثنى عشرة منظومة من ثمانية
 ابيات الى الشاعر الصقلي انطونيو فثيانو وكلاهما رفيق
 لسرفانطيس في الاسر بالجزائر.





الفصل الثالث

مسرحيات سرفانطيس

اظهر سرفانطيس دائماً ولعا بعيد المدى بالمسرحيات ويقول في ملحق البرنس انه الف عددا وافراً منها واخصها بالذكر اذ قال: «لو لم تكن لي لبدا لي انھا تستحق الثناء العاطر» ولما كان في اشبيلية سنة 1592 امضى عقداً مجحفاً بحقه مع متعهد المسرحيات رودريغو اوسوريو تكفل بتأليف ست مسرحيات على حسابه، وقد جاء في ذلك العقد: لئن برزت تلك المسرحيات على اخواتها الممثلة في اسبانيا، يدفع المتعهد للمؤلف خمسين دوكا عن كل واحدة وان كان الامر خلاف ذلك فلا يدفع له المتعهد شيئاً. والارجح - سواء نفذ العقد ام لا - ان من العشر المسرحيات المعروفة اليوم لسرفانطيس لم تؤلف واحدة لاوسوريو.

وكتب سرفانطيس سنة 1615 في مقدمة مسرحياته الثمان ومقدمة مسرحياته الثمان القصيرة (1) الصادرة عن مدريد في تلك السنة، معلناً ارتياحه عن نفسه كمؤلف

(1) مسرحيات تمثل بين فصلين من مسرحية عادية. وهذا النوع من

المسرحيات القصيرة مما يسمى بالاسبانية Entremeses

مسرحي كما يلي: «شهد الجمهور المدريدي تمثيل «معاملات
الجزائر» من تأليف «وتحطيم نوماثيا» و«المعركة البحرية»
حيث تجرأت وحولت المسرحيات الى ثلاثة فصول بدلا
من الخمسة التي كانت تتألف منها» ويمدح نفسه لكونه
اول من اخرج الى خشبة المسرح اشخاصاً رمزيين
ويفتخر بل يعتز لكونها مثلت: «دون ان ينهال على
مثليها الخيار او ما شاكل ذلك من الامور التي يرشق
بها. «مثلوا ادوارهم من غير صفيح وصراخ وجلبة» وتابع
حديثه فقال: «تركت القلم والمسرحيات فدخل الميدان
من بعد، غول الطبيعة، لوبى دي بيغا العظيم فخلق
بملكية المسرحيات واعلى» ... ثم اردف قوله هذا بعد
ان اهمل عدة روايات له مدة من الزمن بما يلي: «لقد
قال لى احد الوراقين انه كان مستعداً لشرائها لو ان
احد المتعهدين لم يقل له ان من ثري يمكن ان
ينتظر شىء اما من شعري فلا شىء... فضجرت وبعثها
للوراق المشار اليه، الذي تولى امر طبعها واطهارها باحالة
التي اقدمها لك..»

وكان سرفانطيس من مناصري الجمال المدرسى الا
ان منيندث بلايو يقول: انه في بعض المسرحيات التي

الفها وهو في دور الشيخوخة كالمسماة «دار الغيرة» حاول ولوج اسلوب لوبى دي بيغا واعتقد ان في تراكم حوادث الغيرة يتوصل الى المفعول الذي كان يحرز عليه هذا الاخير بفضل شاعريته الفذة وابتكاره ومعرفته للفن المسرحى معرفة بعيدة الغور.

طرق سرفانطيس الموضوعات المسرحية كلها وولجها من كل الابواب فاذا به في مسرحياته القصيرة يخلق مشاهد رائعة كلها حياة ونشاط لانها من صميم الحياة وحلتها الزاهية هي الوضعية، وقد اقتفى السبيل الذي اختطه لوبى دي رويداففى «السافل السعيد» ظهر اثر المسرحية الورعة او القديسة، وفي «السلطانة العظيمة» وحمائم الجزائر، والاسبانى المقدم، اثر مسرحية «المسلمين والنصارى» وفي «التسلية» اثر الماكرة، وفي «بدرو دي اوردمالاس» اثر قصة الشطار، وفي «لانومانسيا» اثر المقالة المسرحية وفي «دار الغيرة» اثر قصة الفرسان.

وجريا للخطة التى آثرنا اتباعها نورد هنا ملخصا لموضوع كل من مسرحيات سرفانطيس مع ما قاله النقاد فيه وفيها:

معاملات الجزائر-

مسرحية ذات اربعة فصول، لغتها شعرية وموضوعها بسيط للغاية: «حسناً نصرانية تقع اسيرة في قبضة سيد من اكابر المسلمين فيعلق بحبها ويكلف بها كلفاً شديداً بينما خطيب الاسيرة - وهو بدوره اسير - يلقي الامر من هيام سيدته به وهى مسامة غنية وذات ميول شهوانية وللتغلب على ارادة هذين العاشقين يقرر سيداهما اتخاذ كل منهما وسيطاً لدى الآخر، فبهذه الوسيلة يتم للعاشقين اللقاء بعيدين عن اعين الرقباء فيجددان عهدهما ويتوصلان الى حريتهما المنشودة».

ان هذه المسرحية لتمثل حياة الاسارى بما فيها من شقاء وتعاسة والخطط التى رسمت للتخلص من ذلك الجحيم وتتحدث عن الخيانات وعن سفالة اخلاق المارقين من دينهم وعن المؤامرات الداخلية واما عيوبها من الوجهة الادبية فتتلاشى امام اهميتها كوثيقة تاريخية.

ولقد قال كوثيرلو اى فيدور في كتابه القيم «مسرحيات سرفانتيس»، ان تلك الحياة المحفوفة بالاعطال والمصائب لتظهر بالواضحا في شكل مريع وتبدو لعين القاري صورها ومشاهدها المختلفة وقد اكتست من

الحقيقة ابرزاً دون ان تمس الحقيقة التاريخية، وينجم عن هذا صحة المشهد والامانة فيما يعود الى معاملة الاسارى ويمكن التأكيد بان الشقاء كان يرافقهم منذ كانت تطأ اقدمهم تلك السواحل المرعبة الى ان ترد اليهم الحرية المسلوبة، وتصف زيادة على ما تقدم بيعهم في الاسواق العمومية الخ.

واما الغاية التي كان ينشدها المؤلف من مسرحيته فتظهر من النظرة الاولى اليها: اثاره عواطف فيليبى الثانى لكى يتم العمل الذي كان شرع فيه والده العظيم ويضع حدا لاعمال القرصان بهدم وكرهم، واهاجه اريحية الجمهور لمساعدة الرهبان اللذين كانوا يسعون سعياً حثيثاً لانقاذ الاسارى وافتدائهم فلهذا يلج في تأسفه لوفاة ضون خوان دي اوستريا وفي وصفه وصفا مسهباً للمعاملة القاسية والعذاب والالام التي كان يعانها الاسارى، ثم شيوع المرق من الدين ويعيد على مسامع الجمهور نص الرسالة البليغة التي بعث بها الى الكاتب ماتيو فاشكت ولئن لم يفلح في مقصده الاول فقد جاء الثانى بما كان يرمي اليه واصاب الوتر الحساس من قلوب الناس فكم

من دموع جرت اثناً تمثيل هذه المسرحية التي تركت
في نفوس سامعيها اثراً لايمحى؟»

ولما كانت هذه المسرحية مؤلفة من اربعة فصول
يتضح انها من ثمار العهد الاول لسرفانطيس ولقد استنتج
كوتليرو من عدة نواح انها كتبت سنة 1580 وسرفانطيس
لايزال في الاسر. ونظرا لوفرة الصحة التي تتجلى
فيها وفي الطبائع الموصوفة، يسوغ دون ما شك ان يقال
عن اشخاصها بانهم اشخاص تاريخيون وهذا مما ينطبق
على اكثريتهم ومن بينهم المؤلف اذ ان منهم من يحمل
اسم سافيدرا، وبقطع النظر عن هذا، ففي المسرحية
بعض اشخاص رمزيين مثل «الفرصة والحاجة» اللتين
تتحالفان وهما غير منظورتين للتغلب على حزم الاسير
النصراني في احدى المشاهد التي تشهد بالعبقرية والبراعة،
ولقد اطرى على هذا المشهد النقاد الالماني كلين الذي
يعتبر ان سرفانطيس انما هو المبشر بالابداع الرمزي
الفائق الذي اتصف به كلديرون وحتى لهو المبشر
بطيفيات ومروعات شكسبير.

حمائم الجزائر:-

وكذلك هذه الرواية تمثل عدة مشاهد من حياة

الاسارى، وتحدث عن الالعاب والرقص والتمثيلات التي كان يتسلى بها الاسارى النصرى في اعياد معينة واما بعض حوادثها فقد اخذت عن «لاسيلفا» مؤلف «ليدروماشيا»، وفقا لما لاحظته داماسو الونصو. وتشير رواية «الضابط الاسير» المدرجة في الكيخوطي الى حوادث من هذا الطراز، ويصح الالمام الى ان روايات سرفانطيس الثلاث: معاملات الجزائر وحمامات الجزائر والضابط الاسير متماسكة تماسكا متبادلا وثيقا، مرتبطة بعضها ببعض السلطنة العظيمة:

مسرحية تدور عقدها حول حسناً مالقية بيعت رقيقا بعد ان اسرها القرصان في سفرها الى وهران، وتوصلت الى استهوا قلب سلطان استنبول وبفضل علو همتها وفلاحها وايمانها الراسخ وحنوها وعطفها لاقى الاسارى خيرا جزيلا.

ان النقاد الذين حاولوا البحث عن اسس الحادث التي تركز عليها المسرحية لم يتحفونا بما يزيد على ما جاء في الموشح الذي ادرجه سرفانطيس في الفصل الثالث من مسرحيته. والحادث على ما يظهر تاريخي الامر الذي يؤكد سرفانطيس في عدة مقاطع من المسرحية

كما اشار اليه المؤرخون بوضوح وجلاء لايقبلان الرد.
 «ومن جهة اخرى يقول كوتليرلو اي فيادور ان قضية
 زواج الاوربيات من عرب واتراك تتضح في كل حين
 وان ازواجهن يلزمونهن على المروق من دينهن، واعتناق
 الديانة المحمدية ولذا يشير سرفانطيس بالحاح الى تساهل
 السلطان التركي بمسألة دين زوجته».

ويظهر من تركيب المسرحية انها من المسرحيات
 التي تنتمي الى المرحلة الاخيرة من نشاط المؤلف المسرحي
 وفي الموشح المذكور يقع التلميح الى سنة 1600 كشيء
 قد مضى وعلاوة على هذا لدى الكلام عن سفير العجم
 يقول في احدى المقطوعات: «يدخل سفير بلباس الذين
 يمرون من هنا...» وفي الواقع سنة 1601 دخل رسميا
 الى بلد الوليد مبعوثو شاه العجم. وتدل تلك المقطوعة
 على ان سرفانطيس كان في ذلك الحين في بلد الوليد
 حيث الف المسرحية التي هي موضوع حديثنا

اما من الوجهة الفنية فالسلطانة العظيمة تعد من
 افضل مسرحيات سرفانطيس من حيث الشاعرية ووصف
 الطبائع، ويراعي المؤلف وحدتي العقدة والمكان الا انه
 لايراعي وحدة الزمان ويقول الناقد المذكور «ان الفصول

موزعة توزيعا حسنا وكلها تنتهي في نقاط تشير الاهتمام والتشوق، وكلها ذات مادة جوهرية تتحلّى وتنفّذ بالوحدات الصغيرة داخل نطاق الوحدة الكبرى التي تسيّرهما إليها وتجعل العقد تدور حولها،

«ومن اكبر عيوب الرواية غياب سرعة المحاورّة التي كثيرا ما تجعل من المحاورين منشدي اشعار وصفية غنائية وينجم عن هذا ان الاشخاص يستنزفون بافراط الافكار ويعرضونها عرضا لايبقي على شيء من اشكالها والوانها. بدرو دي اوردمالس:-

لهذه المسرحية من حيث العقدة علاقة باحدى المسرحيات القصيرة: «انتخاب رؤساء بلدية داغنها» وبالقصة المثلى «لاختيانيا». وبطل المسرحية رجل خبيث متهتك ورغما عن انه لم يكن مجرما كان يعايش عشيرة من العجر حبا بمعشوقته ويتدرب في حيلهم وخداعهم. السافل السعيد:-

مسرحية عن حياة القديسين ذات فصول ثلاثة يرجح ان سرفانطيس الفها في اشبيلية بعد سنة 1596 وقت ظهور التاريخ الذي كان له معينا، وقد يكون تم تأليفها في السنوات الاخيرة من حياة الكاتب، عند ما كانت

الفكرة الدينية تقلق راحته وتقض عليه مضجعه، ويتضح ذلك من خلو شكلها من اي عيب كان، ومن الروح الدينية وصبغتها المسيحية المحضة، ولاريب في ان سرفانطيس استلهم هذه المسرحية من العبرة المثلثي المستقاة من وفاة الدومنيكي الاشبيلي، الراهب كريستوبل دي لاكروث، بطل الف عمل طائش في حياته من ميزات السفلة، واما حياة كريستوبل دي لوغو - وهذا هو الاسم الذي كان يعرف به في حوادثه - فكانت تروى في مسقط رأسه كما لو كانت خرافة من الخرافات. ولو كان من المحتمل ان يكون سرفانطيس قد سمع بتهتكاته واعماله القدسية فيحتمل كذلك ان يكون قد اطلع على هذه وتلك في تاريخ تاسيس ونمو مقاطعة القديس يعقوب في المكسيك للراهب اغوسطين دافىلا اى باديا، المطبوع سنة 1596. ولاريب في ان سرفانطيس نقل الى المسرح ببراعة فريدة ومهارة فنية حميدة سيرة هذا الدومنيكي الاشبيلي الكثيرة المنعرجات، ولكن لما لم يكن من السهل حصر حوادث شتى لحياة معقدة وعرة في ثلاثة فصول، اضطر الى تحوير مجرى التاريخ نوعا فاضاف حوادث جرت في طليطلة الى حوادث وقعت في اشبيلية

واذا به يفتح ابواب دير المكسيك لحادث تمر في وقت قصير في حال كون وقوعها يستلزم وقتا طويلا. ولاحظ كوتليرو اي فيادور انه: «بدافع الموضوع رأى سرفانطيس نفسه مقيدا فاضطر في هذه المسرحية الى مخالفة المبادئ المسرحية التي يبشر بها في الكيخوطي» اكثر من مخالفته لها في غيرها من المسرحيات وخصوصا فيما يتعلق بالوحدة المكانية ولكي يبرر موقفه كتب في بداية الفصل الثاني تلك المحاورة بين المسرحية والفضولية حيث حاول ان يتجنب مثل هذه الملاحظات على قدر استطاعته».

ويواصل الناقد ملاحظاته فيقول: «في بداية الامر يظهر كريستوبل متهوراً على طريقته ودرجة تهتكه واجرامه ادنى بكثير مما يعتقد هو نفسه ويلتف حوله اشخاص من كل فج ومن كل طراز وضرب صورتهم يد ماهرة في جميع حالاتهم ونفذت اليهم عين حاذقة لترب ميزاتهم الفنية الامر الذي ما برع فيه احد مثل سرفانطيس. اما الفصل الاول فاقل ما يقال فيه انه شريط سينمائي فائق يستعرض مجتمع اشبيلية استعراضا تختلج فيه الحياة» وتسير في ركابه اشبيلية العصر السادس عشر

بما فيها من اناس وعادات ولهجات ونقائص وجرائم.
 لوحة اتخذت من يد الطبيعة ولا شأن للخبث السنوري
 فيها. وقد قال احدهم في دراسته لضون خوان تنوريو
 ان سرفانطيس هو مبتدع هذه الشخصية المسرحية
 الخالدة ولا ح له انه انتزعها قبل تيرسو دي مولينا من
 قلب البيئة الاشبيلية، ورغم وجود وجهة شبه كبيرة
 بين الشخصيتين في الفصل الاول فسرعان ما يبدو
 الفرق جليا اذ ان كريستوبل ما شعر قط بميل نحو
 النساء ولم يكن للحب في مجرى حياته ادنى تأثير.

وقد حمله في أحد الايام يأسه وضيق ذات يده الى
 المراهنة على كتاب ديني وقطع على نفسه عهدا انه ان خسر
 يلتحق بعصابة قطاع الطرق الا ان الفتى لما ربح فكر
 في هول النذر وللتكفير عن ذنبه قرر ان يترهب. وفي
 الفصل الثاني يشهد التبديل العميق الذي طرأ على
 نفس كريستوبل دي لوغو الذي اصبح يعرف باسم
 الراهب كريستوبل دي لاكروث وبصحبه رفيقه الوفى
 لاغرتيخا الذي يترهب ايضا باسم انطونيو، وتتجلى القداسة
 وروح التضحية في الدومنيكى عند ما كانت
 تنازع سكرات الموت ضونيا أنه دي ثريفانيو التى نظراً

لفداحة خطاياها قطعت الامل من خلاص نفسها ورفضت الاسعافات الروحية التي اعتبرتها غير كافية، فهرع اقاربها الى الدومنيكيين في طلب النجدة فارسل رئيس الدير الراهب كريستوبل لاقناع الخاطئة ومن اجل ذلك تضرع الى الله ان يحمله تضحية تعجز عن مثلها القوى البشرية، ان يلقي على نفسه تبعة خطايا المحتضرة على شريطة ان تعترف وتتوب. وفي الفصل الثالث يسقط هذا القديس ضحية لافطع مرض، فيصاب بالبرص، واما حياته التي امتدت ثمانى سنوات في حالة المرض المريع فقد اقتصررت على المعركة الهائلة التي اوقدت نيرانها على المسرح القوات الجهنمية ضد الثبات والايمان للذين ما كان ليتزعزعا في خدمة الله اذ انه كان قد خلع عليه نعمته السموية.

وقال ثيخادرو: «ان السافل السعيد هي في الاساس مأساة (دراما) تاريخية ومن احسن المسرحيات التي ألقت في اللغة الاسبانية اذ انها تخوض في ناحيتين من الحياة الاسبانية التهتك والزهد ولم يتوقف احد وحتى سرفانطيس نفسه الى خلق مشهد سام من هذا الطراز الخلاعي مثل الذي تقدمه لنا المرحلة الاولى لحياة لوبى»

او مثل الانموذج الورعى الطاهر الذي اختمر فتجمد في الحياة الدينية التقوية فاذا به كاحد القديسين المشهود لهم بالفضل، وقد امتزج في حياته الاقدام وهو صفة للبطل بالفكاهة التى انما كانت تتطير من الرفيق، قطلع علينا بصفاء الخاطر وانتقاد الذكاء والمرح، وهذه الصفة الاخيرة انما هى من ميزات زهادنا وقديسينا كما يجهلها اللذين يحاولون التحدث عنها دون سابق اطلاع،

وقد اكد كوتاريلو: «ان في المسرح اللاهوتى الرحب الذى يمتد من السماء حتى الجحيم خاض المؤلف وتعرض لدرس ثلاثة اسرار كبرى عميقة الغور من اسرار العقيدة الكاثوليكية: النعمة والكمال النفسانى والمحبة وهى التى كانت تهم المؤمن في القرن السادس عشر وتشغل الضمائر الى ابعد حد، وما ضر كون هذه المسرحية قد قدت من صمم الحياة ولو كانت معقدة فهذا لا يعد عقبة كأداء في وجه عبقرية سرفانطيس الذي نشر من درر منه على حادثة تاريخية جافة ما اكسبها روحا ادبية وبلاغة عذبة المنهل»

ومن ميزات هذه المسرحية البارزة، الرشاقة والمهارة

ثم براعة سرفانطيس في قرض الشعر اذ تظهر البحور التي نظم عليها مصقولة الابيات صقلا، منحوتة القوافي نحتا. نومانسيا:-

مسرحية ذات اربعة فصول واهم مسرحيات سرفانطيس على الاطلاق، نقدها كوتاريلو بقوله: ينبغي ان تحطم قوالب الجمال المسرحي لكي تقرأ بلذة هذه المنتوجة التي ليست بمسرحية هزلية ولا بمأساة (دراما) بالمعنى المتعارف وقيوده، ولعلها شيء يفوق ذلك شيء يقوم بين النوع الفروسي والمأساة، فلقد خلق سرفانطيس باجنحة عبقريته الى سماء الرمزية وساعدته مساعدة جبارة على الوصول اليها اطياف اسبانيا المظلمة فنهر دويرو، فالحرب، فالمجاعة، فالمرض ثم السمعة. وتمثل شيئاً يفوق مغزى ومعنى بطولة شعب أبي، تمثل اضطهادات وشقاء الوطن وقد سطع عليها شعاع ابتسامة الامل في طيات قرون المجد الغابرة التي ما نصب معينها وما وقف عرقها عن النبض كما هو حال مرارة ذلك الحين، موضوع المسرحية موضوع حر طليق: الاستقلال الوطني، البطل الحقيقي.

نومانسيا، البلدة الشجاعة تمثل اسبانيا ونفس

اشخاص المسرحية ليسوا غير مجردات وضعوا هنالك لدعم
المفعولية.. ويلوح ان هذه المسرحية الجبارة تثير العجب
من حيث الفكرة لا من حيث الاخراج رغم الجودة
لأنها تبشر بانبلاج صبح جديد للمسرح مفعم بروح الانطلاق
فسيح الارجاء غزير المادة التي لم تعد تقتصر على التمسك
بعصب تقليد حقيقة الحياة العارية للتحليق بها الى
اجواء الشعر، بل هي ظاهرة مباشرة لعوالي الافكار
سخرت لها كل الفنون عن طريق الافصاح المحلل..

ولم يكن النقاد الاجانب اقل مبالاة في المديح لدى
التحدث عن مسرح سرفانطيس وعلى رأسهم اتباع مدرسة
استلجل الرومنسية.

ونظرا لفخامة هذا الموضوع الخليق بان يكون
موضوع ملحمة، تعد مجازفة خطيرة محاولة تطبيق شروط
«الدراما» عليه ولهذا يقول اسثاك: «ينبغي ان لا تنتقد
المؤلف لكونه تعرض تعرضا عاما للصفات ولانه اضعف
من قوة العقدة في غير ما موقف دون وجود رابطة ما خلا
العلاقة التي تربط مباشرة او غير مباشرة تلك المواقف
بمصير نومانسيا»

ولا يقل وجهة رأي شلي في مسرحية سرفانطيس

هذه اذ قال: «لقد قرأتها وبعد ان خامرني الشك نظرا لبساطة وسذاجة الفصل الاول، اخذت اشعر بالراحة والاطمئنان يدبان الى قلبي بشكل غريب واخيرا اصبحت ذا شغف قوي اذ ان براعة الكاتب الذي قلما يجاريه احد في طرق ابواب اثاره العواطف وانما الاعجاب خلقت في ذلك الاهتمام البعيد الغور، واعترف ان في هذه المسرحية شيئا نزيها مما يمكن ان يوصف بالشعر، غير ان التسلط على مقدرات اللغة وحسن انسجام القريض يحلقان الى درجة تحمل بسهولة ايا كان على الاعتقاد انه ازاؤ مؤلف شعري».

وليست آراء غوت وسيسموندي وتريكنور دون آراء الاولين مقاما بل ان الاخير من هؤلاء الثلاثة قد اكد: «ان نومانسيا مسرحية سرفانطيس تحتل مركزا اعلى بكثير من الذي يتربع فيه «فوستو» لصاحبه مارلو».

وفي سنة 1809 عند ما ضربت القوات الفرنسية الحصار على مدينة سرقسطة امر الجنرال بلافوكس حاميهما باصالة رأي ان تمثل مسرحية نومانسيا داخل الاسوار فتمكن اسبان القرن التاسع عشر من التطلع الى تفاني اسلافهم اللذين عرفوا ان يتجرعوا كؤوس الحمام من

اجل الحرية، فساد الحماس خلال التمثيل ودبت الحمية
الوطنية في رؤوس المدافعية فخرجوا لمنازلة قواد اكبر
رجل حربى عرفته تلك الايام فهزموهم، وكان الفضل
في انتصارهم يعود الى اشعار سرفانطيس.

نقلت هذه المسرحية الى الانكليزية ثم نفس المترجم
تولى امر نقلها الى الالمانية.

وتقع هذه المسرحية في اربعة فصول على غرار
سائر المسرحيات التى انجلها سرفانطيس في المرحلة
الاولى من نشاطه المسرحى.



المسرحيات القصيرة

اضعف هذه المسرحيات «قاضي الطلاق» واما التي تحمل اسم «انتخاب رؤساء بلدية داغثا» فهي سخرية ماهرة موجهة الى الراغبين في حمل عصا السلطة، ومسرحية «السافل الارمل المسمى طرمباغوس» تضع حلا لمشكلة خطيرة هي ان يختار البطل صديقة من بين الكثيرات المرشحات الى مثل هذا المنصب ووجهة الشبه بينها وبين «الرنكونتى اى كورتديو» قرية. واما «قصص الاعاجيب» فلاريب انه اوحثها له قصة للكوندي لوكانور وهى تدور حول اناس رعاع كانوا يصنعون اقمشة سحرية بواسطتها يرون اشياء عجيبة ويقتصر هذا فقط على الابناء الشرعيين للزوجين دون غيرهم. ومن ابرز الصفات التى لاتجارى وصف اخلاق شخصين: شنفايا وتشيرينو، و«الشيخ الغيور» تذكرنا بشخصية كريثالس في المسرحية المسماة «الاسترامنى الغيور» والتى يمكن ان يكون منبعها قصة شعبية قديمة واما «الفسكاينو المموه» فقيمتها ضئلى، و«الحارس الامين» تدور حول منافسة غرامية بين وافته وجندي، وكثيرا ما يعرض على المسرح الاسبانى مثل هذا النزاع،

وقد نسبت الى سرفانطيس المسرحية الصغيرة المسماة «المتشدقون» التي ظهرت لأول مرة في الجزء السابع لمسرحيات لوبى دي بيغا سنة 1617 الا ان هذا صرح بانها ليست من مؤلفاته ولهذا منذ ذلك الحين ما برحت تعتبر من مؤلفات سرفانطيس، ويقوم موضوعها على ان احدهم اراد ان يهذب زوجته الشرثارة فجاءها برجل يفوقها ثرثرة علها تنتبه الى نقصها فتصلح نفسها.

ان في مسرحيات سرفانطيس لروحا قوية وجرأة على العموم في السكب، تحليلها مشاهد نوعية كلها حياة يكثر فيها المعزى وتسود نفسية البيئة التهتكية وعالم النور اللذان نقلا الى المسرح في مؤلفات قصيرة ميزاتها العجيبة الصدق والمعنى العميق، ففيها يظهر السبر النفساني في اوسع ادواره كظهوره في خيرة روايات سرفانطيس الموفقة، ويجري فيها العصير الشعبي الساذج دون ما تكلف او اضافات غريبة واللهجة طبيعية وسهلة دون ان تفقد شيئا من مرارتها فتبدو كأنها جاءت من تلقاء نفسها. فسر فانطيس في مسرحياته القصيرة يشكل الرابطة الوثيقة بين «الخطوات» للوبى دي رويدا والمؤلفات الخالدة لكنيونس دي فنافتي التي انما تعد كندير لمرنمات ضون رامون دي لاكروث.

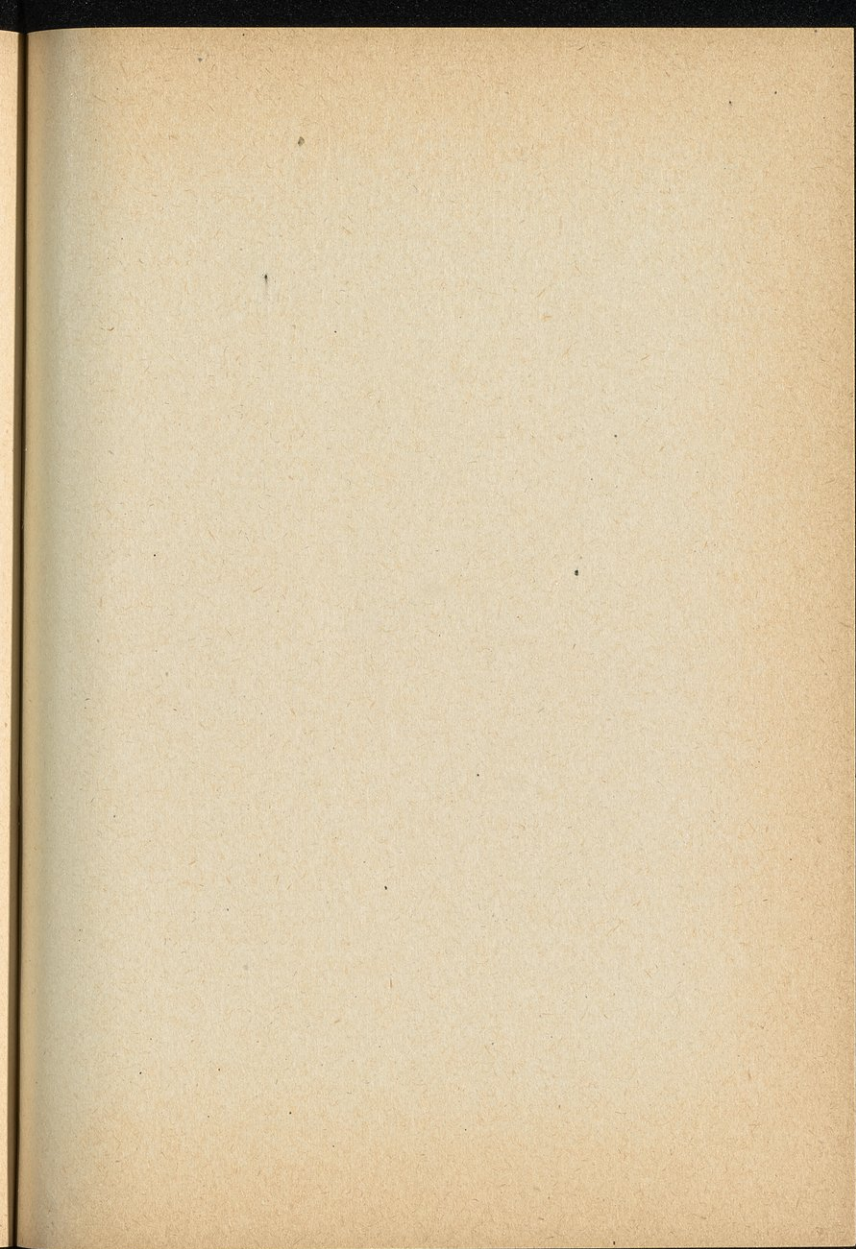
المؤلفات المنسوبة الى سرفانطيس

لقد فكر كثير من فطاحل الكتاب مثل هرنندث
غيرا واسنسيو وضون ادولفو دي كسترو في ان ينسبوا
طائفة من المؤلفات جلها مسرحية الى سرفانطيس ومن
جملتها: رسالة ثرية الى ضون ديبغو دي استوديو كريو
تحدث عن عيد القديس خوان الفرتشي، ومسرحية
هزلية اسمها: ملك كوادلوبى العذراء، اعاد طبعها الطباعون
الاندلسيون والمسرحية القصيرة المسماة «سجن اشبيلية»
يحتمل ان تكون للمتخرج تشافس، ومستشفى المعلولين
والسفال والمتطلعون والموشحات وضونيا خوستينا
وكلاهورا.

وجلما يمكن ان يقال في هذه النسبة انها غير
ثابتة اذ ان الكتاب المذكورين انفا استندوا في
احتمالاتهم هذه الى عبارات لسرفانطيس جاء فيها ان
بعض مؤلفاته القصيرة يتداولها الجمهور خالية من اسم

صاحبها. وقد جاء في الرسالة التي وجهها الى الكوندي
دي لوموس مقدماً له مؤلفه المسمى «البرسيلس» على
ذكر ثلاثة من مؤلفاته: اسابيع الحديقة، وبرنردو
الشعير، والجزء الثاني من «لاغالاتيه» التي لم تعرف
بل لم تكتب.





الفصل الرابع

ضون كيخوطى

ختم احد مشاهير النقاد الذي ذوى غصنه في حين
كان ينتظر الشيء الجليل من اعماله واقتطف الاثمار
اليانعة من اشغاله، بحثه عن اكبر ممثل فرنسي كوكلان
الخالد بهذه العبارات لنفس الممثل المذكور: «لنتصور
يوما كيوم الحشر دعيت فيه كل من السلالات البشرية
لتقديم المؤلف الذي تتجلى فيه دون ما شائبة اخلاقها
لتنال مركزاً في السماء حسب استحقاقاتها ومؤهلاتها
فعلى ما اعتقد تقدم المانيا فاوستو، وانكلترا هملت،
واسبانيا ضون كيخوطي، وايطاليا لاديفينا كوميديا، واخيرا
تتقدم فرنسا بتواضع وعلى شفيتها قد ارتسمت ابتسامتها
الوضاءة السليمة لتلقي بدورها ايضا مؤلفها - فيسأل
العلي، ماهذا؟ - يا سيد الاسياد هذا طرطيف - حسن
أجلس عن يميني».

لكن رغم وفرة الاطراء الذي وجه الى المسرحي الفرنسي
الشهير فالتقريظات التي استحقها مؤلف الكيخوطي
تفوقها بمراحل، وعلينا ان نوكد بان سرفانطيس يعد
بفضل كتابه الخالد، احد العظام الثلاثة الذين عرفهم

العالم، وجلهم وعجب بنبوغهم وهو احد الثلاثة الذين لم تمسهم يد الحدثان بسوء بل زادتهم رفعة وسناء وكلما مرت الايام علت قيمتهم وجل مقامهم وانه انتزع مع هوميرو وشكسبير كل ما دفن في صدر الفن الرحب: من نثر وشعر ومسرح.

ان ضرير ازмир الذي تبدو وجهة الشبه بينه وبين سرفانطيس وثيقة العرى من حيث آلام الفاقة والاهمال والعيش في الظلمات والموت في الظلمات اكتسح سبيل الخلود لانه كتب وصور اعمالا خارقة العادة لالهة وابطال، والمسرحي الانكليزي الذائع الصيت لانه حدثنا عن لوايح امير وعن غيرة قائد اسطول البندقية وعن شقاء صبين، الا انه في مؤلفاته قد طرق امورا من ابعد ما يتصوره العقل كان يعمد البطل في الفصل الاول ويموت وهو شيخ في الاخير حيث يظهر الحفارون وقد جدوا في نبش الحفرة وهم ينشدون ويشربون، وغير ذلك من المشاهد التي تنم عن وضعية مجردة تقشعر لها الابدان، مما يظن انها لزعماء المدرسة العصرية ورغم كل هذه العيوب فقد كتب لادبه البقاء شامخ الجذع كارزة سنخها متأصل في أعماق التربة تتحدى عوادي الايام بصلابتها ومناعتها وقوتها.

واما سرفانطيس فغو الوحيد الذي جاءنا باشخاص
عاديين، لقد حدثنا عن مغامرات مجنون وعن كياسة
رجل مسكين قليل ملح الجمجمة - على حد التعبير
الاسباني - فعلى هذا يقوم المؤلف الذي شبهه أرفين
بالتوراة من حيث الامور الدنيوية، وقال هولند ان
لهذا الكتاب المركز الاول بين روايات العالم، وقال بيدرمان
بانه يجل من ان يناله النقد بطائلة، وقال اللورد بيرون:
لدى لذة قراءة الكيخوطي في لغته تضمحل باقي اللذات،
ويرى فان ايفن ان في هذه المنتوجة افضل درس لصقل
الخيال وتربية القوي العقلية، ويعتبرها امباري اعظم
صورة شكلية تمكنت من خلقها العبقرية البشرية، ويشير
فياردوت الى الكفاح بين المثلية والوضعية، ويؤكد
ريوس ان المؤلف انما هو تقليد الاليادة، ويرجح بسطوس
انه عثر فيه على درس لتاريخ القرون الوسطى، ويرى
«هرندث مورخون اي بي اي موليست» انه درس الامراض
العقلية، وبوتش بلانك انه تقريع بالاضطهاد الديني، وديث
دي بنخوميا انه يكاد يكون بحثا عن الفلسفة الالمانية،
وهو مؤلف يسجله الجغرافي ويعلق عليه البحري ويتبحر
فيه العالم بالخفايا ويدرسه الاديب.

ولما كان يتسع متنه لحطة رحبة ويفتح دفتيه لكل ما يتعلق به، أصبح من الضروري للتوصل الى معرفته معرفة حققة ان نقسم دراسته الى موضوعات شبه مستقلة بل مستقلة تمام الاستقلال ولهذا سنتحدث: اولا عن ظهور الكيخوطي في الوقت الذي كانت قد جنحت الى الغروب شمس رواية الفروسية. ثانيا: نجاح كتاب سرفانطيس، شيوعه في اسبانيا وفي الخارج، قضية جس النبض، بعض النظريات التي زعم اكتشافها في الكيخوطي ثالثا: اهم الشروح، المترجمون، صور الكيخوطي الفنية. رابعا: موضوع الكيخوطي. خامسا: اشخاصه. سادسا: روايتا الكيخوطي: الفضولي الممل والاسير. سابعا: تقليدات الكيخوطي. ثامنا: ضون كيخوطي في المسرح. تاسعا: الصحافة وضون كيخوطي. عاشرا: الكيخوطي والنقد الوطني والاجنبي.

- I -

ظهور الكيخوطى

وقت جنوح شمس رواية الفروسية

الى الغروب

أكد احد مشاهير الكتاب ان اسبانيا، في غضون
العصر السادس عشر، كانت تجري في اثر ما هو خارق:
«كان قصاصوها يروون ما هو بعيد كل البعد عن
الحقيقة بل المستحيل بعينه الا ان الفوران الوطني
والكبرياء وليدة الاعمال الخارقة، كانا يخلعا عليها
ثوب الامر الطبيعي الممكن ان يأتيه الفارس المغوار،
وما كانت لتقدر الاستحقاقات الادبية فذا كان يجتهد
الكاتب في سرد الحوادث الخارقة للعادة، وكانت الحياة
الاجتماعية الاسبانية تسير في سبل لاتقل وعورة وما كانت
سياستها اقل طموحا ولا النظام الاجتماعي والاقتصادي
ابعد عن ميادين الوهم وكان هذا الاتصال الوثيق
العرى القائم بين الادب والنظام الاجتماعي يقاوم بنجاح
نفوذ المنددين والوعاظ الى ان اقبلت ايام فيلبى الثاني

والثالث المؤلّة، فـشعر آتئذ الكل بالخذاع واتيحت
لسرفانطيس الفرصة لنشر الكيخوطي، هذا ما قاله
فرنسيسكو كـنـاليـخـس فاذا بهذا الاستاذ الكبير لا ينطق
بغير الصواب. ان الادب الفروسي الذي يزعم احدهم انه
جاء من الشرق الاقصى وبزعم الاخرين هو وليد اوربا
كان ضروريا لاذكاء نار الحمية في النفوس في الوقت
الذي اندلعت فيه نيران الحروب بين الديانتين
المسيحية والمحمدية.

كانت الحوادث الحارقة للطبيعة تثير عواطف الشعب
الذي كان يميل ميلا جنونيا نحو ابطاله فلذا كان
من الواجب خلق امر عجيب يجعل من البطل رجلا
من طينة فوق طينة سائر الرجال فلم يكن هذا سوى
تسمة او بالاصح نسخة عن حروب ابطال اليونان وتروادة
التي تغنى بها الشاعر الخالد.

ففي اواسط القرن السادس عشر استحوذت
الاتنتاجات الفروسية على التراب الاسباني غير انها في
نفس الوقت احطت من الهدف السامي الخالص الذي
كانت تتجلى به قصة الفروسية الاسبانية الاولى عن
اماديس دي غولا الشهير، ولاشك انه كان في الحرب المقدسة

للاستيلاء على القدس للشعراء المتجولين وجود
وكان هؤلاء يطوفون على المعسكرات فيقصون اعمال
ابطال وهميين حملتهم شجاعتهم العديمة النظير على الاتيان
بأكبر ما يتصور العقل من الخوارق.

ومما لا ريب فيه انه في نفس القرن الخامس عشر
اثناء الحرب التي مر على هبوبها في اسبانيا ثمانية قرون
كان اولئك الذين يضربون الحصار على غرناطة ليحملوا
ابا عبد الله على تسليم آخر معقل باق تحت سيطرة
احفاد طارق وموسى، لا يجهلون روايات اماديس وفلوريس
وبرطينوبلس وغيرهم من ابطال الفروسية.

وعند ما انتهت الحرب الضروس التي اضرمت
نارها في استوريا، قيص لروح الفروسية احد الكتاب
فارفع به الى الدرجة المثلى وسكب في قالب جديد
اعمال الدونتشل دلمار وآنئذ ظهر الحاكم غرسي
- رودريغث دي مونظلفو بمؤلفه «أماديس» محوراً
اذ جعل منه رمزا لروح الفروسية وهكذا جاء اماديس
دي غولا رمزا للفرسان العاشقين وللمدافعين عن
الايمان العيسوي.

وكان على المرء في ذلك العهد ان يختار بين الطرق الثلاث:

الكنيسة، او البحر، او القصر الملكي. ففي الدير حياة هادئة مريحة الا انه تقوم الى جانبها التضحيات: الصيام المتواتر والحمية. والبحر يوازي ما يسمى حياة الكفاح في اميركا او خوض غمار الحروب الدائرة رحاها مع تركيا، والقصر الملكي، وان كان هو العيش في الحاشية فقد تكتنفه البطالة القتالة، فما هي الاهداف المثلى التى كان يحلم بها الشعب الاسباني؟ الفروسية وهى الشرف، هدف علوي وهو الحب، وهدف ديني عاطفي وهو الايمان. ونزال الابطال كان للدفاع عن الشرف والحب والحروب مع المسلمين لرفع كلمة الايمان والعزة في سبيل الملك والدين والسيدة. وكان المتأنقون يتجشمون المركب الحشن ويخوضون اقصى المعارك، وكان الفرسان يطيعون اوامر اسيادهم طاعة عمياء مهما انطوت عليه من اجحاف واستبداد، يتركون اشغالهم الخاصة ويهجرون متاعهم في سبيل الدفاع عن اراضى ملوكهم. والمطلع على حروب الاسترداد يقف على الكثير من مجازفاتهم ويقدر روح الفروسية الوثابة التى كانت تسيطر عليهم.

ولقد قال اشوارتز ان هذا العصر لشهير من وجوه عديدة، وهو عصر فيه تمت وعمت اهم الاختراعات

والاكتشافات: الورق، البارود، الابرة المغنطيسية، والمطبعة وفيه يكتشف الجنوى العظيم عالما جديدا وتتبدل مبادئ سياسة الملوك والشعوب، في هذا العصر يثور العقل على الايمان وتحدث حركات ادبية وفنية من ابهى الحركات وكل هذا ليس ليقوى على تغيير وجهة الافكار فحسب بل - بالعكس - اذكى النفوس وزاد في تعطشها الى المجازفات وحب الثروات والرغبة الجامحة في القيادة والامر والنهي وهو الشئ الذي يمتاز به رجال هذا الزمن». وكان محقا هذا المؤرخ الشهير في قوله فقصص اعمال ارتوس الذائعة الصيت وافعال فرسان المائدة المستديرة وحب لانتاروتى وخينبرا وتريسطان وايسولدا كانت كلها امورا معروفة حق المعرفة واما افعال اماديس وبلمارين الخارقة العادة فكان يعلق عليها وتروى بشكل لا يصح معه ان يقال انها غير واقعية وكان يعتقد بها كما لو كانت كذلك واما الكتب التى كانت تحمل في بطونها هذه الاقوال فكادت تكون الغذاء الادبى الوحيد للشعب الاسبانى في غضون القرن السادس عشر.

ولما رأى الكتاب تهافت الجمهور على حوانيت الوراقين واختطاف روايات المشائين الذائعي الصيت فكروا في

ان يواصلوا القص والنسج على غرارها واستخدام سير
اولاد اولئك واحفادهم وكلما كانت تظهر الطبقات من
جديد كانت تطلع معها اعمال جديدة، وفتحت الخوارق
مجالا واسعا وحقلا خصبا امام المؤلفين المحمومي الافكار
الوهمية للكتابة ووصف اعمال لامت الى الحقيقة بصلة،
وقد احرز على قصب السبق في هذا المضمار فليسيانو
دي سلفا. وحدث هذا الطراز من الادب في اسبانيا
افتنا اكثر منه في فرنسا وايطاليا، واجتازت المشاهد
الوهمية التي تتحدث عن الاسد الطائر والجنيات والمردة
والاقزام والاوانس المغبونات والفرسان الكرام اعتبار
القصور والاكواخ على حد سواء وفرضت ارادتها على
كل من الطيقتين المثقفة والجاهلة، واعتقد الشعب المتكاسل
الذي ما شعر قط بميل نحو الفلاحة والزراعة معين
الثروة، اعتقادا راسخ البنیان، بكل ما رواه عليه اولئك
الكتاب المنجلين لمثل تلك الخرافات التي رأى فيها
- وفيها وحدها - مستقبلا زاهرا يغنيه عن سواها، ولما
كان يظهر من حين لآخر في تلك الكتب ان الاوانس
كن يرتمين في احضان العاشقين، حدا هذا بمسيري
دقة امور ذلك الزمن وارباب الشرع والفلاسفة لان

يرفعوا اصواتهم ضد طغيان تلك المنتوجات المملوءة بالثرهات ولكن كيف يكتب لدعواهم النجاح وامبراطور ككرلوس الخامس يتسلى ويروح عن نفسه بقراءة «البليانيس دي غراثيا» وولده الوقور الزاهد فليبي الثاني يمثل دور الفارس المشاء في الاعياد والمنازلات؟ وكيف للشعب ان يمل هذا النوع من الكتب وقد قيل ان تريسا دي خيسوس كانت جد مولعة بهذا الطراز الادبي وان ولعها بلغ من الشدة درجة حملتها على التأليف فيه؟ حكم الفلاسفة والاخلاقيون والشارعون بفساد هذا النوع من الانتاج ولهذا نرى ديبغوغراثيان في المقدمة التي كتبها لمؤلفات خنوفنتي : «بالامثولة التي يليقها هذا الكتاب انث في القراء الاسبان ذوق الفهم واحملهم على عدم الالتفات الى كتب الاحاجى والاكاذيب التي يسمونها كتب الفروسية التي يفوق وجودها في اسبانيا ما هي عليه في اية مملكة اخرى وهى لاتصلح الا لقتل الوقت سدى والخط من قيمة الكتب الحقيقية التي تنطوي على النظريات الصائبة وهي فوق ذلك عديمة الفائدة» ولان مثل هذه الخزعبلات والخرائف التي تقرأ في تلك الكتب تخلل وتشوش حقيقة الاخرى وتفقد من صدقها لسرد

الوقائع التاريخية» هكذا تكلم واحد من اكبر الادمغة التي عرفت في ذلك الوقت وتلاه غرانادا الوقور فاصدر الحكم الاتي: «والان اود ان اسأل الذين يقرأون كتب الفروسية الملفقة والمحشوة افكاً، ما هو الدافع الذي يحدو بهم الى ذلك؟ فهاهم يردون علي بقولهم: ان بين الاعمال التي تبصرها عيونهم الجسمانية اثنين هما ابداعها واعجبها: الجد والقوة لانه لما كان الموت - على حد تعبير ارسطاطليس - آخر الامور الهائلة وابغض شئ عند سائر الحيوانات فان رؤية رجل يتحلى بصبغة المزدري والمتغلب على هذا الخوف الطبيعي، يثير اعجابهم. فمن هنا يتولد تهافت الناس لرؤية البراز ومصارعة الثيران وما شاكلها من الامور، وشبيه هذا الاعجاب - كما يقول الفيلسوف - يسير بصفة مستمرة جنباً الى جنب وممزوجاً بالحبور واللذة اللطيفة، ومن هنا ايضا يتولد اتخاذ اوصاف الدروع وشارات الشرف للاسلحة دون غيرها من الميزات. فلذا اذن شمل هذا الاعجاب الجميع ولذا لم يقتصر على انتقاء مكائنه وتصور الامور الحقيقية بل انه تعداها الى الخزعبلات والاوهام. ومن هنا تولدت رغبة الكثيرين وولعهم بقرأة كتب الفروسية الكاذبة» وكما لو كان هذا

ليس بكاف، فها هو الراهب بدرو مالون دي شايدي يقول في كتابه المسمى «كتاب محادثة المجدلية»: «ما هي كتب الحب، وديانس، وبوسكانس وغرسيلاسو وكتب الخرافات والخزعبلات عن اماديس وفلورياسيس وضون بليانيس وغيرها من اساطيل الاكاذيب المماثلة سوى خنجر بيد رجل في حالة الهيجان؟ ... وما عسى ان تصنع الانسة التي لا تكاد تدب على قدميها فتجىء بديانه في جيبها؟ ولئن كان الكأس الجديد - كما قال احد الشعراء - يتشرب ويحتفظ لمدة طويلة بطعم الشراب الذي يهرق فيه وكان الطفل والطفلة من الاقداح الجديدة وقد هرقنا فيهما خمرا ساما من هذا العيار اليس من الواضح الجلي ان يحتفظ بذلك الطعم وقتا طويلا؟» ويتخلص من بعد الى التحدث عن كتب الفروسية بالذات فيقول: «ويقرأ الآخرون تلك الاحلام الواهية الكاذبة التي لا يعرف لها اول من آخر، والتي قد شحنت بها كتب الفروسية التي شاءوا ان يخلعوا عليها هذا الاسم والتي لو عرفوا ان يقدرها شرف التعبير ويحلوه المكان اللائق لاسموها، وكانت التسمية افضل «كتب اللصوص» ولو سألت الذين يقرأونها

ما استفدتم من مطالعتها لاجابوك: «قد تعلمنا الاقدام
والجرأة اللازمة لنقل السلاح، وحسن الادب لمعاشرة النساء
والوفاء والاخلاص لهن، والشرف وعلو الهمة وكبر النفس
ازاء الاعداء الخ.» الا ان كل ما بشر به اصحاب الفكر
وحملة الاقلام الزنيقة كان يذهب ادراج الرياح وكانت اصواتهم
يرن صداها في قعر الوهاد المقفرة، اذ ان كتب الفروسية
كانت تشق سبيلها دون ما عنا بل كانت تنتقل في
شبه الجزيرة الايبيرية تنقل الفاتح وقد ظلمتها اكاليل
النصر. وكانت مطابع اشبيلية وبلد الوليد ومدينة تخرج
الطبقات تلو الاخرى لقصص الابطال المحتلقين الوهميين
وكلما خرجت طبعة جديدة الى الوجود تبدلت معها
شخصية البطل الذي تحدثت عنه الطبعة السالفة وخصوصا
شخصية امير المشائين اماديس دي غولا.

ورفع سنة 1553 طلب الى مجلس الاعيان في بلد الوليد
التمس فيه عدم السماح بطبع كتب الفروسية من جديد
الا ان الامبراطور اعتصم بالسكوت عن الجواب ولم يصدر
قانونا في هذا الخصوص الا بعد سنوات، اي سنة 1558
تاريخ ارسال رد الاميرة ضونيا خوانا على مجلس الاعيان
وبعد انقضاء اجل ليس بقصير عمم على نواب الملك والمحاكم

والولاية الامر بعدم ترخيص طبع وادخال كتب الاحاجي والاكاذيب والتواريخ الملفقة الى مناطق نفوذهم لاي اسباني او هندي ولئن كان قد حذر ارسالها الى الهند (اميركا) ففي اسبانيا كانت تظهر طبعات لاتعد ولا تحصى من هذه الكتب، ولما بلغت وفرتها درجة لا يتصورها انسان وتفاقم شأنها وشأن اكاذيبها اخذت في الانحدار شيئاً فشيئاً وقل التهافت والاقبال عليها، وما كادت تخف الغلواء وتهبط حرارة الولع والحماسة لمؤلفات الفروسية حتى ظهر اعظم تقريرع جاء ليرفس هذا النوع الادبي ويجهز عليه، وفي اوائل القرن السابع عشر ليس الا غابت شمس رواية القرون الوسطى، الا انه تصح الاشارة الى انه في بعض الاحيان اعيد طبع كثير من مثل هذه التي نغفلها لعدم اهميتها ونكتفي بالالمام الى ما يعيننا من حيث محاولة انبعاث هذا الطراز الادبي بعد ان كان قد دفن نهائياً والى الابد.

فرواية الفروسية اذن شرعت في الاضمحلال في الهزيع الاخير من القرن السادس عشر ورأينا كيف ظلت تكافح من حين لآخر وتصدر عنها طبعات لم يكتب لها البقاء في غضون القرن السابع عشر نفسه وكيف ان في

طلائع هذا صدرت بعض القصص، الا ان الحماس لم يعد قويا مما ساعد على عدم تعدد الطبعات مثلها في القرن السابق، وهذا لايعني ان روح الفروسية قد قضى عليها تمام القضاء بل لها صفة الطابع الذي يميز تلك المرحلة، نعم وان توارى الفرسان والابطال من متن الروايات فليتخذوا مقعدا رفيعا في حديقة الادب الاسباني الجديد: وهو المسرح.

وبمجرد اطلاعنا على هذا يزول العجب من رؤية لوبي دي بيغا يعمل على احياء مغامرات المركيس دي منتوا، وفيا مديانا ينادي بمجد نيكيا، ومونظلبان يحيى اعمال بلمرين دي اوليفا، وكسترو ينتزع هتاف الجمهور في الكوندي دي ايرلوس ومولد منتينوس، ومن تهافت نفس هذا الجمهور على المسارح الشعبية وتصفيقه تصفيقا محموا لابطاله المحاطين آنذاك بهالة من العاطفية وهم جادون في استعمال الرماح والاولضام هذا وان نقل مثل هذه الاعمال الى خشبة المسرح حمل الجمهور على الاعتقاد بانها لاناس كانوا من لحم ودم واعادت الى ذكرياتهم اعمال غوثالو دي غوثمان وخوان دي مرلو والفران دي فيغيروا وغوثيري كيخادا وديغو دي فليرا.

اما مؤلفات الفروسية فبعد ان اجتازت رتاج كل
 قصور ملوك اوربا اتخذت لنفسها في اسبانيا صبغة اصلية
 وعند ما كانت تهرول نحو المغيب ظهر ذلك المؤلف
 الخالد الذي قضى على ذلك الادب الملقق العليل. وهذه
 المنتوجة هي كتاب سرفانطيس المسمى: ضون كيخوطى.
 ولكن ما هو الغرض الاسمى الذي سعى وراءه
 سرفانطيس لدى تأليفه كتابه هذا؟ وماذا قصد من طبع
 مغامرات «نبيل المانتشا» التي لم ترها عين؟ لقد تضاربت
 الاراء وتباينت في هذا الصدد ورأى المعلقون والنقاد غايات
 جد مختلفة بل انهم انقسموا على انفسهم الى مجموعتين.
 ولقد كتب المركيس طوريس في تأييد الجزء الثانى
 من الكيخوطى انه رأى «غزارة في المادة وسعة في
 الاطلاع والاستفادة وهذا ما ينطبق على موضوعه المتبع
 بمهارة لاستئصال كتب الفروسية الكاذبة على وفرتها
 والتي فشت عددا وتجاوزت كل حد يقبله العقل وترضاه
 العدالة». ويرى ديث بنخوميه: «ان سرفانطيس لم يسع
 في زمانه للقضاء لا على الفروسية المثلى ولا على بقايا
 الفروسية الحقيقية ولو فعل هذا لكان برهن على جهل
 الماضى والحاضر والمستقبل» ويرى كليماسين ان: «في

ضون كيخوطى صور الواجه المضحكة والنواحي الهزلية
 للفرسان المشائين وفي سنتشو حامل درعه ما هو مضحك
 في اللذين يقدرون ويجلون خوارق الفروسية» ويرى
 مينث انه: «ما سخر بل ما حاول قط النيل في ادنى شىء
 من افكار الفروسية» ثم يواصل اجتهاده في هذا الموضوع
 ليقول مؤكداً: «لم يصب الذين حاولوا التمسك بان مؤلف
 سرفانطيس انما هو هجاء قارس لكتب الفروسية». ولم
 يقتنع بهذا القدر بل انه توسع في دراسته وبحثه الى ان
 اردف اراءه برأى آخر فقال: «انه ليس فقط لم ير في
 الكيخوطى ذلك الهجاء اللاذع وذلك القدح الموجه ضد
 كتب الفروسية المنسوبة الى نفس الكتاب بل يعتقد
 ان غاية سرفانطيس الحقيقية كانت ترمي الى رفع شأن
 افكار الفروسية القديمة الشريفة».

ويشاطره هذا الرأى ميكال س. اوليفر في قوله:
 «ان ضون كيخوطى ليس بهجاء بل تقريظ لروح الفروسية
 والقرون الوسطى تلك الروح التى احتضرت على يد
 الانبعاث الوثنى، الشعوانى، الفاقد لمعنى الاحترام المفعم
 شهوة وطموحا ونزقا وسباتا» وتصح الاشارة في هذا المقام
 الى ان اغوسطين دوران كان قد كتب من قبل «ان

المؤلف لم يجرد قلمه من غمده ضد الفروسية القديمة التي لها الفضل وحدها في استرداد الوطن وتحريره وانما جرده ضد ذلك التصنع والزى المستخدمين فيما بعد للتشويش او للدفاع عن قضايا لاتمت الى تلك بصلة». وكتب العالم خيل اي ثاراطى: «ان الغاية من كتاب سرفانطيس احياء ذكرى الفروسية وتطهيرها من الشوائب الكثيرة التي الصقتها بها الجماعات المحنومة فشوهتها». غير ان احد كبار الدارسين لمؤلفات سرفانطيس وهو مريانو امنتريا الذي اصدر في مدريد سنة 1834 نشرة تحت عنوان: «تبجيلات مرفوعة لذكرى سرفانطيس» لم يوافقه على ذلك اذ قال: «ان مؤلف هذا الكتاب الذائع الصيت قد سدد ضربة قاضية الى فساد ذوق زمانه والى العيوب التي جاءت كنتيجة محتمة لتلك القراءة الشاذة» قراءة كتب الفروسية التي نشرت ظلها فوق ربوع اوربا فافسدت الاخلاق ونالت من المروءة والكرامة واغرقت العادات وسعت بواسطة الرومنتى الذى لايقبله العقل الى اشادة جدار لاتنفذ منه الانوار التي كانت اضواؤها تتلأأ في روحه المتحفزة وبصيرته الثاقبة». وفي غضون هذا القرن في حفل رهيب اقيم تمجيذا

لذكرى هذا العبقري الخالد سمع صوت حجة زمانه منندت
اي بلايو يقول: «ان سرفانطيس لم يقصد قتل فكرة
مثالية بل قصد تحريرها ورفع شأنها اذ انه اضاف الى
متن كتابه كل هو ما شعري ونبيل وجميل في الفروسية
ولم يأت كما زعم بعضهم بمؤلف مناف ولا برفض جاف
قاحل بل جاء بمؤلف مطهر ومكمل»..

ونكتفي الان بهذا القدر من اراء النقاد والمعلقين
حيث ان تعددها يوازي تعدد الاذواق ولتسائل: من
من هؤلاء يقترب الى حقيقة الغاية التي انشدها سرفانطيس
لدى تفكيره في موضوع كتابه؟ فلنقف اذن على ما
قاله المؤلف نفسه.

كتب سرفانطيس في مقدمة الجزء الاول من
ضون كيخوطي ان مؤلفه «انما هو ابتداع ضد كتب
الفروسية» وانه «لايرمى الا الى تحطيم السلطان والمكانة
التي اكتسحتها تلك الكتب في العالم وفي نفوس العامة»
وانه لذلك «فان يقرأه المصاب بالسويداء يضحك والطروب
يزداد طربا والساذج لايتبرطم والزنيق يعجب من الابتداع
والوقور الخطير لايزدرية ولا الحكيم ينكر عليه الثناء

والتقريظ» ويتابع فيقول: «القصد منه دك صروح كتب الفروسية هذه التي ملها الكثيرون ومدحها السواد الاعظم».

وفي الفصل 47 من الجزء الاول يدلي برأيه في هذه الكتب عند قوله: «اعتبر اعتبارا قطعيا انها مضرّة بالجمهور... وما حملت نفسي قط مشقة قراءة احدها من اوله الى آخره... فهذا النوع من الادب يقع ضمن دائرة الخرافات التي ترمي الى التلذذ فقط دون ان تهذب... وما دام هدفها الرئيسي ايجاد اللذة فيتعذر علي كشف النقاب عن كيفية بلوغها الهدف المرمى اليه وهي محشوة بهذا القدر من الخزعبلات... واي جمال يمكن ان يوجد بل اي مدلول عقلي في كتاب او خرافة تقول ان فتى عمره ست عشرة سنة يطعن ماردا كالبرج بالسكين فيقده الى شطرين كما لو كان هشيشا؟ وانه متى وصف لنا موقعة يصفها بعد ان يقول ان العدو جرد لساحة القتال مليون مقاتل؟ ثم يدعونا صاحب الكتاب قسرا كي نصدق ان الفارس انتصر على هذا العدد الجرار من المقاتلين بقوة ساعده المقتول ليس الا... واية عقلية ان لم تكن همجية ترتاح الى قراءة امور تحدثنا عن برج عظيم غص بالفرسان،

يمخر عباب اليم كسفينة تجري الرياح. وفقا لما تشتهي
وتمسى اليوم في لمبرديا وتصبح غدا في اراضى النجاشى
خوان دي لاس انديس او في امصار أخرى ما وصفها
بطليموس ولا رأتها عين ماركو بولو؟».

لقد انتقد سرفانطيس بهذا الشكل المحكم كتب
الفروسية وهذا لايعني انه لم يسد النصائح في كيفية
تأليف مثل هذه القصص ما دام فيما بعد قد كتب ان
فكرا صائبا يمكن ان يطلق العنان لقلمه فيصف العرق
والالام والحروب والمبارزات والقواد الحكماء الرزنا
والاعداء الماكرين والفياشين الا ان كل هذا ينبغي ان
يكون: «باسلوب طلي هادى» وابتداع حاذق يميل على قدر
الامكان الى الحقيقة نفسها» فهكذا يعلم المؤلف ويفرح وهي
الغاية القصوى التي ينشدها كل من صاغ مثل هذه الكتب.
يتضح لنا من هذا كيف ان سرفانطيس غربل خرافات
هذه الكتب ونادى بتجريدها من كل ما لاصلة له
بالحقيقة من غير ان يمس شرف الفروسية ومثالها
الاعلى وحب المرأة الامر الذي وصف وصفا رائعا عند
اماديس دي غولا ولفق تلفيقا مخزيا عند احفاده.



لايسوغ بوجه من الوجوه لسرفانطيس ان يسخر
 من مثال الفروسية ومن المجهود البشري لبلوغ غايته
 نظرا لما في حياته وفي كثير من مواقفه من دلائل على
 ان في صدره روح ذلك المغامر القح، فالاعمال التي جرت
 في الاسر عندما حاول الفرار لا خلاص نفسه فقط بل خلاص
 رفاقه ثم القائه التبعة على نفسه وتحمله مسؤولية هذا الذنب
 الخطير دون سواء مدعيا انه هو الذي دبر خطة الفرار
 معرضا نفسه للاعدام، لهي من الامور التي تتناسب مع
 اعمال الفرسان الابطال، ولما كان سرفانطيس ذلك الرجل
 المتحمس لسلالة هذه الكتب ورأى مثال الفروسية الاعلى
 قد هتكت حرمة وبات على الحضيض انتضى قلمه من
 غمده دفاعا عنها ساخرا متهمكا على الملقق والكذب منها.
 ولذا يهزأ من بليانيس دي غراسيا لدى تحدثه عن فتى
 عمره ست عشرة سنة يقتل ماردا كالبرج قدا، ويسخر
 من الامور التي تقرأ في البوليشسني دي بويسيا ولاس
 سرغس دي اسبلنديان ولايمكن ان يصدقها بشر، ويضحك
 من البرج المسحور لصاحبه: ضونيا دلفوندوالي المذكورة
 في فلورنبال دي لوكا. وفي وسعنا ان نأتي بامثال عديدة

من كتب الفروسية التي تعرض اليها سرفانطيس فرشقا
 بسهامه المرة اللاذعة، الى كل هذا استند سرفانطيس
 ليصور في خيلة «النيل المانتشاوي» المحمومة امورا وهمية
 لايقع عليها بصره وانما هي وليدة تلك الخيلة الميالة
 للفروسية المشبعة بروحها فلذا عندما يصطدم بالحقيقة
 تستحيل القصور الى خانات والمردة الى مطاحن هوائية.
 فما ضون كيوخوطي، اذن، سوى كتاب اضيف الى
 كتب الفروسية نظرا لكون مؤلفه كان يتصف بميزات
 عرف منها انه رجل خيالي، مثالي، يتيه في دنيا الاحلام
 على غرار بعض ابطال تلك الكتب وكل ما هنالك ان
 سرفانطيس احس بالالم يحز قلبه عند ما رأى كيف
 كانت تشوه صورة اماديس دي غاولا واقض عليه
 مضجعه ان يحور كتاب قصص المشائين الحقائق وان
 يخفضوا الى الحضيض زورا وبهتانا بمثال الفروسية الاعلى
 فعزم على الاستهزاء من الشطط الذي ضمته بين دفتيها
 تلك المؤلفات فلهذا قابل بين خطط المشاء والحقيقة اي
 الرؤية الثنائية للاشياء اذ قد يستحيل خنق روح الفروسية
 التي يرمز اليها الشرف والحب والسيدة وانما يمكن

تطهيرها وغربلتها من كل ما علق بها لينال من كرامتها
 على ممر الزمن، ومن العوائد التي اخذت تتسرب اليها
 فانتقى كل ما احتوت عليه كتب الفرسان المشائين
 من شريف ونبيل وشعري وعلوي وغيرها من الميزات
 المشتة فجمعها وحلق بها. وفي وسعنا ان نوكد مع
 العبقرى الخالد منندث اى بلايو ان سرفانطيس لم
 يقتل فكرة سامية بل انه حورها ورفعها.



- II -

نجاح كتاب سرفانطيس

شيوعيه في اسبانيا وفي الخارج، قضية جس النبض،
 بعض النظريات التي زعم اكتشافها
 في الكيخوطى

يمكن ان ينعت ظهور الكيخوطى كنجاح مطبعى
 باهر اذ قبل ان يعرض في واجهة ورفوف مكتبة الوراق
 خوان دي لاكوسطا كان موضوع حديث الحلقات
 الادبية والمجتمعات التى انقسم اعضاؤها الى محبذين
 ومنتقدين.

واخيرا سنة 1605 ظهر الكتاب وعرض للبيع
 المؤلف الذي انما جاء ليرفس رواية القرون الوسطى
 المنحطة نظرا لما فيها من القصص والخرافات عن الفروسية
 التى ساد منتوجها في اسبانيا طيلة قرن وطمس على
 سائر العوامل الادبية الاسبانية، واما عرض ضون كيخوطى
 فكان سنة 1605 لاسنة 1604 كما حاول ان يثبت ذلك
 بعض الكتاب، وليس من الصعب اثبات هذا الامر حيث

انه في سجل اخوية الطباعين في مدريد قد اتضح انه سلمت بتاريخ 26 مايو سنة 1604 نسختان من الكيخوطى تحتويان على 83 دفترا وان الامتياز الممنوح من الملك لطبع كتاب سرفانطيس مؤرخ في بلد الوليد 26 شتمبر سنة 1604 ولئن كان الامر كذلك فينبغى الامناع الى ان المصحح سلم بدوره بعد صدور الامتياز الملكى النسخ الى الطابع في شهر دجنبر وفي نفس هذا الشهر اعيد الكتاب الى بلد الوليد ليقوم السادة اعضاء المجلس بتعيين ثمن النسخ ثم اعاده هؤلاء السادة في اواخر الشهر المشار اليه حيث انهم عينوا ثمن النسخ في 20 منه وفقا لما في التعريف الذي يشهد بانهم جعلوا ثمن كل دفتر ثلاثة مرافيدس ونصف الخ. فيمكننا استنادا الى هذا ان نوكد ان الكتاب عرض للبيع في اوائل شهر يناير سنة 1605. وزيادة على ما تقدم لم يقع العثور على النسخة المدريدية التى يزعم صدورها سنة 1604 والتى اثار ت اهتمام المصنفين في السيرة السرفانطية.

ونعيد هنا كما قدمنا ان ظهور الكيخوطى عد نجاحا مطبعيا باهرا واعتمادنا في القول على عدد الطباعات التى ظهرت سنة 1605 ولئن شاطرنا بعض المصنفين

في السيرة السرفانطينة اراءهم لعلنا انها تسع: ثلاث منها في مدريد وثلاث في لشبونة وثلاث في بلنسية. وقد اشار احد المولعين بالادب الاسباني وهو فولشه دلبوسك في مقال نشره في المجلة الاسبانية الى التناقض الواقع في الطبعات البلنسية الثلاث التي ظهرت سنة 1605 وهذا التناقض هو نفس الذي حصل في الطبعات التي ظهرت في لشبونة وانما اقتصر على الصورة التي تحلي دقة الكتاب.

ويعتقد كوتاريلو اي موري ان هناك طبعة اخرى ظهرت في برشلونة ولا يمكن الجحد من ان كثيرا من الكتب التي كانت تطبع في مدريد كانت تصدر معادا طبعها في برشلونة في نفس السنة. اما كتب سرفانطيس فهي بعيدة كل البعد من هذا القياس حيث ان رواية «لاغلاطيه» لم تطبع في برشلونة حتى سنة 1618 والقصص المثلثي سنة 1613 ولم تعرف طبعة برشلونية «لسفرة البرناس» والمسرحيات والمسرحيات القصيرة» في القرن السابع عشر انما ظهر فقط في مدريد وبرشلونة في نفس السنة المؤلفان المسميان: «برسليس وساخيسموندا» وما قيل

في هذين المؤلفين ينطبق على الكيخوطى من حيث ظهوره في هذه المدينة.

وهناك من يؤكد ان طبعة من الكيخوطي ظهرت سنة 1605 في برشلونة استنادا الى ما جاء في مقدمة الجزء الثاني من الكتاب نفسه: «وعندي ان ما يربو على 12.000 نسخة قد ظهرت من هذا التاريخ والا فلتتكم البرتغال، وبرشلونة وبلنسية حيث وقع طبع النسخ المشار اليها وعلاوة على هذا فقد شاع وذاع انهم يطبعون منها في امبارس...» وقد يكون المؤلف كتب: «برتغال وبروسالس، وبلنسية» وصف الصفاف «برشلونه» عوضا عن «بروسالس» ومن مجرد مقارنة صورة الدقة للطبعتين المدريدتين يظهر انه حيث قيل في الاولى «الكوندي دي بنلكثر» وضع الصفاف «الكوندي دي برشلونه» ونجزم ايضا ان الذين يعتقدون ان زوريتا الطباع البرشلوني الذي نشر الكيخوطى سنة 1617 كان قد ابتداء الصف واتمته سنة 1605 ما زالوا في ضلال.

وتتعلق بنشر الكيخوطي مسألة خطيرة جدا الا وهي: قضية ظهور النشرة الشهيرة المعروفة «بقضية جس النبض» وما دار في خلدنا قط ان مؤلفا مثل الكيخوطي

احرز على نجاح منقطع النظير كان في حاجة الى اعلان
ليسترعي انتباه الناس.

والنشرة المشار اليها مع ما فيها من رشاقة وبراعة
لاتجاري انشاء الروائي الذي لا يقلد بل تدل في حد
ذاتها على ان ادولفو دي كسترو كان واقفاً على عدد
وفير من التعابير والحفايا اللغوية التي كان يستعملها
المؤلف المذكور، الا انه كان في الامكان ان تلقى ارتياحا
عظيما لو لم يقصد منها جعل مزيج الزنك والنحاس في
مقام التبر الخالص الامر الذي قلبها رأسا على عقب وحمل
الانفس على الاشتمزاز منها وحدثت جدالا حامي الوطيس
بين الذين كانوا يعتقدون انها لسرفانطيس والذين
ينادون ويؤكدون بانها خديعة.

اما حكاية هذه النشرة فهي كما يأتي: «يعللون ان
الكيخوطي قابله الجمهور ببرودة وان مؤلفه حبا في حث
الفضولية واسترعا الانتباه دفع الى المطبعة نشرة مغفلة
الا انها تتوقد براءة ورزانة انتقد فيها سوريا الكيخوطي
انتقادا يوضح انه هجاء مفعم بالارشادات والظرافة سعيًا
وراء استئصال قراءة كتب الفروسيية المستفحلة وان
الاشخاص وان كانوا صنيع الخيال ليسوا من الخيال في

حد ذاته، الخيال الذي يجردهم من الاوصاف، ففي الكتاب تصوير بعض اعمال كرلوص الخامس الفروسية واعمال الفرسان الذين قلدوه وغيرهم من الشخصيات التي كانت تسير دقة الحكم السياسي والاقتصادي للمملكة. وقد قرأ الكيخوطي الذين دفعوا الى ذلك بروح الفضولية فاعترفوا بفضلهم واعجبوا به واحسوا بسحر مهارته وتركيبه وبهذه الوسيلة بلغت فكرة سرفانطيس المأرب الذي سعى اليه المؤلف.

ويقول لنا كاسترو نفسه لدى نشره قضية جس النبض سنة 1848 ان المخطوطة من مخطوطات القرن السادس عشر او القرن السابع عشر وانها نسخة لمخطوطة أخرى امليت على اغوسطين دي ارغوتي ابن غونثالو ثاتيكو دي مولينا وانها فيما بعد انتقلت الى حوزة بسكوال دي غندارا ويكتب اخيراً: «ان المؤلف هو لسرفانطيس ويشهد بذلك الاسلوب والبراعة في الانشاء» وانه حافل بالنكات وانه من المؤلفات التي تشرف الظرافة الاسبانية وانه من افضل الكتب التي دبجتها يراع سرفانطيس» وينجم عن ذلك ان القصة مشوشة لدرجة ما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان غونثالو دي مولينا توفي قبل سنة 1597 بقليل

دون ان يترك اولادا، وبخصوص الاسلوب نشاطر رودريگث مارين رأيه القائل «ان في وسع اي كان من علمائنا اليوم ان يحدد - بلاريب - في «نشرة قضية جس النبض» كما يسهل عليهم ان يفعلوه في «العمة المتظاهرة» بعض الحالات الظرفية والتعابير التي لم يستعملها سرفانطيس قط دون ان يخشوا من الوقوع في زلل. ولا حاجة لكيخوطي سرفانطيس لما يسمى «بقضية جس النبض» لاسترعاء انتباه الجمهور اذ انه طبع ست مرات سنة 1605 ونشر سنة 1607 في بروسالس واعيد طبعه سنة 1608 في مدريد وسنة 1610 طبع في ميلان وسنحت الظروف لمؤلفه برؤيته مترجما الى الانكليزية والفرنسية حيث انه سنة 1612 ظهر في لندن وسنة 1614 في باريس. وفي بحر القرن العشرين ظهرت نشرة جديدة لقضية جس النبض فطبل لهاوزمر على حد التعبير العامي من على اعمدة «الامبرسيال» المدريدية. والغاية منها البرهان على ان تقليد كيخوطي سرفانطيس لالونصو فرنندث دي افياندا هو من تأليف غبريال ليونردو البيون وانطونيو دي ميلا دي مسكوا. وفي حديثنا عن تقليدات الكيخوطي سنلمع الى التي رسمها انسطاسيو

ريبارو صاحب «سر سرفانطيس» وهو عنوان نشرة قضية جس النبض الجديدة. وتحسن بنا الاشارة هنا الى ان جمهرة من مشاهير الادباء قد اوضحوا انه يتعذر قبول الموضوع والاستدلالات التي جاء بها مؤلف «سر سرفانطيس» وعلينا ان نبحث في احتمالات نجمت عن طابع الناشر خوان دي لاكويستا الذي ظهر على صورة دقة طبعات الكيخوطي التي صدرت عن مدريد سنة 1605 و 1608 و 1615. وكم شغلت افكار اشيع الفلسفة (السرية) الحكاية التي نصها: «بعد الظلمات انتظر النور» وكم اثارت من محادثات وتبارى الكتاب في تفسيرها واما تعليق دياث بنخومية القائل ان الشارة ترمز الى الكتاب فلا تستند على شيء من الصحة ولا ترى من نسبة بين شارة كويستا وشعار يهود ليون وجنيف وان صح استعمال يهود البلدين فيما مضى لهذا الشعار الذي يدل على انهم كاسد نائم ينتظرون مجيء النور او المسيح. اما في اسبانيا فالشارة او الطابع الذي نحن في صدد ما كان له قط هذه الصفة او هذا المغزى وانما هو مجرد تناقل من ناشر الى آخر لهذه الخرافة. ومن الامور الاخرى التي تنبغى الاشارة اليها ايضا

الاحتمالات العديدة التي مهد لها السبيل كتاب سرفانطيس
 فمنهم من توهم انه انتقاد لحكومة الدوكى دي ليرما وعند
 البعض انما هو هزء من الامبراطور كرلوص الخامس،
 وقد قال قائل انه هجاء مر لمجلس التفتيش الدينى وهكذا
 راح كل من المؤولين يرى فيه ما يشتهي ذوقه غير
 ان كل هذا لم ينل من مجد الكتاب على قدر قلامه.
 وقد تأكد ان في الكيخوطي وصفا للاعمال الحقيقية
 والخيالية على حد سواء وان فيه صفحات عن سيرة
 المؤلف الا ان هذا لا يحط من فكرة المؤلف المثلى ولا من
 درس شخصيتي ضون كيخوطي وسانتشو درسا تاما. اما
 هذه الاحتمالات كلها والرمزيات فتستحيل هباء امام
 الاعتبارات القيمة التي يدعى اكتشافها في هذا المؤلف
 الشهير كل من بولينوس وفياغس فعند الاول ان القصد
 من تعيين سرفانطيس مكانا لضون كيخوطي في لامانتشا
 - ومعناها اللطخة - هو لاننا جئنا الى العالم ملطخين بالخطيئة
 الاولى وهى الجهالة ولايسعنا التخلص منها الا بالعمل.
 والمبارزة والافلاس يمثلان: التعاسة والعوز اللذين يقاسى
 مرارتهما ارباب العبقرية. وسانتشو هو ذلك الرجل الذى
 تنعكس فيه صورة الشعب وفي المديرية وابنة اخيه: المجتمع

والعائلة في ذلك الوقت. ويقول لنا كذلك ان المفكر هو ذو شخصية قوية وروحانية وانه رجل واعى الذاكرة نبهه للغاية فلذا يجعل سرفانطيس من ضون كيخوطي رجلا مبكرا اما رسالا فتمثل الشهرة او الحكمة. ويرمز الى الرومنتية كون ضون كيخوطي بعد دفن كريسوستمو يذهب في اثر الراعية، وخوان هلدودو هو الممثل الرمزي للملكية المستعبدة، وطست الحلاق الذي اتخذه ضون كيخوطي على انه خوذة هو التاج الملكي، ويقول البطل انه خوذة مسحورة وهو سلاح عجيب ملمعا الى حقيقة معناه، غير ان الخوذة التي ترمز الى السلطة العالمية ما هي سوى طست حلاق على رؤوس الملوك الفارغة، ويواصل المؤلف تعداد كثير من مقاطع الرواية البديعة مع ذكر تاويلات لها.

وعند فياغس انه في بطل «لامانتشا» يتجسد التفكير الحر الاصلاحى وفي سانتشو بنصا الشعب الانانى العامى وفي الكاهن والحلاق الاغراض المخلوقة في النظام الروحى والمادى، وفي دولسينيا الكمال، وفي رسالا استقلال الكنيسة وما طست الحلاق سوى وسيلة للتحدث عن الملكية، وفي مريطورنيس صورة الكنيسة وفي ضون

فرندو الملك وعلى هذا النمط يقتفي اثر كافة الاشخاص الذين يلعبون دورا في الرواية.

ولدى مقارنة مؤلف بولينوس عن الكيخوطي بمؤلف فياغس في نفس الموضوع يتضح ان هذا الاخير هو ابن الاول الا ان فياغس يحلل مغزى الكثير من مقاطع كتاب سرفانطيس.

والان ايجوز لنا ان نتسأل بعد درس مؤلفي الكاتيين المذكورين ما يلي: هل للمعنى التأويلي وجود في الكيخوطي؟ اعند ما صمم سرفانطيس على وضع مؤلفه اولا ثم عند ما شرع في كتابته من بعد فكر في المعنى الرمزي الذي عشر عليه الكاتبان المشار اليهما؟ أيمن قبول ما قاله بولينوس من ان سرفانطيس عند ما كتب يقول ان لفيفنتسى دى لاروزا ثلاثة اثواب لمح الى سر الثالوت الاقدس؟ وهل يصح ان نقبل رأى فياغس في ان اسواق الحرير في بلد الوليد ان هى الا هيئات تمثيلية لمركز رئاسة اسبانيا الروحية؟ لايسعنا ان نقبل من ان سرفانطيس رسم خطوط هذه الاحتمالات كلها لانه في قبولنا هذا الامر امكنا ان نواصل التفسير فنقول ان الثلاثة او الاربعة اضراس التى فقدناها من كيخوطي

من جراً قرع الرعاة له بالحجارة تمثل الثالوث الاقدس
او الانجيل، ومن بعد ان نرى في قوله ان له في جهة
خمس اضراس يعنى الحواس او قواعد الكنيسة الرئيسية
او اسرار الغبطة والالم. ويمكننا بهذه الوسيلة ان نستنتج
احتمالات ثلاث كل الاذواق، في حين انه لا يصح سوى
القول ان الكيخوطى لو كان كتابا غايته الوحيدة
السخرية من كتب الفروسية لانتهدت مهمته على اثر
انتصاره على الكتب الانفة الذكر الا ان سرفانطيس
لدى تاليف الرواية طفق يكسب اشخاصها شيئا من مشاهداته
العديدة في الحياة ويصف اعمالا وحوادث حقيقية وقعت
قبل ذلك الوقت بقليل وكان يضيف في كل اونة
مخطوطة الى مخطوطاته فيها ما فيها من الحقيقة والتاريخ
وما اختبره وعاشه وبات هكذا شيئا فشيئا الى ان اخرج
رواية ذات وقائع حقيقية وخلع على اشخاصها الذين هم
من صنعته شيئا مما يسمى بالعبقريّة الخاصة التى لا يقوى
على منحها غير الفنانين العباقرة المبدعين وفي عبارة
اخرى انه نفخ فيهم حياة. فلذا يثير اليوم الكيخوطى
الاعجاب اكثر منه في ايام ظهوره اذ انهم في ذلك الحين
كانوا يرون فيه مؤلفا يستهزى بسائر انواع الادب وانه

يشير الى عيوب تلك المقالات الخرافية وانه يسخر من
 تلك الورطة التي تخلقها الاعمال الخارقة للطبيعة والتي
 يمجها الذوق السليم. واما الان وقد تقلص ظل تلك
 القراءات غير المقبولة فلامندوحة من ان يبقى المؤلف
 الانساني الاجتماعي الفكري والفلسفي وان يدرس
 صون كيخوطي الذي يظهر ان مؤلفه تعلم كل ما كان
 يعرفه لا لانه قرأه في بطون الكتب بل لانه رآه بعيني
 رأسه ولمسه لمس اليدين وذاق طعمة.



- III -

ابرز شراحه - مترجموه

صوره الفنية

لاريب في ان كتابا منزلته كمنزلة الكيخوطي لا يحتاج الى شروح بالمعنى الحقيقي، الا انه لما كان يهجو مقاطع الخيال المحموم التي تقرأ في كتب الفروسية ويذكر اعمالا وقعت في زمانه ارتأى النقاد ضرورة ايضاح بعض النقاط تسهيلا لفهم القارى وتوجيهه لكى يكون على بصيرة من ناحية سرفانطيس الهزلية.

ففي سنة 1733 ظهر مؤلف عنوانه «سيرة سرفانطيس» للعالم في الادب غريغوريو ماينس اي سيكار فيه بعض التعليقات حول الكيخوطي وهي على قلتها، جد مصيبة. وفي سنة 1780 نشر المجمع اللغوي الاسباني طبعة فخمة للكيخوطي ظهرت في مقدمة الجزء الاول منها توطئة اضافية على نص سرفانطيس بقلم فيشني دي لوس ريوس تبحث في حياة ميكال دي سرفانطيس سايدرا وتحلل الكيخوطي وتتعلق بصورة مباشرة بالمؤلف وبكتابه البديع

وفيما يعود الى هذه النقطة الاخيرة ينبغي اظهار الاسف لكون صاحب هذه الدراسة القيمة اراد ان يرى تشابهها بين سرفانطيس وهوميرو واصر على ان ضون كيخوطي مستوحى من الاليادة.

وفي السنة التالية (1781) اخرجت مطبعة ادواردو ايسطون في ساليسبوري طبعة للمكيخوطي حافلة بالتعليقات التاريخية الانتقادية التي وضعت انموذجا للدراسات المقبلة لكتاب من طراز كتاب سرفانطيس. واما الناقد واسمه بوولي فقد احتفظ لنفسه بكافة العيوب التي يمكن ان تحصي في هذا المضممار الامر الذي لم يحل دون اكتسابه شهرة عظيمة اذ كان قد شرع قبلا في دراسة اللغة الاسبانية وبعد ان طالع عددا وافرا من كتب الفروسية وقرأ الكثير من الكتاب المعاصرين لسرفانطيس، تصدى للعمل فشرح مقاطع من كتاب الكيخوطي، كما شرح غيره من المؤلفات ويتضح انه عرف باماكن عديدة من كتاب سرفانطيس كان قد سبق ذكرها في كثير من الكتب التي لاشك لم تكن غريبة عن صاحب الكيخوطي.

وبعد انصرام ست سنوات على نشر شروح بوولي الشهيرة، ظهرت طبعة جديدة لمؤلف سرفانطيس الذائع

الصيت مصحوبة بتعليق اكثر اسهابا من شروح بوولي غير انه تنبغى الاشارة الى كون التعليق الجديد مستقى من الاول والى كون صاحبه خ. ا. بليتر تمكن من الاطلاع على محفوظات المكتبة الوطنية تسهيلا لعمله ومع هذا فالمواد الاولية هي من تمهيد الناقد الباحث الانكليزي ولا خلاف في انه زاد شروحا تتعلق باللغة الافصاحية الشيء الذي لم يأت به بوولي وانه حور بعض الافكار التي ابداهها الاخير ولكن يصح الاعتراف بان الاسبان لم يشعروا بضرورة البحث العلمي في بحر هذه الرواية الخالدة الحُضْم وسبر لججه الا بعد ان قام انكليزي وتصدى لهذا العمل الجبار الوعر الا وهو التعليق على مؤلف سرفانطيس سيد وامير الكتاب الاكبر، فعمل بليتر يعد خطوة موفقة لاحراز تعليق لائق على الكيخوطي.

وسنة 1819 نشرت في مدريد طبعة جديدة للكيخوطي اصديرها المجمع اللغوي الاسباني واصر كتابا آخر عن سيرة ميغيل دي سرفانطيس سايدرا لفرنندث دي نفريتي فيه كما لا يخفى شيء عن ضنون كيخوطي.

ونشر سنة 1826 اغوسطين دي اريتيا عضو المجمع اللغوي الاسباني تعليقات جديدة على كتاب سرفانطيس

الا ان شروحه نسخة عن شروح بليشر او عن شروح
المجمع نفسه بيد انه من حين الى آخر تظهر بعض
تعليقات من بنات افكار الشارح ومع هذا فيمكن الجزم
بانها عديمة الفائدة.

وبرغم الشوائب التي تظهر في شروح كيلمنشين
يمكن التوكيد بجرأة انها حتى يومنا هذا من خيرة ما
كتب في هذا الصدد وهى اوسع ما حرر في ذلك الوقت
وقد اقتفى الناقد اثر بوولى وبليشر واتبع خطة الاول
في دراسته كتب الفروسية ولنا ان نقول في انه افضل
من علق على الكيخوطي واستفاد من رواية القرون
الوسطى. ومن افدح عيوب هذا الناقد تماديه في ذم
اسلوب سرفانطيس ولربما كان يريد منه ان يكتب
وفقا لقواعد معينة وهو من الامور المستحيلة في ذلك
الزمن الذي انما كان يقوم فيه بتمثيل دور المخضرم
ولقد برهن جمهرة من النقاد على ان اراء كيلمنشين
في سرفانطيس كانت جد محقة.

ثم بينما كان كتاب كيلمنشين في طريق النشر
ظهر في برشلونة سنة 1834 مجلد تحت عنوان «شروح
جديدة لكتاب سرفانطيس» لصاحبه: ث. خ. بسطوس اي

كثيرا وفيه تعليقات نزيرة الابتكار تحبو وراء
 شروح بليشر الا انها لدى تعرضها لاعياد الفروسية
 والبراز الخ... تعود فتنفض عنها غبار الحمول وترتقي الى
 حيث لاجمود، ولو لم تظهر ابحاث بوولى وبليشر لكان
 لاجاث بسطوس مقام جليل ولكن بظهور اعمال البعائين
 لم يبق من سبيل للنكران بان هذا الاخير قد عرف
 من موارد هما على قدر المستطاع.

وطلع الاستاذ فرنسيسكو سالس فريير من جامعة
 هرفرد سنة 1836 بطبعة للكيخوطي صادرة عن بسطون
 نقل مواردها عن بليشر وكليمينشين وغيرهما واطاف
 بعض الشروح التي تتعلق فقط بعبارات قديمة الاستعمال
 وسنة 1847 صدرت عن مدريد طبعة للكيخوطي
 من تصحيح وتعليق مرتينث دلروميرو، نذكر في سياق
 البحث ما قاله فيها رويس في معرض الحديث عن الشروح
 والذبول: «اما شروح السيد مرتينث دلروميرو فلا تخلو
 بصورة عامة من الفائدة بل انها تستحق ان تؤخذ بعين
 الاعتبار وتوزن بميزان التقدير لان احدها يشير الى
 عدة نقائص وحيل ندد بها سرفانطيس ساخرا كمسالة

العرافين وغيرها من الوسائس وتشرح بعض العبارات العربية والتعابير العجرية والطلايانية واماكن ومدلولات جى على ذكرها في الكيخوطي».

وما اكبر حجم العفش السرفانطي لخوان هرتزنبوش في شروحه وذيوله للطبعات الصادرة عن ارغماسيا دي الباسنة 1863، وشروح ظهرت في الطبعة الصورية التي اصدرها لوبيث فابرا عن برشلونة سنة 1871 وما نشر في المجلات والصحف يدل على ان هناك شروحا كثيرة ماعداها تتعلق بالقصة الخالدة، ويظهر ان لوبيث فابرا كان مولها لحد الجنون باصدار ونشر شروح للكيخوطي وما يشهد على صحة ذلك انه ظل ينشر الشروح حتى آخر ايامه على الرغم من الذبول الوافرة التي تقدم ذكرها واما التي ظهرت في المرحلة الاخيرة من حياته فجلها تصحيحات لما سبق نشره. فهكذا كانت تظهر في مجلة الاتنايو الاشبيلية ومجلة سرفانطيس المدريدية تصحيحات على التعليقات التي ربما كان دافع عنها بحرارة لسنوات خلت، ومن الافضل ان يقرأ كتاب سرفانطيس على ما فيه من الشواذ والاختلاف الصرفية التي المع اليها مليون من ان تمسك طبعة الكيخوطي المهشمة التي تولى

تصحيحها هرتزنبوش لوفرة أخطاءها التي تسمح بتبويبها إلى رديئة وعادية وجيدة وقلما عشر - لسوء الحظ - على هذه الأخيرة، لقد عمل مبضع تصحيحه في كتاب سرفانطيس بشكل فظيع، حذف وزاد ما لم يخطر قط ببال بل ولا يحتمل أن يمر في مخيلة المؤلف في وقت من الأوقات ولا ينكر عليه أنه كان صائبا في تصحيحه المقطع الذي يشير إلى حادثة سرقة خينس دي بسمونتي لروثينو فهذا أمر عديم الأهمية إذا ما قيس بالشطط الفاح لدى ابتكاره يوميات البطل المنتساوي وتصديقه خرافات سجن ارغماسيا.

أما بحث نقولاس ديث بنخوميا كنقاد «سرفانطي» فيعد في الذروة العليا فهو أول من تفرغ للتعليق الروحي على الرواية بجد ونشاط لم يجاره فيهما أحد من قبل وهو المجلي في اكتشاف الغامض أو الرمز الذي شغل أفكار كبار الكتاب مدة من الزمن دون ما طائل وأثار كثيرا من المباحكات الأدبية دون ما جدوى وهو الذي كافح في سبيل انزال وغرس هذه الفكرة إلى أن استقرت وتحولت إلى مدرسة اقتبس تعاليمها المبرزون من تلامذته مثل بايول وفياغس، وله في هذا الصدد منشورات ذات

قيمة علمية لا تقدر. ونشر مقالات ممتعة في المجلة الاسبانية سنة 1878 - 1879 لها صبغة الانتقاد على الابحاث السابقة والشروح التي تقدمت. وبعد ان فرغ من كتابة سلسلة هذه المقالات في المجلات الشهيرة في مدريد وبرشلونة ختم بحثه بنشرة موفقة تحمل العذوان التالي: «ذيول للشعور الروحي في الكيخوطي» كان صدورها عن برشلونة سنة 1880. وفي شأن هذه الذيول قال احد مشاهير النقاد: «يمكن للولوعين بالكيخوطي ان يروا ويتصفحوا بحثا لو جرد مما فيه من رمز خاص غريب اراد ان يعثر عليه الباحث القدير في القصة الخالدة لوجدوا فيه الشيء الكثير مما يستلفت النظر ويثير الاعجاب ويبعث على الاكبار لشخصية ديث بنخوميه الذي درس الكيخوطي وتبحر فيه ممعنا».

ويصح التأكيد انه حتى سنة 1905 لم تظهر طبعة للكيخوطي ذات شروح وذيول لائقة يمكن ان تضاهى ماجاء به الباحثون في اول العهد وهذه الطبعة التي نشرت في الذكرى المئوية الثالثة لنشر الكيخوطي هي من ثمرات مجهود كليمنتي كورتيخون الذي وان كان قد انتقد ابحاث كليمنثين وهرتزنووث فقد امتدح شروح

بوولى وبما ان النقد كان قد قطع شوطا بعيدا بفضل الابحاث القيمة التى قام بها المولعون بسرفانطس فقد جنى لحساب بحثه أثماره الياضعة واذا بمؤلفه أوفى الابحاث التى نشرت الى ذلك الحين وأغزرها مادة. ولا تقتصر أهمية هذه الطبعة على الشروح فحسب بل تتعداها الى المقدمات والتوطئات والابحاث الموفقة التى أوضحت نقاطا هامة تتعلق بنص القصة الخالدة. ولم يتمكن المؤلف من رؤية عمله جاهزا تاما لان يد المنون كانت قد عاجلته عند شروعه في كتابة الجزء السادس والاخير من مجموعة أبحاثه.

ومنذ ذلك الحين أخذت تتوالى الطبعات المشروحة شرحاً صائباً نوعاً الا ان أصحابها كانوا يكتفون بالاخذ بعضهم عن بعض وقد تستثنى الطبعة الصادرة عن مدريد سنة 1911 لفرنسيسكو رودريغث مارين الذى رغم استفادته من أبحاث من تقدموه لو قوبل درسه بدروسهم لفاقها دقة وسبكا. ولقد أصدر هذا البحاثة فيما بعد أى سنة 1916 علاوة على طبعتين كان قد نشرهما آنفا الثانية منهما كتصحيح للاولى، درسامن أفضل الدروس قيمة يدل على انه من عارفي سرفانطس واسرار كتابه الشهير.

والى هنا نكتفى بهذا القدر من النقد الذى ظهر
 فى اسبانيا حول الكيخوطى الا اننا سنتحدث عن النقد
 الذى دبجته الاقلام الاجنبية وله علاقة بمؤلف سرفانتس
 ومع هذا فتبقى الاشارة الى نوعين من هذا النقد الذى
 بات مداره الكيخوطى: النوع الذى خصص لدرس الشكل
 والنوع الذى كرس لبحث الموضوع. اما الاول فقد شاع
 فى اسبانيا لتعلقه باللغة والتعبير وأسلوب المؤلف والثانى
 يتصدى لاشخاص الرواية وهو النوع الذى نعر عليه
 بوفرة فى الخارج .

وبين الطبعات الانكليزية التى ينبغى علينا ذكرها
 رغم عدم احتوائها على تعليقات مسهلة وانما فيها دروس
 قيمة كمقدمات اجمالية لكتاب سرفانتس نذكر
 أقدمها ألا وهى الطبعة التى ظهرت فى لندن سنة 1742
 مصحوبة بتعليق موجز لحارفس ، وطبعة اسمولت (لندن
 سنة 1753) غير ان كثيرا من شروح هذا مستقاة من
 ذاك، والشروح التى أضافها لوكرت (ايدمبوغ سنة 1822)
 هى شروح قيمة ومفيدة الا انها مأخوذة عن بليشر
 والمجمع اللغوى الاسبانى . والبحث الذى قام به آ. خ .
 دوفيلد جيد وشروحه كما ذكر على دقة الطبعة الصادرة .

عن لندن سنة 1881 مأخوذة عن بوبلى وبليشروكليمنشين وغيرهم ولكن شروحه الخاصة تدل على حسن ذوق ومعرفة لا يستهان بهما لكتاب سرفانطس . وسنة 1888 ظهرت طبعة جديدة للمكيخوطى في لندن ترجمة واتز ولا نقصد من ذكره هنا كمترجم بل كبحاث لان دروسه المدرجة في كل جزء مثل الفصول المخصصة للمنتشا ولاماديس دى غولا ولعبور سويرو دى كينيونس المشرف ولتاريخ ضون كيخوطى ولخرافة رولدان ولسحر مرلين ولغيرها كل هذه من الامور الصائبة التى تبرهن على مقدرة هذا المؤلف العلمية وتدل على سعة اطلاعه . وتنبغى الاشارة ايضا الى البحث القيم الذى قام به اورمسيبى والذى ظهر في صدر الطبعة اللندنية سنة 1885 . وكل ثناء يوجه الى شخصية جيم فيثزمورس - كلي ، قليل ففى سنة 1898 ظهرت طبعته القيمة لكتاب سرفانطس مرفوقة بالنص الاسبانى ومصححة تصحيحاً جيداً يشرفه ويجعله في مقدمة الباحثين الانكليز الذين تفرغوا لدراسة سرفانطس فاصابوا .

اما في فرنسا فحتى أواسط القرن التاسع عشر لم تظهر طبعات فرنسية تستحق الذكر . ولا قيمة للملاحظات

التي تقرأ في صدر ترجمتي فليودى سان مارتين وفلوران. ومع هذا فتنبغى الإشارة الى ان في الطبقات الاولى الصادرة عن باريس بعض الشروح لتنوير القراء ومثال هذا ان المترجم يصطدم بعبارة قد غاب عنه معناها أو لانها من تعابير الغجر أو لانها قليلة الاستعمال فيترجمها حسبما يستطيع وعلى الهامش يورد النص الاسباني أو ترجمة تقريبية، واذا وقع على تعبير عامي أو مثل أو تلاعب في الالفاظ عسرت عليه ترجمته أعطاه المعنى المقارب وفقا لما يميله عليه ذوقه وعلى الهامش وضع النبذة الاسبانية أو ترجمتها الحرفية بعد شرح المعنى بأحسن الطرق وأقرب الوسائل المستطاعة لديه. «وعلينا ان نذكر انه تقرأ شروح للاماكن وللعادات. ولدوبورنيال مترجم كتاب سرفانتس المطبوع سنة 1807 بعض المقاطع التحليلية التي يمتدح فيها صاحب المؤلف الاسباني الا انه لما عاد فطبع ترجمته سنة 1821 صدرها بمقدمة قابل فيها بين الكيخوطي والاليازه وقد أوحى اليه هذا ما فعله ريوس في الطبعة الاسبانية التي طبعها الجمع اللغوي الاسباني سنة 1780 وقد أبدى دى لونوا بعض الملاحظات وأردفها بالتعليقات على هذه الترجمة المطبوعة في باريس

سنة 1821 . وبعد سنوات أى عام 1826 ظهرت في نفس هذه العاصمة طبعة جديدة تتعلق بحياة سرفانتس ومؤلفاته من ثمار بروسبر مارييه وفي شروحها التي تشير الى ضون كيخوطى فائدة لا بأس بها الا انها تتطلع الى شروح بليشر .

ويمكن القول انه حتى سنة 1836 لم يتوصل الفرنسيون الى درس قيم حول الكيخوطي ، والمؤلف الاول من هذا النوع هو من منتوج لويس فياردو . وعنوانه : « اخبار عن حياة ومؤلفات سرفانتس ، تقدم على الترجمة التي أصدرها هذا المؤلف لكتاب العبقري الاسباني ولمنتوجته قيمتها في عالم الادب نظراً لدقة سبكها وغزارة مادتها ولا ينكر انه في كتابة سيرة سرفانتس استعان بأبحاث ميانس وبليشر وفرندث دى نفراتي وفي كتابة الشروح على نص ضون كيخوطي استنجد بيوولى وبليشر وكليمنثين الا ان هذا لا يحول دون الاعتراف أو الاشادة بمؤلفه . وأما المترجمون الالمان وأصحاب المطابع فلم يبرزوا في نشر طبعات ضون كيخوطي ولا بما احتوت عليه هذه من شروح وتقرأ الابحاث التي دارت حول هذه الرواية في المقدمات لا في الذيل المضافة

على متن الكتاب وجلها ان لم نقل كلها لا تسترعي
الانتباه.

واما الطبعة الايطالية التي ظهرت سنة 1622 ففيها
بعض الايضاحات للنص كالتى تحدثنا عنها في الطبعات
الفرنسية الاولى لضون كيخوطي ولم ينشر فيما بعد
اي كتاب اضافي.

وفي بقية اللغات الاوربية خصص اقل من القليل
من البحث المجرد المقتصر على متن ضون كيخوطي واما
الابحاث التي نشرت فكانت تحلل كتاب سرفانطيس
من الوجهة العامة دون ان تتعرض الى تفاصيل القصة.
واستنادا الى ما تقدم يمكننا ان نقول ان نشر
الكيخوطي يعد نجاحا مطيعها باهرا سواء كان فيه شيء
من الفلسفة ام لا وسواء كان هجاء قارسا ضد كتب
الفروسية او انه مجرد كتاب يشير الى كيف ينبغي
ان تكون تلك المنتوجات الادبية. ولقد تسنى لمؤلف
ضون كيخوطي رؤية ترجمتين لكتابه الشهير واتيح
للانكليز والفرنسيين معرفة اعمال البطل المنتشاوي
بلغتهم. ويخبرنا فيتز مورس-كلى كيف ان انكلترا
كانت اسبق الامم الى ترجمة الكيخوطى عندما كتب:

«ان كتالينا دي اراغون لدى تزوجها من هنري الثامن
استصحبت الى جامعتي اوكسفورد ولندن عددا كبيرا
من العلماء الاسبان الذين انشأوا التبادل الروحي والثقافي
بين البلدين».

ولاريب في ان اول امة ترجمت الكيخوطى الى لغتها
هى انكلترا وذلك سنة 1612 اما اذا حكمنا على ترجمة
شلتون اليوم فقد نجدها كثيرة العيوب تنقصها الرشاقة
وفي بعض المقاطع يسود الالتباس فيتعذر فهم النص الحقيقى
ولكن لو رجعنا القهقرى الى ذلك العصر لوجدنا ان
المترجم الانكليزي قد قام بعمله ولقلنا انه من الذين
يشنى على امانتهم اذ انه قد ترجم الامثال والحكم والاشعار
حرفا بحرف. ويقول لنا احد مشاهير الكتاب الانكليز
المولوعين بسرفانطيس وادبه وهو دوفيلد: «ان شلتون
كان رجلا ذا صبر محبا للعمل كثير الحماس لكتابته».
ويكتب بعد هذا بقليل فيقول: «ان افضل الوسائل
لانعكاس النور هو الزجاج الذي يسمح برؤية الامور بجلاء
وصفاً فهذا ما ينطبق على شلتون نظرا لتواضعه وامانته
وهو حتى يومنا هذا افضل المترجمين الانكليز واجودهم

في نقل ملاحه وجمال الكيخوطى ومع هذا فشلتون اليوم لايفدره غير الدارسين الماهرين».

ونقول بعد ان نصرب صفحا عن ذكر عدد وافر من المترجمين الانكليز وعن الترجمات المختصرة المعدة للمدارس الاولى ان افضل ترجمة ظهرت اخيرا في انكلترا هى ترجمة ر. شميث؛ صدرت عن لندن سنة 1914.

ولئن كان عدد المترجمين الانكليز ضخما فلا يقل عنه عددهم في لغة راسين وموليير. وقد كان اولهم اودان كاتب ملك فرنسا، الذي ترجم ترجمة حربية كثيرا من المقاطع واتى في غيرها على ذكر فكرة المؤلف بصورة اجمالية وبين اسلوب اودان المترجم للجزء الاول الصادر عن باريس سنة 1614 وبين اسلوب روسه مترجم الجزء الثانى بون شاسع. وظلت ترجمة الاثنين تظهر حتى سنة 1677 تاريخ نشر ترجمة فليو دي سان مرتين التى احرزت شهرة واسعة واعيد طبعها مرات ومرات وقد شاعت في غضون القرن التاسع عشر شيوعها فيما مضى فاختصرت واتخذت منها نصوص موجزة. ونغفل هنا ذكر اسماء الكثيرين من المترجمين لنقول انه سنة 1821 اصدر

دي لونوا ترجمة لاتخلو من العيوب الا انها اذا ما
قيست بالترجمات التى تقدمت لاعتبرت افضل منها.
وفي سنة 1826 اخرجت مطبعة ديبوشه وشركاه
الباريسية ترجمة تتم عن خطوة واسعة في هذا المضمار
ومن رشاقة وظرافة اسلوبها اتضح انها لفياردوت وبالرغم
من الانتقادات التى وجهت اليها شكلت نجاحا عظيما
واعيد طبعها مرارا ولا تزال تطبع حتى اليوم. ولايجمل
بنا السكوث عن ترجمة ظهرت سنة 1847 في باريس
لداماس هينارد تستحق كل تقدير واعتبار برغم صحة
استنجاد صاحبها بمقاطع من ترجمة فيادورت.
وصفوة البحث يصح ان نقول في الترجمات والمترجمين
الفرنسيين ما قدمناه عن زملائهم الانكليز ولئن سبق
اولئك هؤلاء.

واما الترجمة الاولى للكيخوطى في الالمانية فيرجع
تاريخها الى سنة 1621 لصاحبها فون درشوهلى وليست
من الترجمات الكاملة بل مقاطع مؤلفة من 22 بابا،
وحتى سنة 1669 لم تعرف سوى ثلاث ترجمات لكتاب
سرفانطيس، وبعد سنوات قليلة ظهرت ترجمة اخرى تحمل
الحروف الاولى من اسم صاحبها خ. ر. ب. وهى وان لم

تكن تامة فمقبولة وتنم على ان صاحبها كان جاهلا
 باسرار اللغة الاسبانية، وظهرت سنة 1734 في لبزغ
 ترجمة جديدة ذات توطئة قيمة تقابل بين متن الرواية
 والترجمات المتداولة وقد استعان صاحبها الذي اغفل
 ذكر اسمه بالترجمة الفرنسية لفيلو دي سان - مرتين.
 وحتى سنة 1775 لم تظهر في المانيا ترجمة يصح ان يقال
 فيها انها كاملة او مقبولة ومن حقنا ان نشير الى ان
 هذه الترجمة التي طلعت في هذه الحقبة لم ترض
 النقد لانها علاوة على حذفها مقاطع من الكيخوطي
 تتصرف تصرفا بعيد المدى في نقل التعابير فتكون
 ترجمة برتوش وهو اسم صاحبها، غير وافية الا انها
 تفوق بمراحل الترجمة الصادرة سنة 1734، وفي وسعنا
 ان نوكد ان الالمان لم يحرزوا على ترجمة ضافية
 للكيخوطي حتى سنة 1799. فلو نظر الى ترجمة تيبك
 نظرة مجردة لوجدت انها لاتستحق الاطراء البالغ الذي
 خلعه عليها شلجل كما انها لا تستأهل الانتقاد المر اللاذع
 الذي وجهه اليها هين اما الترجمة فلم تكن صائبة على
 طول الخط وقد وقعت في نفس الهنات التي ترحلق فيها
 فون درشوهلي مثل جعل اسما العلم في مقام النعوت

واسماء الجنس الا انها من جهة اخرى تستوعب اصابات موفقة من حيث ترجمة الكتاب بفصه ونصه تدل على سعة اطلاع على خفايا اللغة الاسبانية اكثر من الترجمات الانفة الذكر. وظهرت سنة 1819 ترجمة ليوتز يضا هي اسلوبها من حيث الرشاقة اسلوب تيبك وتفوقها امانة، وطفقت تترى الترجمات الى ان ظهرت سنة 1884 ترجمتان الاولى لبرونفلز جد امينة خير ما فيها التوطئات او البحث الانتقادي الذي صدر به مؤلفه، والثانية تصحيح لترجمة برتوش بقلم ولزوجن.

وفي اللغة الايطالية ظهرت ترجمة الكيخوطي الاولى سنة 1622 بقلم لورنزو فرنشيو زيني ومقامها كمقام ترجمات شلتون الانكليزي واودان وروسه الفرنسيين وبالرغم من التحويرات الطفيفة التي ادخلها المترجم في متن الرواية فترجمته جديرة بكل تقدير. وسنة 1818 ظهرت ترجمة جديدة مقبولة لكتاب سرفانطيس لبرطولومه غمبا، تحيد في مجموعها عن نص القصة وتقل عن ترجمة فرنشيو زيني امانة الا ان اسلوبها ارقى وابلغ، ومن ميزات غمبا ايضا ترجمة الاشعار التي في كتاب سرفانطيس،

ثم صحح هذه الترجمة واعاد نشرها في ميلان سنة 1840 فرنشيسكو امبروسولى.

ونشير كذلك الى الترجمات المعدة للاطفال التي قام بها المانزي ودي سان جيستو.

ويلي الترجمات الايطالية حسب الترتيب التاريخي الترجمات الهولندية والروسية والدنماركية والبولندية والبرتغالية والسويدية والمجرية والرومانية واليونانية والتركية والبلغارية والاسبرنتية واليابانية والهندوسية والعبرانية والنروجية والقطلونية الخ..

وفي معرض الكلام عن ترجمات الكيخوطي الى اللغات الحية تنبغى الاشارة الى ترجمة عربية موجزة منقولة عن الكتب المدرسية الفرسية بقلم عبد القادر رشيد طبعت في المطبعة السلفية بمصر عام 1341 امان حيث قيمة هذه الترجمة فيكفى ان نقول انها مكتوبة بلغة صحيحة وتقع في مئة وخمسين صفحة من القطع الربع تتخللها صور تكاد تستغرق نصف الكتاب على صغر حجمه.

صور الكيخوطى الفنية

لئن كان ضون كيخوطى يفتح ميدانا واسعا امام ارباب الاقلام لا ينضب معينه فالمجال الذى يفسحه للفنانين لا يقل عنه رحابة ، فصورة البطل تحمل على اعمال الفكر منذ اللحظة الاولى وان كان سرفانطيس قد وصف بعض تقاطيع سحنته فكل قاري يتصوره ويتوهمه حسب ما تملي عليه مخيلته فمن القراء من تخيله بلحية ومنهم بدون لحية وبشوارب مسترسلة وغيرهم تصوره اسبل او مجزوز الشارب وان اتفقوا جميعا على انه قاحل، وما قلناه في المشاء او الرحالة يصح ان يقال في حامل درعه او مرافقه الامين. وكم شغلت من افكار لحيتنا السيد والخدام! ولو تسنى لنا مشاهدة اللوحات التي اعدتها ريشة الفنانين من اسبان واجانب لتمثيل هاتين الشخصيتين لآخذتنا الدهشة ولتأكدنا ان ما من لوحة او رسم عرض في المعارض المختلفة نال شرف الفوز في مصادفة التقاطيع المناسبة لشخصتى ضون كيخوطى وسانتشو كالتى يتصورها القاري من بحر هذه القصة الخالدة بلغتها الاصلية

ويؤكد هذا ما قدمناه من ان كل قاري يتصوره تصورا مخالفا لتصوير الاخر.

واما الصور التي تشاهد في كتاب سرفانطيس الخالد فهي تلك التي ازدانت بها الطبعات التي صدرت سنة 1605 عن لشبونة وبلنسية الا ان النماذج لم تصنع بطريقة خاصة لهذه الطبعات كما ان الرسم الذي ظهر على دقة الطبعة البرشلونية الصادرة سنة 1617 لم يكن مصنوعا لها وانما صنعنا للطبعة الثانية التي صدرت عن لندن في نفس السنة وفي السنة التالية نقل هذه الصورة صاحب الصورة التي ظهرت على الطبعة الفرنسية الصادرة سنة 1618. ففي هذه الصورة يبدو ضون كيخوطي وقد لحق به سانتشو والى الورا جوفاً على رأس الجبل مطحنة هوائية. وقد كتب الرسام الشهير ج. ل. بليشر: «ان هذه الصورة التي نقشت من الخشب قد جاءت بديعة للغاية وبغض النظر عن سذاجة الرسم الظاهر في الركوب تجب ملاحظة قسمت الشخصين في هذه اللوحة التي تختلف اختلافا بائنا عن القسمات التي حددت لكل منهما، فضون كيخوطي فارس شريف وذكي واما سانتشو فليس بذلك الرجل البدوي الحشن الجلف المتعارف عند

العامة، ان نظرتة لثاقبة تتوقد فيها المهارة ومظهره ينم عن سخرية مأكرة ومن هندامه بصورة اجمالية يبدو كانه رفيق لسيدة. ولولا الخوف من ان يعزى لوهم غير مقصود او لقصد سبق تصوره لاكدت ان رأس ضون كيخوطي لينذكرنى بشكسبير كما واننى رأيت في في قسمات سانتشو قسمات جون بول وقد اختلقتها فكاهة الفنانين الانكليز».

وظهرت سنة 1657 في امستردام ترجمة هولندية فيها 22 صورة من صنع احد الاخوين سفري ويتضح من مجرد النظر الى شخصيتى ضون كيخوطي وسانتشو ان صاحب تلك الرسوم ليس باسبانى. وانتقلت لوحات الطبعة الهولندية سنة 1663 الى بروكسيل فاستعان بها الطابع وكلف بوطانس ان يضع له صوراً اخرى يزين بها الكيخوطي الذي سيصدر عن مطابعه، وهكذا كان، فاذا بصور الطبعة البلجيكية تصلح لغيرها من الطبعات.

وصدرت عن لندن سنة 1687 طبعة انكليزية فيها ثماني صور لم تحمل اسم صانعها الذي لم يحسن تخيل هيئة النبيل الشهير بطل رواية سرفانطيس والى جانب كل هذه الطبعات التي ظهرت في هذه الحقبة، صدرت

عن لندن سنة 1700 طبعة صورها تفوق صور الطبعات المتقدمة وتعد خطوة موفقة جاءت لتحلى كتاب سرفانطيس. واما الطبعات التي ظهرت في غضون القرن الثامن عشر فهي افضل الطبعات التي عرفت لحد الان من حيث الاتقان والابداع في الصور ولنا ان نمتدح رسوم كويل التي لاريب كان ظهورها سنة 1725 او 1724 وكذلك الطبعات اللندنية التي صدرت بين 1738 و1742 والطبعة الممتازة التي اخرجها المجمع اللغوي الاسباني سنة 1780 في مدريد.

اما كويل فقد صنع 25 لوحة عن ضون كيخوطي لتزيين قصر كومبنيه الملكي وقد استحالت هذه اللوحات فيما بعد بقليل الى بسط واعتنى الرسامون والمصورون الفرنسيون بعد ذلك باعادة نسخ هذه البسط لتزيين الطبعات الفرنسية العديدة.

وافضل هذه الطبعات الطبعة الاسبانية المقدمة الى الكوندسا دي مونتيخو وقد ارفقها صاحب التقدمة بهذه العبارات: «لاشك في انك تغضين الطرف عن العيوب التي قد تعثرين عليها في الصور سيما وان الطبعة صادرة عن بلاد اجنبية حيث يتعذر على المبدعين الاطلاع على

الازياء الاسبانية وغيرها من الامور التافهة تمام الاطلاع والتي قد تجددين فيها بعض النقص». ولئن كانت الصور فائقة تثير الاعجاب فقد نقصها اللون المحلي وهذا مما يسهل فهمه اذ انها تحس وتنطق بما في البيئة الانكليزية من حياة والوان لحد يقال معه ان رأس ضون كيخوطي في اللوحة التي تمثله وهو يطالع تذكرنا بهيئة شكسبير في شئ من الابهام.

واما الطبعة الانكليزية التي ظهرت سنة 1742 فقد اخذت صورها عن الطبعة الاسبانية الصادرة سنة 1738. والطبعة الاسبانية التي خرجت في مدريد سنة 1784 تحت رعاية المجمع اللغوي الاسباني تشرف كل من ساهم في اخراجها فصورها بديعة خارقة ساهم في رسمها اشهر الفنانين الاسبان على الاطلاق. وقد يقال ان الفنانين لم يهتدوا الى خلق البطل المنشاوي فمثل هذا يصح ان يقال ايضا في اعظم فنانى العصر التاسع عشر، ففريق منهم جعله دائما ذا قامة طويلة وفريق آخر لم يراع التوازن في رسم اعضا جسمه. ولقد قال المجمع اللغوي في تصدير طبعته انه من اجل التصوير استلهم الرسوم والصور العادية اي انه التجأ الى الصور التي من عهد سرفانطيس

لتكوين فكرة عن الملبوس والتجأ الى سلاح الملك
لتكوين فكرة عن المعدات الحربية.

وفي الطبعة الرابعة التي اخرجها المجمع اللغوي
الاسباني في مدريد سنة 1819 صور لسرفانطيس ذات
قيمة ومع هذا فقد قصرت عن الصور التي في طبعة سنة
1780 وهذا لايغنى خلوها من الصبغة المحلية وسنة 1826
ظهرت في فرنسا طبعة من كتاب سرفانطيس مزينة
برسوم بريشة طوني جوهانو رغم ما فيها من عيوب فنية
صادفت ارتياحا عظيما واعيد طبعها مرات في مختلف
البلدان الاجنبية واغدى عليها النقد المدح والثناء. ومن
افخم الطبعات التي ظهرت للمكيخوطي سنة 1859 الطبعة
البرشلونةية تقع في جزئين، وساهم في رسومها الفنانون
الاسبان، والطبعة التي خرجت في باريس سنة 1863
رسومها لغسطاو دوره وسرعان ما تحولت لوحاته الى
ضرورة ماسة لسائر الطبعات الفخمة فاعيد طبعها في
اسبانيا، والمانيا، وايطاليا، وانكلترا، وروسيا، واميركا،
فلوحاته هذه تصون في صورها جلاله الفن والعبقريه
رغم انها لم تتوفق الى خلق بطل سرفانطيس.
ويكتب سنة 1873 طوماس مرتينث في مؤلفه «بعض

معلومات لتزيين الكيخوطي بالرسوم» ان كتاب سرفانطيس «لم يلق حتى الان الفنان الذي يفهمه ويعرض تماما بواسطة قلمه ولوحة تصويره الخلق الحقيقي للبطل المنتشاي. أيقوم هذا على ان المؤلف لم يصفه وصفا موافقا؟ كلا وإنما سبب الخطأ في عدم اجادة تصويره هو ان الفنانين الذين اعتنوا واهتموا بذلك انما افرغوا جهدهم في تصويره رجلا قاحلا وعندي ان في الكيخوطي شيئا اكثر من هذا وحده، وهو التمثيل لوسواس عصره وجنونه جنونا محموما بكتب الفروسية التي افرغت خلاصتها كما ينبغي في رجل معنوه له من هذا القبيل ثقافة تعلو على الحد الوسط، يقع في حيرة عند ما يتكلم او يفكر او يحترف هذه المهنة الوهمية» ولقد اصاب الناقد، فالرسامون والمصورون والنحاتون لم يتصلوا اتصالا مباشرا بشروح الكيخوطي عند ما ارادوا ان يخرجوا على لسان الفن احد الموضوعات التي يوحى بها كتاب سرفانطيس، فمن تحصيل الحاصل ان يتقلب خلق المشاء الشهير وفقا للمواقف والمقاطع وان كان الفنانون قد رسموه قاحلا فهذا لايعنى انهم قد اصابوا في تمثيل السويداء التي كانت مستحوذة عليه

بشكل دائم ولا توقفوا الى اخراج روح الكبرياء
والفروسية التي ما كانت لتفارقه لحظة واحدة، وما اعظم
الفرق بين موقفه وهو يقول في قلب بادية الماتتشا: «ما اسعد
ذلك القصر وما ايمن تلك الايام»... وموقفه الاخر اذ يقول:
«لا وجود للعصافير اليوم في اعشاش الامس»، وكم يختلف خلق
البطل في هذا عنه في موقفه وهو في الفندق يجادل ويؤكد ان طست
الحلاق انما هو خوذة ممبرينون وعن موقفه في دار
الدوكي وهو ممعن في مجادلة الكاهن. ويقول اونا مونو:
«ان قوة الحقيقة في ضون كيخوطي توجد في نفسه الاسبانية
والانسانية وفي حقيقة صورته التي تعكس مثل هذه
النفس». ولكن قد يسأل سائل: أعلينا ان نستخرج نفسه
من هيئته أم هيئته من نفسه؟ ويضيف ان من قسمات وجهه
وخلقه الطبيعي يمكننا بواسطة مزاجه ان نلمح شيئا اكثر
من حقيقة نفسه، الامر الذي يجيب عليه ضون كيخوطي ذاته
لدى وصفه في الباب الاول من الجزء الثاني ملامح اماديس
ورينلدوس ورولدان اذ يقول: «من الافعال التي قاموا بها
والطباع التي تحلوا بها يمكن ان يستدل باعمال الحكمة
على ملامحهم والوانهم وقاماتهم».

- VI -

موضوع الكيخوطى

يبتدى موضوع الرواية في مكان من المنتشا
 يزى بليشر وكليمثين وغيرهما انه ارغماسيا دي البا
 حيث كان يعيش رجل شريف عازب ذو مكانة متوسطة
 ولوع بقراءة كتب الفروسية، الامر الذي دفعه الى تبذير
 امواله وبيع بعض املاكه للحصول على اخبار الابطال
 المشائين الرحالة، ومن قلة النوم وكثرة المطالعة - كما
 يقول الروائي - نشف دماغه وجف فاذا به يصاب بخبل
 يحمله على الاعتقاد بان كلما كان يقرأه صحيح ولشدة
 حماسه لهذه الفكرة التي رسخت في رأسه رسوخ
 الايمان بل اقوى، اوحى الى الطيب النية الونصو
 كيخانو - وهو اسم الشريف - جنونه بامتهان حرفة الفارس
 المشاء الرحالة ووضعها موضع التنفيذ وفقا لما قرأ وطالع.
 ولكن قبل خروجه الى العراء للبحث عن الاخطار
 والمجازفات، راح يعود حصانا هزيلا كان له وصفه
 بالقوة والجمال ثم اتخذ اسلحة كانت عنده ورثها عن

اسلافه فنظفها وجلاها قدر المستطاع واصطنع له من اسمه اسما جديدا اضاف اليه اسم مقاطعته فاذا به يصبح ضون كيخوطي دي لامانتشا، وتذكر ان الفرسان الرحالة ينتقون سيدة الافكارهم يقدمون لها احتراماتهم فطراً له انه في شبابه كان مغرماً بفتاة فلاحية من احدى القرى المجاورة فرأى من المناسب جعلها سيدة افكاره ولما لم يرق له الاسم الذي كان لها - وهو الوندرا لورثو - اسماها دولثينايا دلطوبوسو.

ولما فرغ من تدبير كل هذا في صبيحة يوم من أيام شهر يونيه (حزيران)، دون ان ينذر احدا من اهل بيته، خرج الى العراء مزودا بالعزم الاكيد لمجابهة وركوب كل الاخطار والمجازفات التي تتصدى له.

واما وهمه المحموم فكان يحمله دائما لا على رؤية ما كان يقع تحت بصره بل ما كان يحوم عليه خياله وبينما هو كذلك جاد في طلب الاخطار، شاهد في قصر - هو في الواقع فندق - فتاتين من ادنى طبقات المجتمع فحبسهما سيدتين من رificات القوم ونادى صاحب الفندق بصاحب القصر وبهذه الوسيلة دخل ضون كيخوطي الى عالم الفكرة السامية فرفع نفسه الى رتبة

فارس في نفس الفندق ثم يخرج منه بعد قليل عازماً على اقتحام اعظم المواقع والاتيان بالاعمال الخارقة التي لا يتصورها بشر.

ما كاد يترك الفندق ويتوغل في غابة حتى سمع استغاثة موجهة فاذا به امام رجل يعصو فتى، فتحركت فيه همه الفارس التي اراد ان يظهرها فوعظ الرجل وحمله على فك عقل الفتى الذي كان قد شد الى جذع شجرة وما ان اتم للفارس المغوار هذا حتى اعتلى صهوة جواده وذهب ولكن الرجل عاد الى متابعة مشروعه ولم يقلع عنه الا بعد ان ترك الفتى بين الموت والحياة، ولما خرج الشريف المنتشاي من الغابة التقى بتجار من طليطلة فاوقفهم وطلب اليهم ان يعترفوا بان دولثينايا دلطوبوسو هي اجمل امرأة في العالم، فاجابه المسافرين ساخرين فاثارت هذه السخرية غضبه وانقض عليهم ورحه في راحته الا انه قبل ان يصل اليهم وينزل بهم الاذى، تعثر الحطان وسقط الفارس فاسرع خدام التجار الى مكافأة المشاء بضربه ضرباً مبرحاً الى ان تركوه في الخلاء بين ميت وحي. وبات على الحضيض مهشم الاعضاء وبعد قليل شرع - لافي الانين اذ ان هذا شائن في حق الفرسان

المشائين الرحالة - بل في انشاد الموشحات من نظم
 المركيس دي منطوا وبينما هو على هذه الحال مر به عرضا
 احد جيرانه فحمله الى داره، وكان في يقين وصيفة ضون
 كيخوطي وابنة اخيه (أو اخته لان الكلمة في الاسبانية
 تحتمل المعنيين) ان سبب جنونه انما يعود الى كتب
 الفروسية فقررتا ان تجعلها طعاما للنيران. واما ضون
 كيخوطي فبعد ان استراح عدة ساعات نهض من فراشه
 وراح ليستفقد خزانة كتبه فلم يعثر على باب الغرفة
 فتوهم ان احد السحرة فعل هذا، ومع هذا فكان
 الكاهن والحلاق يحاولان حمله على ترك تلك المهنة
 الوعرة، غير ان ضون كيخوطي كان قد اقنع جارا له
 وهو رجل سليم الطوية لكنه قليل ملح الجمجمة ليذهب
 الاثنان في طلب المجازفات على ان تكون لساتشو باتتا
 - وهو اسم ذلك الجار - صفة حامل الدرع مقابل تعيينه
 حاكما لاول جزيرة او اراضى يفتتحها وتكون لحاكمها
 مرتبة دوكي، وقد دفع الجشع ساتشو الى قبول الاقتراح
 الذي عرضه عليه ضون كيخوطي، وفي احدى الليالى دون
 أن ينذرا اقاربهما بالامر، تركا القرية، الاول ممطيا صهوة
 جواده «روثيننتي» والثاني راكبا حماره «روثيو».

وفي رابعة النهار ابصرا ما يقارب 30 او 40 مطحنة هوائية عدها ضون كيخوطي مرده جبابرة ثم اصطدم برهبان فتوهمهم قطاع طرق وبارز خادم احدى السيدات وهو في طريقه الى اشبيلية وفيما بعد التقى بمعارزة فقضى ليلته عندهم وحضر دفن راع عاشق، وبعد ان استودعهم اصطدم باناس قساة القلوب، من ينغواس فعصوه وعصوا سانتشو الى ان هشموا اضلاعها واخيرا تمكن من بلوغ الفندق حيث ضمدت جراحه، وفي نفس البيت الذي اعد للسيد والخدام كان يبيت أكار من اربيلو فبينما كان الكل هجعا والليل ينوخ بجوؤ جوئه على الاجفان وقد استثنى جفني ضون كيخوطي والاكار، ظهرت خادمة تلك الدار، الوفية العهد مريطورنيس - وهو اسم تلك الخادمة - فعانقها ضون كيخوطي ظنا منه انها ابنة صاحب القصر التي جاءت لتبوح له بلواعج صدرها، وما ان تيقن الاكار من ان الفارس المغوار لن يخلو سبيل الفتاة قصده وطفق يلكمه ويلكم سانتشو الذي كان يغط في نومه، فعلا الصراخ الى ان نهض كل من كان بائنا في الفندق وتساقطت الصفعات والضربات من كل جذب وصوب في الظلام الدامس الى ان عادت السكينة فاسرعوا

الى نجدة ضون كيخوطي الذي خالوه ميتا، وفي اليوم التالي تركا تلك الدار المنحوسة بعد ان قذف سانتشو المسكين قذفة اللجاف.

ولدى خروجهما من الفندق شاهدا عجاجا متطائرا كاد يحجب نور الشمس ولما اقتربا لاحظ سانتشو ان قطيعي غنم يكدحان صوبهما غير ان ضون كيخوطي اصر على انهما جيشان عرمرمان يستعدان لخوض معركة فاصلة فجرد رمحه وانطلق مغيرا على احدهما فقتل بعض الاغنام وما كان من الرعيان الا ان استقبلوه برشقهم اياه بالحجارة التي انهالت عليه كشآبيب المطر فسقط عن صهوة جواده بلا حراك، فبادر مرافقه وحامل درعه الى اغاثته من تلك الحادثة وهجرا تلك الاماكن وواصلوا جدهما في طلب مجازفات جديدة، ولم يطل بهما المسير حتى شاهدا في الليل البهيم انوارا تتلأأ فظنا ان هناك امرا خارقا فتربصا وباقا ينتظران وصول ذلك الشئ الذي استرعى انتباههما، فاذا بذلك الشئ جنازة فتصور ضون كيخوطي حملة النعش اطيافا ينقلون فارسا جريحا فهجم على الفريق الاول واجبر الباقيين على تركهم اولئك بعد ان جرح احدهم وبهذا تأكد له انهم ليسوا بملصوص

بل من رجال الدين، وبعد قليل وفي تلك الليلة ذاتها
سمع صليل سلاسل وضربات عنيفة وخيرير مياه، فذب
الذعر في صدر سانتشو وبات ضون كيخوطي رابط
الجأش يتربص محيئاً النهار ليقوم باحد الاعمال التي لم
يعرفها التاريخ ولا شهدت مثلها الايام غير انه لما برز
الصباح رأيا مصانع مائية لقشر القنب، ثم بينما هما في
طريقهما شاهدا رجلا يقترب وعلى رأسه شئٌ براق فتوهم
ضون كيخوطي ان ذلك الشئ هو خوذة ممبرينو، فهاجم
ذلك الرجل فولى هاربا وسقط ما كان على رأسه فاذا
به طست حلاق، الشئ الذي لم يصدقه ضون كيخوطي
بل اصر على انه الخوذة المزعومة، ولم يطل به المقام
حتى التقى بجمهرة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة
في الجواري وما ان انتهى الى الفارس المشاء انهم ذاهبون
قسرا حتى تجرد للدفاع عنهم ووثب لمقاتلة الحرس
وما ان رأى المحكوم عليهم هذا النزاع حتى حلوا
قيودهم وانضموا الى ضون كيخوطي فهرب الحرس وتركوا
للمساجين حريتهم الا ان ضون كيخوطي طلب اليهم
ان يذهبوا الى قرية طوبوسو ليقدموا طاعتهم وولاءهم

لدولثينايا، فسخروا من هذا الطلب فشتهم النبيل فما كان منهم الا رشقوا بالحجارة السيد والخادم وفروا بعد ان سلبوهما كل ما كانا يملكانه.

ولكن احدهؤلاء المساجين اقترب امرا اصاب به من سانتشو الصميم وهو انه سرق له حمارة تحت جناح الظلام وحين تغلغل السيد والخادم في سلسلة جبال «سيرامورينا» تذكر ضون كيخوطي كيف كفر اماديس دي غولا في «صخر الفقير» عن ذنوبه وعزم على ان يحدو حدوه واوفد سانتشو كي يقرى دولثينايا السلام. ذهب الخادم او حامل الدرع او المرافق وسرعان ما التقى بالكاهن والحلاق فسألاه عن سيده فارشدهم الى المكان الذي تركه فيه، فعزما على ان يخرجاه من تلك الجبال الوعرة بواسطة حيلة قوامها كتب الفروسية واعمالها، فبدل الكاهن زيه ولبس حلة اميرة من مملكة ميكو ميكون جاءت لتطلب حماية الفارس، وكان على الحلاق ان يرافق الاميرة المنكودة الحظ. دخل الثلاثة في قلب تلك الغابة فصادفوا كرينيو الزاهد في الحياة بسبب حبه التعيس والذي راح يعيش عيشة الانفراد والعزلة في تلك البقاع الموحشة وبينما هم في البحث عن ضون كيخوطي

عشروا بالقرب من احدى الغدران على امرأة بلباس رجل
 فدنوا منها وتحدثوا اليها فاخبرتهم بسبب وجودها في هذه
 الغابة وبهذا الزي. وبينما هم على هذه الحال كان
 سانتشو قد ذهب وراء سيدة ثم التقيا بالكاهن والحلاق
 غير انهم تعجبوا من رؤية كاردينيو ودورتيه - وهو
 اسم الفتاة - التي مثلت دور الاميرة وقام الحلاق بدور
 الخادم، وتوجه الجميع الى المكان الذي كان يقيم فيه
 ضون كيخوطي فعشروا عليه وافضت الاميرة بما يحز
 قلبها، فقدم الفارس نفسه للدفاع عنها مهما كلف الامر،
 وسار الجميع في طريقهم الى الفندق، نزلوا في الفندق
 فترك ضون كيخوطي رفاقه وذهب يطلب الراحة وشرع
 الآخرون في قراءة رواية لقتل الوقت، عنوانها: الفضولي
 الممل، الا انهم قبل ان يتموا قرائتها سمعوا صياحا في
 غرفة النوم، فدخلوها ووجدوا الفارس المنتشاي راقدا
 وقد اعمل سيفه في رقاب اعداء اميرة ميكو ميكون ومزق
 ظروف وقرب الحمر وفيما هم كذلك وصل الى الفندق
 جماعة من الضيوف عرف من بينهم كاردينيو حبيبتة
 وعرفت دروتييه زوجها وما ان تعارفوا حتى عادت المياه
 الكدرة الى صفائها، الا ان الدنيا ضاقت في عيني سانتشو

عند ما تأكد لديه ان دورتيه ليست باميرة مملكة
 ميكو ميكون، وما كاد المرافق المسكين يستريح
 بعد من عبء هذه الوعة الهائلة حتى فوجئ بدخول
 اناس آخرين الى الفندق قوامهم: رجل مسيحي قدم
 حديثا من بلاد المسلمين وبصحبه امرأة مسامة. ولما
 ارخى الليل سدوله دارت مباحثات في افضلية الجندية
 على الادب، فوقف ضون كيخوطي والتقى خطابا استولى
 بفصاحة لسانه وصائب ارائه على الالباب وسحر القلوب
 ثم بعد هنيهة قص الرجل الذي وصل حديثا من بلاد
 المسلمين قصته وقصة غرامه بشريده - وهو اسم المرأة
 المسلمة التي جاءت معه -.

ولما فرغ الاسير من رواية قصته دخل الى الفندق
 جمهرة من الناس في رفقة الحاكم ضون خوان بيريث
 دي فيدما الذي ظهر انه شقيق الاسير. وكان في معية
 الحاكم ابنته التي تتبعها شاب من اشرف العائلات
 الاراغونية، واستمع ليلا من في الفندق الى اغنية عذبة
 انشدها البقال الذي لم يك سوى عاشق كلارا - وهو
 اسم ابنة الحاكم - وبيناهم كذلك شاهد ضون كيخوطي
 فتاتين في الشباك فدنن منهما فاوثقتاه بمكر الى قضيب

الشباك، واسرع الناس على صراخ البطل ولكن في تلك
اللوثة صادف دخول اناس آخرين الى الفندق هم خدام
ضون لويس - وهو اسم عاشق ضونيا كلارا - الذين
جاءوا يبحثون عنه ليردوه الى داره. وكان ما روى
حتى الان لم يك كافيا لكي يظهر في هذه اللحظة
الحلاق الذي كان قد فقد الطست على اثر هجوم ضون
كيخوطي عليه، وقد جاء مطالباً به، ولم يتخل الفارس المشاء
الرحالة عن غنيمته بينما كان الحلاق يحاول انتزاعها
منه قسرا والناس يصرخون ولا احد يسمع ماذا كان
يقال الا انه عادت اخيرا المياه الى مجاريها فقرر الجميع
ان تترك الامور كما هي عليه، وان يشرع في اخذ
التدابير لارجاع ضون كيوخوطي الى داره ومن اجل هذا
حملوه على الاعتقاد بانه مسحور، فاركبوه عجلة وهكذا
ترك الفندق في قفص قاصدا ادارته، وفي الطريق توقفوا
عن السير طلبا للراحة في احد المروج حيث صادفوا
معاز اطفق يشرح قصة غرامه فتدخل في الامر ضون كيوخوطي
الذي كان ساعته خارج القفص وصرح انه يتعهد بوضع
حد لما قاله المعاز بقوة عضده المقتول فما ان رأى المعاز
ان ضون كيوخوطي يسخر مما رواه حتى شتمه ولعن

ساعة مولده فاستأضون كيخوطي الذي ما كان عنده
 للهزل مكان واشتبك الاثنان في عراك دام الى ان رن
 صوت صور فطلب ضون كيخوطي من المعاز هدنة وما
 ان منحه اياها حتى أدار وجهه وقصد المكان الذي سمع
 منه ذلك الصوت، فشاهد من بعيد اناسا يحملون تمثالا للعدرا
 في طواف فتقدم ضون كيخوطي منهم ليتحقق ما هو ذاك
 وما ان دنا منهم حتى طلب ان يردوا الى السيدة
 حريتها المسلوبة، فحسب رجال الدين والقساوسة كلام
 ذلك الفارس اهانة وسخرية، واستقبلوه بالعصي فدافع
 المشاء الرحالة عن نفسه حسبا سمحت الظروف ولكنه
 اخيرا سقط على الحضيض فتركوه على انه ميت. ثم اعيد
 ضون كيخوطي الى القفص واركب العجلة التي لم تتوقف
 الا امام داره في مسقط رأسه حيث استقبلته بفرح الوصيقة
 وابنة اخيه، واسودت الدنيا في عيني امرأة سانتشو
 وانكسر قلبها حين رأت ان زوجها عاد خاوي الوفاض
 صفر اليدين حتى من لقب الشرف الذي كان قد وعد به.
 بل ضون كيخوطي من مرضه ومل من البقاء في
 داره وكره حياة البطالة فعزم الرجوع ثانية الى حياة
 المجازفات وابلغ سانتشو رغبته فقررا هجر عائلتيهما من

جديد والذهاب مرة أخرى في طلب مبتغاهما: الخادم في اثر لقب الشرف الذي طالما اضاع نخه من اجله، والسيد وراء الاتيان باعمال تحير الالباب وتذهل العقول ويقف التاريخ امامها في بهتة واندهاش وقصدا اول ما قصدها قرية الطوبوسو الا انها بعد ان تجولا في ساحاتها وشوارعها لم يهتديا الى قصر الدولثينايا فغادراها عند طلوع الفجر.

ثم بينما صارا خارج البلدة عزم ضون كيخوطي على ايفاد سانتشو بمهمة الى سيدة افكاره فدبر الخادم حيلة يخدع بها سيده ولما قفل راجعا انذره بان دولثينايا ترغب في ملاقاته وبينماهما كذلك اذا بثلاث فلاحات يظهرن وقد امتطين ثلاثة حمير، فقال سانتشو لسيده ان احداهن لدولثينايا فصدق المشاء الرحالة قول حامل درعه ولكن لما اقترب منهم تيقن انهن من عامة الناس فاقسم له سانتشو واغلظ ان دولثينايا قد جاءت برفقة وصيفتيها فرضخ اخيرا السيد لقول المرافق وبدا له ان السحرة قد بدلوا سحنة سيدة افكاره، ومن بعد التقى بفرقة المسرحيات الهزلية لانغولو الشرير ثم في الغابة

اصطدم بفارس مشاء فنازله وبعد ان قهره اتضح له انه صديقه المتخرج شمشون كرسكو فعزا وقوع الحادث الى لؤم السحرة الاشرار.

وبعد ان تغلب على الفارس ذي المرايا التقى بطلنا النبيل برجل زنيق وقور يسمى ضون ديبغو دي ميراندا فصار بمعيته وفيما هما كذلك شاهد ضون كيخوطي عجلة عليها اقفاص فيها اسود فتصدى للمروض وحمله على ان يفتح الاقفاص ووقف ينتظر وثوب الاسد وسيفه في راحته، وبعد ان تم له ما اراد اغلق المروض القفص مخافة وقوع ما لا تحمد عقباه وقد احتفي احتفاءً عظيماً بفارس الاسود - وهذا لقب ضون كيخوطي الجديد بعد ان كان معروفاً بالفارس ذي السحنة الكئيبة - في دار ضون ديبغو وعند ما تهيأ مرة أخرى للخروج في طلب المجازفات ارسل ضون ديبغو في صحبة السيد والخادم ولده وهو فتى نجيب حاذق. وما ان اصبحا وحدهما حتى التقيا بمسافرين في طريقهم لحضور حفلة زواج كمتشو المثري بـ كيتاريا الحسناً. حضر حفلة الزفاف المذكورة جمهور غفير ولكن لم يتم في الحقيقة زواج كيتاريا من كمتشو بل تزوجت من باسيليو الفقير الذي كان مغروماً بها. دافع انصار

كمتشو عن هذا كما كافح انصار باسيليو عنه وانجاز
 الى هؤلاء ضون كيخوطي ولم تتفاقم الحال لانه عاد
 اليهم رشدتهم. وبعد ان ترك السيد والخدام مكان العرس
 دخلا غار مونتسينوس لان مخيلة السيد املت عليه امورا
 ما سبق وصفها ولا قرائتها، ومن ثم دخلا بلدين كان
 سكانهما قد انقسموا على بعضهم لان رئيس بلدية احدهما
 نهق وسخر سكان القرية الاخرى منه. وبينما كان
 ضون كيخوطي جادا في طلب المجازفات رأى قاربا مشدودا
 الى جذع شجرة قرب ضفة نهر فبدا له انه سيأتي عملا
 ماجدا من اعمال الفروسية فحل قلس القارب وركبه،
 فساقه التيار وما ان تأكد سانتشو من دنو الخطر حتى
 أخذ يصرخ ويصيح وكان القارب على وشك ان يتحطم
 في كوة المطحنة، فخرج الطحانون وبايديهم الهراوات
 لايقاف القارب ولما رأهم ضون كيخوطي حسبهم عقاريت
 فاستل سيفه الا انه سقط هو ومرافقه في النهر وكادا
 يموتان غرقا لولا ان الطحانين انقذوهما فغادرا المكان
 بعد ان جفت ثيابهما، وتغلغلا في غابة حيث تصدى
 لضون كيخوطي صيادون قدم لهم جزيل احتراماته بعد
 ان سقط عن صهوة حصائه، واما زوج السيد فقد طلبت

من ضون كيخوطي ان يقبل ضيافته ويستريح في قصره الذي كان على مقربة من ذلك المكان فقصده الجميع القصر وتمكن بطلنا هذه المرة من ان يرى بعيني رأسه ما كان قرأه في كتب الفروسية. واما الدوقي وزوجه - وهو لقب الصيادين اللذين التقى بهما ضون كيخوطي - فعزما على ان يتسليا على حساب الفارس فاعدا لهذا الامر الحفلات التي تنم عن روح واعمال الفروسية ووصل بهما الحال الى تعيين سائتسو حاكما غير ان حكمه دام قليلا لقيام ثورة ضده قضت عليه وقوضت دعائم دولته. قنط ضون كيخوطي من عيشة البطالة فودع الدوقيين وراح يقصد برشلونة وذات يوم بينما كان ضون كيخوطي على الشاطئ رأى فارسا ابيض اللباس من قمة رأسه الى اخمص قدمه، يدنو منه، وقد وضع رفراف خوذته الى اسفل وهلالا فوق درعه فلما اقترب منه قال له انه يجد في طلبه ليحمله على الاقرار بان سيدته اجمل من دولثينايا دلطوبوسو وان ابي الاقرار بهذا دعاه الى البراز وعندئذ تقرر الرماح مصير كلا الفارسين. قبل ضون كيخوطي البراز فورا لدى سماعه هذا وما ان اشتبكا حتى سقط ضون كيخوطي عن صهوة جواده مقهورا الا

انه لم يقر بل لم يعترف بما كان قد طلبه منه الفارس
 ذو الهلال الابيض وفضل الموت مناديا بتفوق حسن
 دولثينايا دلتوبوسو، واكد الفارس الغالب ان دولثينايا
 اجمل امرأة في العالم غير انه اجبر الفارس المغلوب على
 ملازمة داره وعلى ترك السلاح مدة سنة. وما ان قطع عليه
 هذا العهد حتى ذهب. واسودت الدنيا في عيني ضون كيخوطي
 وضاق صدره فلم يرض البقاء في برشلونه وغادرها في
 طريقه الى بلدته ولما كان عائدا داسته الخنازير وسخر
 منه الدوقيان. وبعد وصوله الى قريته دب السقم في
 جسمه من هول ما قاساه من مرارة الغلبة فتبددت اوهامه
 وعاد اليه رشده. وهكذا قضى نحبه ضون الونصو
 كيخانو الصالح.



- V -

اشخاصه

شخصان رئيسان يشكلان قوام الرواية واما الآخرون فليسوا سوى الاطار لهاذين الشخصين ضون كيخوطي وسانتشو اللذين هما بطلا الرواية في آن واحد. ولقد قيل بادىء ذي بدء ان السيد والخادم، الفارس وحامل الدرع ليسا في الحقيقة صورتين بل انهما ابتداءعان ركبا من نبذ بشرية، الاول مجنون والثاني رجل طيب الا انه قليل ملح الجمجمة، وكلاهما فارس، الواحد يمتطي صهوة جواد هزيل والآخر يعتلي ظهر حمار صبور وما زالا طيلة اربعة قرون يتقبلان ترحيبات وتصفيقات الناس وتحيات رجال الادب. وقيل فيهما انهما يمثلان ارسخ عامل تاريخي في ادوار الانسانية على الاطلاق وقد شوهدت في احدهما فكرة الخير وفي الآخر فكرة الاستفادة ويمكن ان يرى حسب النقد روح التجرد في كليهما المكونة من السمو في السيد ومن الحقيقة في الخادم ولاحظ احدهم في ان السيد قد اعتنق ديانة نكران الذات واتيان الاعمال لوجه

الله وقام كضد له حامل الدرع الذي انما يأتي الاعمال
حبا بالمنفعة الشخصية الايجابية، فاذا كان ضون كيخوطي
علويا مجردا، فسانتشو يكون رجلا ايجابيا ولهذا اصبح
الشعب ان رأى انسانا فيه روح جديدة مصلحة او انه
يعمل لصالح الانسانية، لقبوه بالكيخوطي ولقبوا كل
من يأتي عملا حبا بالمنفعة الشخصية سانتشو، فصفات
الاول تتجلى في اصحاب النظريات العلوية وفي اصحاب
الاحلام الذهبية وفي ناكري ذواتهم، وصفات الثانى في
الانانيين وفي الحاسبين للامور حسابها وفي الايجابيين.
فاشخاص هذا الكتاب الرائع لاينتمون، كماهى الحال
في كتب الفروسية، الى طبقة واحدة من المجتمع، لا وجود
لبنات الملوك ولا للاميرات ولا للاشراف الرفعاء بل
يستعرض في مزيج متنوع جمهرة من القساوسة والحلاقين
والدوقات واصحاب الفنادق واللصوص والفتيات المغرمت
والوصائف والفلاحات والسيدات وتجار الحرير والاكرة
والخدم والفرسان والرعيان والهزليين والاسارى والمساجين
اي انه استعرض مجتمع القرن السادس عشر وتصدى
للطبقة المنحطة اكثر من تصديه للطبقة الرفيعة وكل

هذا بصورة تهويلية الا انها في الاساس تمثيل ساذج لمجتمع ذلك الزمن ولجتمعننا ولجتمع الاجيال المقبلة.

والمشهد الذي يستعرض فيه النساء رحيب ومختلف الالوان في هذه الرواية: سنتشيكها، ابنة سانتشو، فتاة دبيرة تطيع اوامر والديها وتساعد على القيام بادارة المنزل، وتريزا بنتا تمثل امرأة المنزل، لا تكل ولا تمل في عملها تحب الملابس والعقود لا لامر ما الا لدب الحسد في قلوب جيرانها، تميل الى ضرب الامثال كزوجها، وترضى بالعيش كضريباتها. لوئيندا فتاة مثال للطاعة الابوية ومع انها مغرومة حتى الجنون، تكظم عواطفها وتقمع بتعاستها، ودوريتايا من احسن النسوة اللائى ظهرن في الكتاب، وخيرهن اعتدالا ورزانة وحصافة وجمالا وهى ضحية فرنندو المنقلب. وكميلا هى المرأة الحسناء التي لا تقوى على صد اغراء المحيطين بها ولعلها تجسد ضعف الارادة، مرثالا ترمز الى المرأة التي لا تشعر بالحب ولا عرف احد كيف ينفذ الى قلبها، التيسيدورا هي الفتاة الخفيفة الرأس المتهورة، المطرابة على استعداد دائم للازدراء بالمساكين الذين يقعون تحت رحمتها، وصيفة ضون كيخوطي اكمل شخصية في الرواية وهي تمثل تلك الوصائف اللائى

لمرور زمن طويل على وجودهن في البيوتات يعتقدن
 انهن عضو من اعضاء العائلة، فيسدين النصائح ويقاسمن
 الدار افراحها واتراحها، ابنة اخت الكيخوطي تمثل
 لارادة الوصيفة لاعتقادها ان ما تقوم به انما تعمله
 لصالح الجميع، ليندرا هي الفتاة التعسة التي تتوق الى
 الحرية فتصيخ سمعها لكل دخیل، ثريدة هي الحب المجرد
 فتتحمل اكبر التضحيات في سبيل رغبتها، مولينارا
 وطولوسا فتاتان تعميستان يستولى عليهما الذهول والحيرة
 عند ما تعاملان برفق واحترام ما عرفاهما قبلا، وفي بادىء
 الامر خالتا سخرية وازدراء كلام البطل ولكن من بعد
 باتتا كمسحورتين لكونهما رأتا كيف رفعتا من الوحل
 حيث كانتا تعيشان، كيتاريا الفتاة المغرومة بباسيليو
 تستلم لتيار العواطف الجارف وبشجاعة فائقة تلقي بنفسها
 تحت مخالب الالام والفقر لزواجها من الرجل الذي لايملك
 من حطام الدنيا قليلا، مريطورنس الوفية العهد هي تلك
 الفتاة المعطاء. وكامرأة ضعيفة الارادة كلفت بسانتشو الذي
 طلب منها وهو مزعم على الذهاب مع سيده ان تاتي به بكأس
 ماء بعد ان كان سخرية ضيوف الفندق، الدوقة تمثل تمثيلا
 لاغبار عليه، المرأة المحبة للفراغ والتسلية والطرب

المعدومة الثقافة غير انها مهذبة في امور سخيفة، والنساء
البرشلونيات سيدات يحبين الهزل والتسلية بشكل شريف
وضونيا رودريگث تمثل وصائف البيوتات الكبيرة اللائى
يعشن في ظل الحياة الرعدة وعند ما تسنح لهن الظروف
ينتقدن من يخدمنه وضونيا كلارا دي فيدماهى الفتاة التى
تبدأ اسماعها في التقاط الكلمات الغرامية الاولى. فكل
هذه الاشخاص الموصوفة وصفا رائعا بما قل ودل كغيرها
من الموصوفات التى يلم بها قلم الروائى العبقري، تمشي
جنباً الى جنب مع الحماة الطوبوسية البيضاء، امبراطورة
الطوبوسو دولثينايا المثل.

ولقد وصفت اليد العبقرية كذلك الذكور وصفا
خلق في سماء الابداع، فنرى ونحن نتصفح الرواية
الاسير الصور الشهم، وقسيس الدوقيين الصارم الذي
لاتلين له قناة، ورئيس كهنة طليطلة الرزين الاديب،
والكاهن بيرو بيريث الرجل الساذج الكريم، وضون فرنندو
الدوق المتعجرف وضون ديبغو دي ميرندا المهذب الرصين
كردانيو التاعس، لوطارىو العادم الاخلاص، انسلمو
الخدوع، خيناس دي بسامونتى الماكر الماهر.
 ويفصل هرتزنبوش باصالة رأي صفات اصحاب

الفنادق الاربعة الذين ظهروا في الرواية فيقول: «اما ابن سان لوكار فساخر وكريم، يرضي ضون كيخوطي ويحميه من الاكرة ويساعده بالمصروف، وبلوميكي الايسر رجل انتفاعي وحقوق يطالب بدفع ماله ويحتفظ بخرج سانتشو، ويحتد مع اللصوص ضد ضون كيخوطي بعد ان كان الفارس الطيب السريرة قد سكن روع الضيوف الذين كانوا اساءوا معاملة صاحب المضيف الوقح، وصاحب فندق الاقزام المضحكة رجل ذو اخلاق سليمة، يعجب النبيل العبقري في وسط بحر ضلاله، وصاحب الفندق الذي في طريق سرقسطة مغرور وشحيح على مأكولات منزله وهو لايطبخ سوى طبخة واحدة يساهم فيها». وما قاله هرتزنوش في اصحاب الفنادق ليقال عن اللصوص والمعازين وغيرهم.

لئن كانت الاشخاص الاناث تشكل الاساس الذي يوصلنا الى شخصية دولثينايا الخالدة فكافة الاشخاص الذكور تؤلف الاطار الذي يحيط باظرف شخصيتين وابدع ما اوجدت العبقرية التي حاكت الرواية وهما ضون كيخوطي وسانتشو فهما شخصيتان على غرار شخصيات الملك ليار وساخيسموندو وادييو وهما من المبتدعات

التي لا تنتمي الى امة دون الاخرى بل تنتمي الى العالم بأسره، مبتكرات مثالية لا تشيخ ولا يعرف الهرم اليها سبيلا بل عكس ذلك كلما ابتعدنا عنها وطال الزمن وجدناها اشد بروزا واعظم قوة.

ولكن كم من مجلدات الفت في شخصية ضون كيخوطى! لقد كتب احدهم عنه فوصفه بانه شخصية هزلية اذ لم يحسن النظر اليه الا من خلال النزاع حول خوذة ممبرينو دون ان يفكر في ان هذه الشخصية السخيفة هي التي نادت : «لا وجود لعصافير اليوم في اعشاش الامس». وهو الرجل الضعيف الذي لا حول ولا قوة له فينازل الجبابة ليتغلب عليهم ويدفع بنفسه وراء المجازفات وقد حمل في صدره غاية سامية ومقدسة : الدفاع عن الضعفاء، حماية التمساء وموآسة الفقراء، وقد قيل فيه انه يمثل الشرف الاسباني كما لو كان من السهل اعتبار الشرف من الامور الطبيعية الخاصة التي تميز شعبا معينا، فضون كيخوطى شخصية عالمية، لان كثيرا من الافكار العلوية التي احتوت عليها نفسه هي في صدور غيره من رجال العالم، وهو ذلك الرجل الذي لا يقدر

الاطار التي يتعرض لها ويكافح بحماس عن المذهب الذي يريد فرضه، مذهب عال، عظيم، سام، يبلغ بصاحبه الدرجة القصوى من حيث ذكران الذات وحب الغير ولو لم يكن كذلك لما ترك عيشه الرغيد في مقر داره واهمل ممتلكاته ليطوف في العراء على اثر المجازفات وقال فيه احد الكتاب: «ان جنون ضون كيخوطي يتجلى في عدة اطوار: فهو مثالي حين ينتظر القرويات، وخطر في مغامرة القارب المسحور وشجاع في تجولاته ليلافي ازقة الطوبوسو، ومتهور في مجازفة غار مونتي سيونس، ومجازفة الاسود، وجامح في منازلته للفثكايننو وغبي في مقاتلته مع كريدينينو» وقد اصاب ذلك الكاتب في تعليقه اذ الا يدفع الجنون الى القيام باعمال لو رويت لبدت غير عادية لا يمكن تصديقها؟

كان يتعذر على سرفانطيس ان يصف بطل لاماتشا كرجل عاقل وكان عليه حتما ان يقول لنا ان دماغه ينتمى الى فئة الادمغة التي ينبغي ان تخضع لدراسة الاخصاء بالمجانين، وبهذا تظهر حقيقته ويتضح ذلك الاطار الجلي العتم الذي يلاحظ في الرواية الا وهو الرجل

المثقف الخبير، القاريّ الذكي ما دام توهمه لا يرى شيئاً
 يمت إلى الفروسية بطلا ومتمى لاح له امر من بقايا اثار
 كتبه الغالية على قلبه استحال الى مجنون لادواء له. ولقد
 قدمنا ان احد الكتاب اكد ان ضون كيخوطي يمثل
 الشرف الاسباني ونقول الان ان لابوينتي في مؤلفه
 «ملك كتبنا» يقول ان المشاء الشهير «يمثل الاسباني
 المبتكر المجازف ان لم يكن في الواقع فعلى الاقل في الميل،
 المزدري بالخطر الثائر على من يحول دون بلوغ هدفه، المحب
 للقتال... الخ» اجل يمكن ان يكون مجازفا ومبتكرا في امور
 ليست مثل اصلاح البيت والسير في جبال «سرامورينا»
 الوعرة بعد ان رد للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في
 الجواري حريتهم، اما كونه لا يبالى بالاطار فهذا صحيح
 لان شعاره «انا اساوي مئة رجل» وانه لسخيف ورزين
 مجنون وخبير ومنصف في اعماله ومعارض لاحكام العدالة
 انه لشخصية انسانية لا بعد مدى «يتجسد فيه سمو الحقيقة
 بشكل مضحك» وهو تلميذ لافلاطون - كما يقول مونطلفو -
 في رداء السخافة والبلاهة: «لئن جردناه من سيفه ولباسه
 كفارس مشاء رحالة لبقى الفيلسوف»

واما شخصية سانتشو فتبرز الى ابعدهد شخصية الفارس
 السامى في حين ان اغلب النقاد قد رأوا في حامل درع
 ضون كيوخوطى الرجل الايجابى، الانانى الذي يسعى لمنفعته.
 والان فلنبحث في هذه الشخصية: فعند بدرو آ.
 غرثيا: «انما هو التجربة المجردة من السمو، والفكر السليم
 دون التعمق في الاسباب، والشهوانية العملية الخالية من
 الذي المثل الاعلى ولايهزها سوى غرضها الخاص» ويقول
 بيرنس وهورطادو انه «ذلك العامل الذي يحسب عمله اليوم
 بالمرافاديس - وهو نقد ذلك الزمان - رب العائلة الذي
 لا يملك سوى الحمار وقد علمه الضيق وضنك العيش
 السعى في طلب الرزق وتحسين الحال» وعند طوبينو:
 «المادة حسب ما تفهمها الجماعة المثقفة او غير المثقفة،
 مفتاح وسر الحياة الايجابية والتاريخيه بما فيها من ضعة
 واذانية عملية مدعومة بمقدار لا حد له من التعقل
 والجهالة» وعند مينث: «يمثل الشعب الخشن المادي في
 زمانه، فقى نظره لا توجد غير سعادة واحدة: سعادة
 المأكول والمشروب والنوم والاثراء مع قليل من العمل،
 ولكننا نصارح هؤلاء النقاد المحترمين ان شخصية سانتشو هي
 من اسوأ ما درس من شخصيات الرواية

لو كان ظامعا وأنانياً لما ترك حكم الجزيرة
 لأول مضادة قامت في سبيله ولو كان محباً للمادة لهجر
 سيده عند ما تحقق ان حياة الارتحال لا ترد عليه من
 مكافات سوى أوجاع وسوء طالع وهذا يتألف من
 لكمات وعصوات وقذف باللحاف فسانتشو رجل سليم
 الطوية، ظريف، طائع، ساذج صدوق وغير انتفاعي في
 آخر الرواية، يضمم الوفاء والحب لسيده، يهجر امرأته
 واولاده ليلتحق به ويعلم انه في رفقة الفارس الرحالة
 يمتطي المجازفات فلا يلقي سوى العصي والحجارة فيتجلد
 في كل مرة وعند ما يتوفى البطل يذرف الدموع، دموع
 الاسى والاسف اي انه يبكي ولا يتباكى .



- IV -

روايتا الكيخوطى

«الفضولى الممل» و «الاسير»

لقد كتب الشىء الكثير حول الروايتين المدرجتين في الكيخوطى وكلتاها تقعان في الجزء الاول: فالاولى تستغرق من الفصل 33 حتى الفصل 35 وعنوانها «الفضولى الممل» والثانية تستغرق من الفصل 39 حتى 41 وعنوانها «تاريخ الاسير» وتلاحظ في كلتاها يد سرفانطيس الماهرة من حيث الجمع بين الامور النفسانية والطرافة والحوادث الحقيقية والخيالية، ولقد حذفت هاتان الحليتان من متن الكتاب في كثير من طبعاته ووصفتا بكونهما من حلى سرفانطيس نظرا للدور الذي تلعبه الاولى الى جانب المتخرج فيديريرا ومحاورات الكلاب ولـكون الثانية تحتوي على قسط كبير من تاريخ الاسارى في الجزائر وحتى عن تاريخ سرفانطيس نفسه.

ولايسوغ ان ينكر ان رواية «الفضولى الممل» ذات اصل ايطالى ويكفى ان نتذكر مطلعها الذي يقول: «وفي

فلورنسيا المدينة الغنية الجميلة...» ولقد احسن واجاد في اختيار ايطاليا مركز ثورة وفوران الشهوات ولو كانت الرواية تصح ان تحدث في اي وقت كان وفي كافة البلدان. اما موضوعها فهو كما يلي: «انسلموا الغنى المثيري مغرم بزوجه كميلا من اجمل نساء فلورنسيا ولكنه يعتقد انه تنقصها الفضيلة، فتقضى عليه مضجعه الغيرة ويفضي بلواعج صدره الى صديقه لوطاريو ويطلب اليه بالحاح ان يختبر فيما اذا كانت زوجته تعبت بايمان الاخلاص والوفاء مقابل هدايا ووعود معسولة، فيرفض لوطاريو في اول الامر الا انه ازاء الحاح صديقه يجيبه الى طلبه فتقابل به كميلا بالازدراء يبلغ صديقه بالامر فيعاند هذا وكى يفسح المجال لصديقه وزوجته يتظاهر بانه قام بسفر بعيد ثم يعود لوطاريو الى مغازلة كميلا بكل ما اوتي من حرارة الى ان يحدث اخيرا ما كان يتوقع حدوثه وقد قال فيه العالم النفساني «لا توجد قوة بشرية في وسعها ان تتحملة» وقعت الكارثة فكانت قصاصا للحاح الزوج الفضولي، ودخلت الزوجة الدير بعد ان رأت نفسها موضوع سخريه وذهب الصديق الكاذب الى حرب فلنديس في طلب

الموت». ويصح ادراج هذه الرواية في صف القصص المثلث نظرا
للامثولة التي تلقىها، علينا وقد نظمها سرفانطيس شعرا فقال:

«انما المرأة من زجاج

لا يجوز ان يجرب

ان كانت تكسر أم لا.

لان كل شئ ممكن»

تنبغي الإشارة الى امر وهو انه في هذه الرواية
تتلمس الحقائق ذات المغزى الفلسفي البعيد الغور والاخلاق
الرفيعة التي في مراعاتها حصلت نجاة العاشقات في
الكيخوطي ومن عدم مراعاتها والتظاهر بها سقطت كميتا
الى الحضيض في الفضولي. فلهذا لاشك ان الذين يقرأون
هذه الرواية الخالدة قراءة سطحية، لا يدركون الصلة التي
تجمع بين قصة المنتشاي والفلورنتيني، في حين ان
الذين يقرأونها قراءة روحية يكتشفون ان بين القصتين
رابطة متينة قوامها قوة جمال لاتجاري وقو علوية سامية
ترشد القارئ وتنوره دون ان يشعر وتوصله الى النقطة
التي ترفع له النقاب عما قد حجب، عن الامثولة الاخلاقية
الغالية العزيزة على قلب النساء على اختلاف طبقاتهن.
لا ريب في ان سرفانطيس قد جاء بهذه الرواية

ليؤكد نظريته في القضية الاخلاقية وفي تأثير المجتمع على المرأة فيما يتعلق بتواطؤ الرجل على عفافها وفضيلتها، كما انها حجر الزاوية في متن الكيخوطي لتسافي وتوازن الاصاله التي تجلت في كل ما يمثله الكتاب في هذا الخصوص وتنعكس عليها صورة الاشخاص الاناث اللائي يقمن بادوارهن في موضوع سرفانطيس.

وفيما يتعلق برواية الاسير فقد تقدمت بنا الاشارة الى اهميتها نظرا لما فيها من المعلومات القيمة عن حياة الاسر وموضوعها: «ان فتى من مقاطعة ليون مولوع بحياة الاسفار يبحر من اليكنتي قاصدا جنوة» فيجول في عدة مدن ايطالية ثم يتجند في جيش ديعو دي اوربينا وبعد ان يساهم في حروب فلندس يعود الى ايطاليا ويشترك في موقعة ليبانطو ويقع اسيرا فينقل الى القسطنطينية وبعد ان يطوف في سواحل افريقيا ينتقل الى ملكية حسان باشا ويبقى في الجزائر وبينما هو ذات يوم في الحمام يبصر قصبة تلوح له فيقترب وتقع القصبة وفيها كمية من النقود، تعاد العملية مرات واخيرا يتعرف الى الشخص المحسن الذي يكرمه ليخفف عنه تعاسة الاسر فيشتري بالنقود التي كانت تعطيه اياها ثريده

- وهو اسم المرأة المحسنة - قارباً ويخبر اصدقاءه الاسارى
 بالامر وفي احدى الليالى يغلقون ايدي البحار المسلمين
 ويخطفون ثريدة بعد ان يوثقوا والدها ويتوجهون الى
 السواحل الاسبانية وبعد ان يواجهوا مصاعب عديدة
 يبلغ بهم الحال الى غرناطة فتعتنق ثريدة الديانة المسيحية
 تسترعي الانتباه في الرواية الامانة التاريخية ووصف
 حياة الاسر في الجزائر وقد قال بعضهم ان هذه القصة
 لاتنسجم مع كتاب سرفانطيس فاختطأوا نظراً لما فيها من
 الامور المهمة التى تبعث في نفس القارى الارتياح
 وتتعلق بحياة المؤلف علاقة مباشرة او بحياة رفاقه
 في الاسر.



- IIV -

تقليدات الكيخوطى

كتب سرفانطيس بعد ان اتم الجزء الاول من الكيخوطي ينذر بقرب صدور الجزء الثاني وكان وعده هذا سنة 1605 الا انه مرت اعوام ودخلت سنة 1914 دون ان يفي بما وعد به، أنه راح يعد كتابه على مهل فهذا مما لا ريب فيه، وانه لو لم يصدر افيانادا تامة الكيخوطي لظلت مخطوطة سرفانطيس دون ان تنجز، فهذا اكثر من اكيد. وعلى كل حال، فسرفانطيس كان من المتنبئين عند ما تكهن ان رجلا غيره سيواصل رواية قصة الكيخوطي الا انه لم يتفوق في سكيه حيث ان نفس سرفانطيس قال فيه: «لقد كتبه بريشة نعامه غليظة اساء بريها».

فالانذار باصدار حوادث المرة الثالثة لخروج ضون كيخوطي ومروور عدة سنوات في انتظار ذلك الجزء دون جدوى، دفعا بفرنندث دي افيانادا الى كتابة مؤلفه وغايته الاولى تحوم حول الاستفادة من نجاح الكيخوطي

ولدينا في التاريخ شواهد عديدة مثل هذا الحادث اي ان يشرع احد الكتاب في تصنيف مؤلفه ثم يأتي من ينجزه من بعده وخصوصا في ذلك الوقت الذي لم تكن لتحترم فيه حقوق التأليف .

ولئن قوبل كتاب سرفانطيس بمؤلف دي افيانادا لما شك احد في ان هذا الاخير ادنى بكثير من ذاك ولقد قال سرفانطيس في مقدمة الجزء الثاني ملمعا الى كتاب خصمه: «ما حسن قط مطلب ثان» ولم يتوفق احد الى عبارة اصدق من هذه. ويقول مونتيانو ولويندو في مقدمة طبعة الكيخوطي الصادرة عن مدريد سنة 1732: «ما من رجل حكيم ينحاز الى جانب سرفانطيس» انها لعبارة مغرضة الى ابعد حد كما ان حكم ميانس غير صائب في سيرة سرفانطيس عن اسلوب افيانادا بقوله انه: «محشو بالسرقات والعبارات التي لا تمت الى اللغة الاسبانية بصلة وهو اسلوب خشن مضطرب وصفوة القول انه اهل لكل ازدراء» ومما لا ريب فيه ان كيخوطي دي افيانادا لا يمكن ان يقارن بكيخوطي سرفانطيس وهذا لا يعنى انه خال من كل قيمة ادبية. ولم يقم ناقد ادلى برأيه في الكيخوطي الملقق دون تحيز وباخلاص واصالة رأي مثل

العالم الاسباني الشهير منندث اي بلايو حيث قال: «النكتة خشنة ولكنها غزيرة وبديهية، القوة الهزلية همجية ولكن لاينكر لها وجود، والمحاورة وان كانت حلى بالبلاهة التي تشمئز منها النفس لدى قراءة كل صفحة، فهي خاصة ومناسبة للشخصيات الرابلية⁽¹⁾ التي ادخلها الروائي في سير الحوادث واعطى كلا منها دورا، واما ما يحط من قيمة مثل هذا الكتاب وينزله الى اسفل الدرجات لا بالنسبة الى الكتاب العبقري الذي دنسه دى افيانادا عن بلاهة فحسب بل بالنسبة الى امور كثيرة من خاصيات ذلك الزمن لا تتعدى حدود الابداع والتسلية، ومنها الفكرة المنحطة المسكينة التي يقدمها المؤلف عن الحياة، وابتدالية افكاره وغياب كل مثل اعلى وكل سمو جمالي وتمرغه في كل ما هو مزنخ وقبيح بلذة وانشرار طبيعيين، والاعتناء الذي يكرسه لكل ما هو غشيم ولكل ما هو دنيء ومهوع من وظائف الاعضاء التي يتركب منها الجسم الحيواني. ليس هو بالكتاب الخلاعى المتهتك لان هذا مما لا يرضاه زمانه وطبائع سلالته ولكنه كاتب الاقدار ومن اتتن الكتاب الذين يمكن ان يعثر عليهم رائحة».

(1) نسبة الى المؤلف الفرنسي الشهير «رابلي»

ولقد مرت ثلاثة قرون وما زال الاسم الحقيقي لمؤلف الكيخوطى الملقب مجهولاً كجهله عند ما كتب سرفانطيس: «لو ساعد الحظ واهدى الى معرفة المؤلف، وكما يقرأ في آخر الجزء الثانى أو في تلك العبارات التى جاءت في المقدمة: «لا يتجرأ على الخروج الى الحقل المفتوح ولا ان يظهر تحت السماء الصافية الاديم، لقد أخفى اسمه وجحد وطنه كأنه قد اقترف جريمة الخيانة ضد شخصية الملك. لئن ساعدكم الحظ واهتديتم اليه...».

وأورد الكتاب والنقاد أسماء لا تحصى ولا تعد الا انه قد تعذر عليهم جميعاً الاثبات بالادلة التى تفي بالغرض المطلوب وتكشف عن هذه النقطة العمياء وصفوة القول انهما من احد يقدر ان يدلنا على الكاتب الذى تستر تحت اسم فرننث دي افيانادا لاصدار الجزء الثانى من الكيخوطى، ومع هذا فقد اتفقت الاراء على ان مؤلف الكيخوطى الملقب انما هو احد المؤلفين المسرحيين ومن ألد أعداء سرفانطيس.

بات كيخوطى فرننث دي افيانادا في عالم النسيان أكثر من مئة سنة - رغم أنه لم يلق في عصره نجاحاً - الى ان ترجمه الى الفرنسية بل حوره لاساج ويرجع

الفضل في نجاحه عندئذ الى ما أضاف عليه هذا لا الى ما أودع فيه دي افيانادا ، وما أضافه الكاتب الفرنسي وما اقتبسه عن الجزء الاول من كتاب سرفانطيس ، حمل على الاعتقاد بان سرفانطيس في الجزء الثاني نقل عن كتاب خصمه الامر الذي أوضحه منندث اى بلايو في مقابلته بين المؤلفات الثلاثة ضنا بسمعة صاحب الكيخوطي الاصيل . وستظل هذه القضية المعقدة على ما هي عليه من ابهام وغموض ريثما يعثر على وثيقة تزيج اللثام عن شخصية خصم سرفانطيس بالضبط .

وأما المؤلف الذي وضعه صاحب الاسم المستعار فرنندث دي افيانادا فهو أول تقليد للكيخوطى فيما اذا استثنينا المطبوعة الكاذبة الصادرة سنة 1609 عن باريس تست عنوان: «مقتل الوفاء والدفاع عن الشرف» وهي قصة مقتبسة من حكاية مرسالاو الراعى كريستمو ومطبوعة باللغتين الفرنسية والاسبانية ، غايتها تيسير تعلم اللغة الاسبانية للطلاب .

وأصدر الكاتب الفرنسي سورل ده سوفيني سنة 1627 مؤلفا من أثنه المؤلفات في هذا الموضوع ، عنوانه: «الراعي الشاذ» وهو انتقاد للروايات الطبيعية الدارجة

آنئذ وأصدر فيما بعد كتابين في أحدهما بعض مقاطع
تصح مقابلتها بكتاب سرفانطيس اذ ان صاحبه عند ما
ألفه كان ينظر الى هذا الاخير .

ومن افضل المؤلفات التي صدرت خارج اسبانيا كتقليد
للكيخوطى المؤلف الذى نشر في انكلترا تحت عنوان : «الهيد
برس» لصموئيل يولثر، صادف هذا المؤلف الشعرى الذي
ظهر سنة 1663 و1664 و1678 في ثلاثة أجزاء قبولاً
منقطع النظير وترجم الى الالمانية والفرنسية، وأعيد نشره
سنة 1819 وفي هذه الطبعة التى صححها غريس وقعت
الاشارة الى المقاطع التى من بنات أفكار سرفانطيس .
لئن كان «الهيد برس» أحسن تقليد في الانكليزية
لضون كيخوطى فتاريخ ضون كيخوطى دي لامانشا
الذى ألفه فيلو دي سان مارتان، وطبع جزءه الاول سنة
1695 وجزءه الثانى سنة 1713 أبدع تقليد في الفرنسية .
وظهرت سنة 1697 في امستردام طبعة كاذبة
للكيخوطى بان فيها قصر باع المقلد واخفاقه في الدخول
الى نفسية الابطال، ونشر سنة 1710 في باريس كتاب
مقتبس من كتاب سرفانطيس . وتحت عنوان خلاب طبعت
في باريس سنة 1713 كراسة شعرية ذات اربعين بيتاً

لاغير من تأليف طميزل دي سان ياسنت المعروف بالدكتور
متناسيوس كلها اطراً ومدح للمؤلف ولؤلؤه وقد كتبت
بالعبرانية واليونانية والفرنسية واللاتينية والانكليزية
والهولندية الخ وهي هجاء لاذع مقتبس من مقدمة الجزء
الاول لضون كيخوطى حيث يسخر سرفانطيس من
أشعار المديح التى تظهر في مقدمة امهات كتب عصره
وخصوصا في كتب لويس دي بيغا.

وظهر سنة 1734 في لندن كتاب يقدر في الادب
المحموم كقدح سرفانطيس في أدب الفروسية وأعمال بطل ذلك
الكتاب شبيهة كل الشبه بأعمال بطل سرفانطيس، وصدرت
في باريس سنة 1737 طبعة لهذا الكتاب ثم سنة 1757
ترجم الى الايطالية نقلا عن الطبعة الفرنسية الطافحة
بسيرة سرفانطيس لانها مقتبسة من كتابه كما يدل على
ذلك عنوانها وهو: ضون كيشوط فرنسوا، وقد جن
بطلها من قراءة كتب الفروسية. وأشخاصها هم نفس
أشخاص ضون كيخوطى من أوجه عديدة.

وأخذت تتوالى الكتب التى تنظر الى ضون كيخوطى
حتى سنة 1914 الا اننا نضرب صفحا عن ذكر عدد
كبير منها، مكتفين بالقدر الذى سجلناه.

- IIIIV -

ضون كيخوطى فى المسرح

لقد قدمنا أن أعمال أبطال الفروسية تسربت الى
أكواخ الرعيان كتسربها الى قصور الاعيان ووطئت
اعتاب الزرائب كما تربعت فى صدر المسارح فقوبلت
بالترحاب، فلماذا لايسوغ اذن ان يحمل الرحالة المنتشاي
على نفس الحمل؟ ولئن كان راي دى ارتيادا، ولوبي دي
فيغا، وبيرث دي مونطالبان وروخس ثوريا وكليديرون
دي لابركا وغيرهم لم يأنفوا من استغلال مواضيع الفروسية
للمسرح فلماذا لا يصح للبلنسى غيان دى كسترو
وللمديدى فرنسيسكو دي افيلاهمل الحكيم المجنون الى
خشبة المسرح ايضا؟ وعلام لاينبغي ان تظهر على المسرح
شخصية الرحالة الكريم وقد سبقته الى الظهور شخصيات
زملائه؟ هذا ما مر فى خلد مؤلفي المسرحيتين اللتين
عنوانهما: «الكوندي دي ايرلوس» و«التسايج الميلادية
والاناشيد الطريفة» فالف احدهما مسرحية «ضون
كيخوطي دي لامانتشا» وصنف الاخر مسرحية «اعمال

ضون كيخوطي دي لامانتشا التي لاتجارى» ومع هذا فيمكن القول انه لو كان وصف العبقري الخالد بطله على الشكل الذي اوحاه خيال فيلثيانو دي سلفا المحموم لما فقد كتاب سرفانطيس شيئاً ولكن نظرا لكون الكيخوطي هو دراما عالمية لسائر الاوقات والازمان، لكافة البلدان وعموم ابناء آدم، دراما تصف الفرق بين ما يدرك الفكر الشامخ وما يطمع اليه القلب الكريم وبين ما يقبله ويرضاه العالم المسكين. فكيف تحمل هذه الشخصية الساحرة الشعرية الى خشبة المسرح؟ وكيف يمن ان يشعر المشاهد بوجود عزة النفس والبطولة اللتين تسيران مع الدم في عروق النبيل المنتشاي؟ وتقرأ اليوم المسرحيات عن سحر دي مرلين، وعن اماديس دي غولا، والمركيس دي منطوا وغيرهم فلا يعثر فيها الا على حب القتال وكبرياء البطل، أهذه هي الحال في المسرحيات التي يظهر فيها المنتشاي المغرم؟ هل استوت الحال بين الدراما والرواية؟ كلا، لانه تفصل بين الواحدة والاخرى هوة سحيقة.

ولقد قام بتمثيل دور ضون كيخوطي اشهر الممثلين ومنهم انجم سينمائية فلم يتوفق حتى ايروين نفسه

مع ما وهبته السما من عبقرية الى حمل المتفرجين على نسيان لذة الكتاب وقراءته ولا استطاعت الشاشة البيضاء بدورها ان تمحو من ذاكرة الذين تمتعوا بمطالعة الرواية الاثر البليغ الذي تركته فيهم.

وعند احد المؤلفين المعاصرين يتعذر تعذرا كلياً نقل الكيخوطي الى خشبة المسرح لان هذه الشخصية الفذة التي اوجدتها العبقرية تفقد كل عظمتها ويعمود السبب في ذلك الى ان صورة الرحالة الشهير لاينبغى ان يتأملها البصر فحسب بل والخيال ايضا. وتنقلب شخصية الرحالة عند انشاد الاشعار او ساعة التغنى الى سخرية تنال من سمو ابداع سرفانطيس، ورؤيتها على اللوحات والتماثيل حملت على العتاف: «يراد فيها تشبيه ضون كيخوطي، وكلمة يراد يقصد منها بجلاً انه ينقصها شيء لتصبح هي هو بذاته، وهذا الشيء ما هو سوى تلك العبقرية الخاصة التي اوحى الى سرفانطيس روايته الفخمة، فضون كيخوطي ككتاب يمكن ان يكون معينا غزير المادة للاستلهام، ولكن ضون كيخوطي، شخصية لاينبغى ان تمسها الايدي البشرية.

وتحتوى هذه الرواية الفاخرة على موضوعات لا يحصى لها عدد، يمكن ان تنقل الى خشبة المسرح الا ان المقدرة تقوم على ان لا يظهر قط ضون الونصو كيخانو وان لا يبين مجسما في شخص ما، وذلك ان كل شخص قد خلق في مخيلته صورة لهذا الفارس العالمى فاذا ما قابل الشخص الذي خلقه في خياله بالشخص الذي يظهر امام عينيه اي اذا ما تحول الشخص المثالي الى شخص وضعي فقد قيمته الروحانية ولما كان ضون كيخوطى روحا فوضعه قبالة الانوار المسرحية يجرده من السحر الذي يتاثر به في الرواية. ومن المعلوم ان ما من مسرحية ظهر فيها مغرم دولثينايا وارضت الجمهور والنقد ارضا تاما وهذا مما لا يعسر فهمه حيث انه يتعذر على خشبة المسرح تلمس اهم الصفات التي تبعث على الاعجاب والدهشة لدى دراسة ضون كيخوطى وهى ما يراه عقل هذا وما هو ذلك المرئى في الحقيقة.

ولقد اسلفنا ان ضون كيخوطى صادف نجاحا عظيما وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله ينتقل الى خشبة المسرح بعد ظهوره بقليل ويحتمل ان يكون

سرفانطيس سمع بطله ينشد اشعار المؤلف المسرحي
 البلنسي الشهير، غيان دي كسترو، صاحب مسرحية «ضون
 كيخوطي دي لامانتشا» وللدلالة على اعجاب الشاعر بكتاب
 سرفانطيس نذكر انه وضع مسرحية اخرى مع بلفيس
 مقتبسة من ضون كيخوطي وحمل الى خشبة المسرح
 رواية «الفضولي الممل».

ولم ينهل المؤلفون المسرحيون الاسبان فحسب
 من معين كتاب سرفانطيس بل هذا حذوهم المؤلفون
 الفرنسيون والهولنديون والايطاليون ولكن مسرحياتهم
 لم تلق نجاحا يستحق الذكر حيث ان التي ظهر فيها
 ضون كيخوطي كبطل كان ظهوره منها اقرب الى الهزل
 منه الى شئ آخر وسانتشو رجل مجنون كسيده ولم
 تبد قط عزة نفس الفارس ولا مكر وسداجة حامل درعه
 وحتى المنطق الذي انطقوا به الاشخاص لا يتناسب بوجه
 من الوجوه مع المنطق الذي استعمله سرفانطيس الا
 في قليل من المواقف.

- IX -

الصحافة وضون كيخوطى

كتب سرفانطيس في روايته الخالدة انه لن يمضي زمن طويل الا وتصبح ذات شهرة واسعة الاعمال الموصوفة في كتابه العجيب وتكتسح اشخاصه مقاما شعبيا رفيعا ولما لم يكن للصحافة وجود في ذلك الحين لم يستطع ان يجزم انه مع ممر الايام سوف تصدر مجلات اسبوعية تحمل اسمي الرفيقيين اللذين لم تنفصم قط الروابط التي جمعتهم، وتشهد على شعبية مؤلف سرفانطيس الكتب العديدة والرسوم والتماثيل الرامية الى اعلاء وتخليد ما انجلته مثل هذه العبقرية، ولقد كتب منندث اي بلايو يقول في هذا الصدد: «ان البهيمتين اللتين ركبهما ضون كيخوطي وسانتشو والارض التي وطأتها اقدامهما والاماكن التي ولدا فيها باتت خالدة مخلدة» وليست بطويلة لائحة الجرائد والمجلات التي تذكر اسمائها بكتاب سرفانطيس الا انها تدل على ان المقام السامى الذي تربع فيه الكتاب لم يقتصر على اسبانيا

فحسب بل انه تعداها الى الخارج حيث ساهمت كثير من
المنشورات اليومية والاسبوعية في اكساب مؤلف سرفانطيس
شعبية مترامية الاطراف بعيدة المدى ممتدة الصدى.
واسبق العواصم الاوربية في هذا المضمار كانت
مدينة لندن اذ صدرت عنها اول جريدة سنة 1803 تحمل
اسم «الانبيغو» التي ظلت تصدر بهذا الاسم حتى سنة
1818، ثم اجرت تحويرا واصبحت منذ صدور عددها
التاسع عشر تعرف «بالانبيغو او ضون كيخوطى دي
لامانتشا الجديد» ثم اخذ في الشيوع استعمال اسمي ضون
كيخوطى وسانتشو وظهرت في مناسبات مختلفة في فرنسا
وامانيا وايطاليا الخ مجلات اسبوعية وشهرية ونصف
شهرية باسمهما بل وكان بعض كتاب الجرائد التي ظهرت
في برشلونة ومدريد يوقعون باسماء مستعارة هي اسماء
لاشخاص رواية الكاتب الاسباني المبدع.



- X -

الكخيوطى

والنقد الوطنى والاجنبى

سبقنا بنا الاشارة الى النجاح المنقطع النظير الذي
 لاقاه كتاب سرفانطيس والى كون الطبقات - سواء بلغته
 الاصلية او باللغات الاجنبية - عديدة تترى، الا ان النقد
 لم يشرع في اعلاء شأن مؤلف كهذا من حيث النبوغ
 والابداع حتى اواسط القرن الثامن عشر. وقد يعترض
 معترض فيقول انه في غضون القرن السابع عشر اطرى
 عليه من الاسبان فاريا وسوثا ونيقولاس انطونيو ومن
 الاجانب دانييل هيت وسان افريموند فتس واحسنوا
 الثناء عليه ومدحوا مؤلفه الخالد، ومع هذا فيقتضى
 الاماع الى ان النقد السرفانطى الحقيقى ابتداء في اسبانيا
 مع ميانس وذلك سنة 1737، وفي الخارج مع مترجم ضون
 كيخوطى ب. آ. ر. موتيه سنة 1700.

وينقسم النقد حسبما لاحظناه ونحن في دراسة
 الرواية الخالدة الى لغوي ونفسانى، فالاول من خصائص

الاسبان محضا ومع وجود اجانب لهم اطلاع واسع على اسرار اللغة الاسبانية وطرق تعبير سرفانطيس، لم يكرسوا مجهوداتهم لدراسته كما فعل كليمنثين وكليديرون وكورنيخون ورودريگث مرين الخ ونضرب صفحا عن كافة النقاد الاسبان واقوالهم في سرفانطيس وروايته التي تتجلى فيها روح العقبرية الصرف لنورد رأى شيخهم ومعلمهم دون ما منازع الا وهو منندث اي بلايو الذي كتب في معرض بحثه عن الكيخوطي هذه السطور: «صارع سرفانطيس ضد هذا النوع من ادب الفروسية الكاذب التافه مستعملا كل معدات سخريته الرؤوفة ممزوجة بالحب والشفقة، الامر الذي جعله متفوقا لايقهر ولايطاق في مضمار هذه الفكرة الخاطئة العديمة الاركان عن المرأة التي نصبت صنما - زائلا - يعبد عبادة مدنسة ومستحيلة. هذا ما ضحى به الى الابد سوا عن طريق المثل الاعلى المستحب في دولثينايا وسوا عن طريق الحقيقة الخشنة في مريطورنيس.

»وفي معرضه النسائي الحافل اظهر في دورتيه وفي ثريده وفي ضونيا كلارا مقدار الملاحظة والغرام والحنان في نفس المرأة ضمن شروط الوجود المعقولة. فهذا النشاط الجامح

الذي لاحدود لمدلوله، المجرد من كل نظام اجتماعي ومن كل غاية حكمة، هو ما جسده في شخصية مجنون علوي، الذي انما هو كذلك من قراءة كتبه ومن الصوفية الدائمة التي تحمل النفوس الخيالية على لبس رؤيا الفن برؤيا الحياة. اما ضون كيخوطي فلايشير فينا الاسف فحسب بل الاجلال والاعتبار: الحكمة تجري في كلماته العسجدية، ويتأمله القاري باحترام وضحك في آن واحد، كفصل حقيقي وكاضحوكة للبطولة، وحسب العبارة الموفقة للشاعر الانكليزي وردسوث. ان اصالة الرأي قد عششت في اعماق موئل جنونه الفخم. واما دماغه فهو كناية عن عالم اسمى حيث تنعكس عليه مكبرة، اسطع اوهام الادوار والاطوار الشعرية التي منا ان تحتك احتكاكا عنيفا بالعالم التاريخي الا وتفق ما تضمنته من افك وخطر وتنفك عقدة لغزها في مرتبة الهزل العليا من غير مرارة، بفضل التأثير النفعي المطهر للضحك. وكما ان نقد كتب الفروسية كان حجة لاسباب اساسيا لخلق خرافة الكيخوطي فهكذا بدأ بطل الرواية كسخرية رؤوفة لاماديس دي غولا، الا انه سرعان ما حلق بجناحيه وارتفع فوق مثل هذا الدور. ومن حق مؤلف اماديس

ان يفصل باعتناء عن جمهرة تباعه حيث انه قام بعمل لا يقتصر على كتاب في الفروسية مقلدا لاولئك الذين عاشوا تحت سماء بريطانيا فرنسة، فلقد كتب اول رواية مثالية سامية عصرية هي مذهب للفارس الكامل، وملحمة الاخلاص والوفاء للحب، وقانون للشرف والادب وهي التي ساعدت على خلق نظام اتبعته وراعتة عدة اجيال. وما من بطل روائي فرض الاعجاب بشخصيته على الناس بمثل هذا القدر من البهاء والفخفة كبطل مؤلف اماديس قبل ان يظهر ضون كيخوطي. ففي هذا الاخير يعيش اماديس ثانية الا انه يحطم ما في نفسه من مصطنع ليوطد ما فيها من ازلي، ولا تمس باذى الفكرة العليا التي تسخر العضو المفتول المسلح لخدمة النظام الاخلاقي والعدالة، الا ان غشاوتها المؤقتة تتوارى وقد استحالت الى الف شظية من جراً ملامستها الخشنة للحقيقة الدائمة النقص البعيدة عن الكمال الدائمة الحدود ومع هذا فهي في طور الانبعاث اقل كمالات وحدودا وخشونة منها في القرن الوسيط.

ابصر «ضون كيخوطي» النور في فترة حرجة بين عالم تتداعى اركانه وآخر اخذ يطل على الحياة من خلال حركات غير منتظمة فاذا هو يتأرجح بين التعقل

والجنون بدافع انتقال مستمر مما هو مثالي الى ما هو حقيقى ولئن نظر اليه نظرة واعية ثبت ان جنونه ما هو سوى خبل وهمي بالنسبة الى العالم الخارجي وبعبارة اصح، ما هو الا تكيف وتفسير زائف للوقائع الحقيقية، اذ في اعماق دماغه الطاهر لا تزال تسطع في وميض لا تخبو له جذوة تلك الافكار البلورية الازلية السعيدة التي يتحدث عنها افلاطون. وهذا وان ترك سرفانطيس الحدود غير واضحة بين التعقل والجنون واللقاء افضل الدروس الحكيمة على لسان مخبول ما كانا ليحسبا من حيث السداد والاصابة باقل توفيقا من الامور التي ولج بابها وابدع. ولم يقصد بهذا السخرية من الذكاء البشري. لا ولا تشنيع البطولة التي ما كانت تبدو مضحكة قط في الكيخوطي لولا الطريقة غير المناسبة التي يستعملها البطل لتحقيق مثله الاعلى الجيد في حد ذاته. وليس التطلع الى المثل الاعلى ما يحمل ضون كيخوطى على الغضب بل الفردية الصاخبة الجائعة. ولا يكدر عليه صفاء وينزله منزلة المجانين سوى تلك الفكرة الخاطئة عن النشاط وهي التي تدفعه الى منازلة العالم باقدام وجرأة وتجعل فضيلته ومجهوده كلاشي.

يخر ضون كيخوطى صريعا في النزاع بين الحرية والفاقة لعدم ملائمته مع محيطه غير ان انكساره ليس الا في الظاهر لان امانيه النبيلة لم تمس باذى، وسوف تتحقق في عالم افضل حسبما انذر به احتضاره العاقل المسيحي الى اقصى حد. ولئن كان هذا نوعا ما رمزا في الواقع فيتعذر نكران انه كذلك بالنسبة الينا وعليه يدور معظم اهمية الكيخوطي من الناحية الانسانية، الا انه في نظر المؤلف لا اثر لمثل هذا الرمز بل هو مخلوق ذو حياة كله جمال وروح، هو ابن مخيلته الشعرية المختار، يفرح به ويخلع عليه ابداع صفات الكائن البشري وابهاها. ولم يؤلف سرفانطيس الكيخوطى بالطريقة الرمزية الباردة الآلية وانما الفه بعد ان رأى هذه الطريقة تصعد صعودا مع شعاع العبقرية البديهي المفاجى فاقطفى اثره وسحرته بهرجته ثم توصل الى الرمز من غير ان يبحث عنه او يتعمده واستنزف المكنون الروحي الذي في البطل. رأى سرفانطيس الجمال فاحبه ومتع به ناظريه واما ما تبقى فقد جاءه صاغرا وهذا ما جعل من خرافة فكاھية كان قد ابتدأها كسخرية ادبية لا لسائر انواع ادب الفروسية بل لنوع خاص منه

تتحول بحكم الضرورة المنطقية الى قدح في المثل التاريخي السامى الذي تحدثت عنه تلك الكتب وتواصل تطورها في حلقة من المضادات البهية غير المنتظرة فلا تقتصر على تمثيل الحياة الوطنية تمثيلا كاملا ومنسجما في فترة اوجها المترامى وانحطاطها المهدد بقرب الاناخة، بل تعدتها فاذا بها ملحمة هزلية لبني البشر وكتاب الضحك والحكمة الخالد»



واما النقد الاميركى لكتاب سرفانطيس فحديث العهد جدا، ففي اميركا الشمالية تنبغى الاشارة الى تعليقات تيكنور وبسكوپ وشيفل الاستاذ العالم في جامعة بركيلى، وفي اميركا الوسطى تستحق الذكر دروس سلدياس وفي اميركا الجنوبية ابحاث فورس ثيبايوس ومونر صانص غير اننا سنأتى على ذكر نبذ مما قاله الناقد الشهير امينادورو اوردينينا الذي يعد اقدر وابرع دارسي سرفانطيس في اميركا الاسبانية : «وكما ان هوميرو انتصب بين الشرق والغرب لاشادة حاجز ازلي يفصل بين الابهام السري المسيطر على الديانات الاسيوية والالاهات الكثيرة العدد المطبوعة كل منها بطابع خاص مميز رغم

كثرتها، التي كانت تغص بها سما اليونان، فقد انتصب كذلك
 سرفانطيس بين العصر الوسيط والعصر الحديث اي بين
 عالمين، احدهما قاتم غير ثابت مفعم بالابهام والثاني ساطع
 الضياء راسخ على اساس التعقل والسيادة الشعبية لقد
 شرب هوميرو نخب عصر الفن وحياة القوة الجسدية
 والقوة الاخلاقية، وهياً العالم اليونانى لفتوحات الاقدام
 والذكاء، واما في حضرة سرفانطيس فتضمحل الاساطير
 وميتولوجيا العصر الوسيط الهائلة بما فيها من اقزام
 واغوال ومردة، ويبقى بلا نفس ولا حياة ذلك النوع
 الادبى المضحك الذي تبناه، ثم تظهر اشعة الفن وتنجلي
 قوة فاعلية الذكاء لتنير السبيل امام عبقرية الكاتب
 المرح، فخر الانسانية الذي انما كتابه لملك العقل السليم
 والذوق السليم وحقل الشعور الحصين ومشعل الشعر
 الحقيقى... ضون كيخوطى هذا الكتاب هو التعليق على
 تاريخ البشرية، وعالميته تشمل كافة العصور والوانه
 تنعكس على كافة الوجوه من اعلاها الى اسفلها... ولم
 يكن الكيخوطى قط ذلك النقد الفارغ التافه لعيوبنا
 وشهواتنا بل هو ارفع مقصد واسمى غاية يرمى اليها

الشعر فهذا الذي صانه وجعله يعلو على الحدثان ويظل دائماً الطرفاة في سائر الازمان الخ..»

ورغم كون الكيخوطى لم يترجم في روسيا حتى سنة 1769 ورغم وجود دراسات ذات اهمية لا بد من الاشارة الى بحث قيم لتورغينف تحت العنوان الاتى: «هملت وضون كيخوطى» نقتطف منه هذه السطور: «ان لظهور هملت وضون كيخوطى في آن واحد مغزى كبيرا فهاتان الشخصيتان هما جيد الطبيعة وقفاها، هما قطبان تدور عليهما الارض. او لاينتمى كافة انباء البشر الى هاتين الشخصيتين؟ أليس فينا شىء من ضون كيخوطى وشىء من هملت؟ ومن المؤكد اليوم ان وجود هؤلاء يتعدى بكثير كل حساب غير ان اولئك لم ينقرضوا بعد وسبب هذا انه في كافة العصور والازمنة سيكون طريقتان للتفكير او لادراك المثل الاعلى: احدهما تضعه خارج نطاق دائرة الطبيعة البشرية، والثانية تنزله داخلها ويمكن ان يقال اما «الانا» الذي تفضله اما «الانا» الذي تعزه نوعا فهاتان الطريقتان للتفكير في المثل الاعلى قد التقتا في شخصيتين مختلفتى الاطوار والطبائع الى حد بعيد كما هما عليه هملت وضون كيخوطى

فبادىء ذي بدء علينا ان نقضي على تلك العادة
المألوفة في ان لا يشار الا الى شريف المانتشا، الى الفارس
المشا، الى ذي السحنة الكئيبة، الشخصية التى خلقتها
مخيلة الشاعر ليسخر خاصة من روايات الفروسية. اجل اننا
نعلم ان اهمية هذه الشخصية ارتقت في رعاية وتحت ظل
عظمة من خلقها وابتدعها كما نعلم ان ضون كيخوطى في الجزء
الثانى من الكتاب انما هو سمير الدوقيين والدوقيات
والمشير الحكيم لحامل درعه وخادمه وليست له ادنى
علاقة بضون كيخوطى الذي في الجزء الاول.

فلفهم طبائع المشاء الشهير يتحتم الامتزاج الكلى
بروح الرواية، فضون كيخوطى هو قبل وفوق كل شىء
شعار ورمز، رمز للايمان ولكن للايمان الخالد الازلي
نوعا، للايمان الذي لا يموت ولا يتحول، للايمان بالحقيقة
الخالصة الطاهرة التى تعلو على الفرد، الحقيقة التى تتطلب
التضحيات والتى تبلغ على اثر كفاح طويل ونكران ذات
قوي. وضون كيخوطى هو ذلك الرجل المشرب بحب
المثل الاعلى ولكى يتوصل اليه تراه على استعداد دائما
وابدا لتحمل كل انواع الازدراءات ومقاساة مرارة
الحرمان، انه لعلى اهبة التضحية بحياته انما الغاية الوحيدة

منها هي انها تفسح له المجال للسعي وراء ذلك المثل الاعلى
 ضنا منه في نصرة العدالة والحقيقة. فما يهم ان يكون
 ما اوحى الى البطل هذا المثل الاسمى هي مجموعة
 الخرافات التي تقرأ في كتب الفروسية؟ فلو عاش ضون
 كيخوطي لنفسه لحسب ذلك محلا بمروءته، فلذا قد عاش
 خارج نفسه تماما قد عاش لامثاله، لابناء جنسه، لتخفيف
 وطأة الشر، لمنازلة اعداء البشرية: المردة والسحرة اي
 مضطهدي الضعيف. ضون كيخوطي لايعرف للانانية معنى
 ولا يفكر بنفسه ولا يشعر الا بالتضحية وبنكران الذات،
 انه لرجل مؤمن يتقدم برباطة جأش نحو المثل الاعلى
 دون ان يلتفت لاشمالا ولايمينا، فلهذا هو صبور، ناكِر
 لذاته، حقير اللباس، لايشعر بدافع يحثه على طلب حاجياته،
 سليم القلب ويملك نفسا جبارة شجاعة، وقد يظهر مجنوننا
 اذ ان الواقع يذوب كالشمع على حرارة الحماس فلذا
 يتوهم قطعان الغنم فرسانا مدججين بالسلاح. وفي بعض
 الاحيان يبدو كانه اقل من الوسط، رجل عادي نظرا
 لبهتته في مواضع الشفقة او الفرح وسبب هذا لانه يصعب
 عليه خاصة ان يقفز سريعا من امر الى آخر، انه لشبيه
 بالشجرة المسنة التي لاتسمح جذورها بنقلها من مكانها.

ومتى كون ضون كيخوطي فكرة عن امر ما يستحيل ان يغير رأيه، ورسوخ اعماله الاخلاقية يكسب افكاره قوة وجلاء كما يكسب عباراته التضحية بالذات بغض النظر عن المواقف المضحكة التي يقفها في كل آن وحين.

ضون كيخوطي رجل فقير الحال وفقره يكاد يكون مدقعا، موارده محدودة وعائلته قليلة، انه لشيخ يعيش دون معين ولما كان عبد نفسه كلفها امر اصلاح الامور المعوجة والدفاع عن المضطهدين لغرابة هذه الامور في نظره، فما ان يهمله لو ان فاتحة اعماله الفروسية انزلت على رأس بريء اراد الدفاع عنه مصيبتين بدلا من واحدة وهكذا كان فعند ما يخلص لانديس من القصاص الذي فرضه عليه خوان هلدودو لم يمر بباله انه متى ذهب سيضاعف السيد قصاص الفتى. ولا يترك في نفسه اثرا قيامه بمهاجمة مطاحن هوائية مفيدة بدلا من مرادة جبابرة وقد يطرب القارئ العادي ويصفق لما هو مضحك في الكتاب لا للمعنى العميق الذي يتضمنه وان كان ايمان ضون كيخوطي وسذاجته يقودان الابتسامة طائعة صاغرة الا اننا نتساءل: من ياترى في وسعه ان يؤكد بعد ان

يفحص ضميره فحفا دقيقا، انه دائما وابدا قد توفق الى تمييز طست الحلاق من خوذة ممبرينو؟...

ولئن قبل سانتشو بنشا ببولونيو لابدى الاول ناحية مختلفة كل الاختلاف عن الثانى، يضحك سانتشو من سيده ويعلم انه مجنون الا انه يترك بلدته وعائلته مرتين ليلتحق به متحملا منه كل انواع الازعاج ويظهر مخلصا امينا حتى ساعة احتضار ضون كيوخوطي وله به ثقة عمياء ويبكي على اقدام السرير الذي اسلم فوقه الروح سيده ولا ينبغي لنا ان نبحت عن هذه الثقة العمياء في المنفعة لان سانتشو رجل يحسن وضع الامور في اماكنها ويعرف ان ضون كيوخوطي لن يلقى سوى لكمات وعصوات، ولكن امر هذه الثقة يخضع لهدف اسمى وهذا الهدف هو ما يتكون عند العامة لدى اعتناقهم قضية مشرفة عادلة اعتناقا اعمى ولسانتشو مواضع عمى اخرى كتحمسه لكل ما هو سام وكبير حتى لينسى كل ما يهيمه وهذا يعنى نسيانه لكل ما هو ضروري... ضون كيوخوطي يحب ومحبوبته آنسة خيالية اسمها دولثينايا دلطوبوسو وعلى مذبح حبها يقدم دائما وابدا

حياته قربانا وعند ما يرى نفسه مغلوبا وتضغط عليه
ركبة قاهره، يصيح: «دولثينايا دلطوبوسو اجمل امرأة
في العالم وانا اتعس فارس على سطح الارض، فليس من
المروءة ان يغبن وهني هذه الحقيقة، لزاياها فارس بالرمح
وانتزع منى الحياة ما دمت قد جردتني من الشرف».

المشاة الرحالة الشهير يحب وحبه علوي طاهر لدرجة
لايشك معها قط بعدم وجود مدلول حبه وعند ما تجيئه
محبوبته وقد تحولت الى فلاحه قدرة، لا يصدق ما تراه
عينه ويؤكد ان ذلك التحول انما هو من عمل الساحر
الشرير. ولقد شاهدنا كذلك في الحياة اكثر من رجلين
يضحيان بحياتهما من اجل دولثينايا الخيالية ومن اجل
شيء كبير في معتقدهم عظيم وجميل وعند ما اضمحلت
اوهامهم واصطدموا بالحقيقة عزوا ذلك التحويل الى
الاشرار والى الكوارث بل والى السحرة..

وقال احد اللوردات الانكليز ان ضون كيخوطي
انموذج الشعما ولئن كانت الاداب الرزينة والبساطة
من حلى الرجل المؤدب فضون كيخوطي اول من
يستحق هذا اللقب..

يعرف ضون كيخوطي كيف يحترم كافة المؤسسات:
الديانة، طبقة الاشراف، الملكية وفي نفس الوقت يتوق
الى الحرية ويعترف بحرية امثاله من بني البشر.



وجهت الى سرفانطيس عدة انتقادات لكثرة
العصوات واللكمات التي جعلها تنهال على عاتق البطل
المشأ، واما في الجزء الثاني من الكتاب فلا يضرب قط
الا انه في آخره بعدان يقهره الفارس ذو الهلال الابيض
ويحمله قسرا على التخلي عن مهنته، وقبل ان يموت
بقليل، يجعله عرضة لان تدوسه الخنازير فهذا المشهد
دفع الكثيرين الى توجيه انتقادات مرة الى سرفانطيس
واتهموه بتكرار سخریات سابقة الا ان الانتقادات في
غير محلها نظرا لكون هذا المشهد يلقي نورا موضحا على
عبقريته الموفقة كل التوفيق اذ انه ينم عن معنى عميق
وهوان امثال الكيخوطي يداسون بالاقدام وغالبا ما يكون
ذلك في آخر عهدهم، وما هذا سوى ضريبة لامفر لاصحاب
الرسالة من دفعها الى الغريزة الفظة، الى ذلك الجمهور
الجاهل الذي لا يفهمهم ويبيت وكان الامر لايعنيه، هذه
هي صفقة الفريسي التي بعد ان يذوق طعمها الكيخوطيون

يمكنهم ان يموتوا مطمئنين لمروهم في البوتقة وخروجهم
منها طاهرين مطهرين ثم يفتح الخلود آفاقه امام عيونهم...
همت وضون كيخوطي يموتان ميتة مؤلة ولكن
كم من فارق بين الاول والثاني في الاخير! ان الكلمات
الاخيرة التي ينطق بها هملت جميلة وبديعة، يتدلل
ويطمئن ثم يطلب الى هوراسيو الامين ان يعيش ويكون
حليفا لفورتمبرس ولكن نظرتة لاكتشف المستقبل: «وكل
ما عدا ذلك فسكون» يقول عند الوفاة شاكا ثم يسكت
الى الابد. واما نهاية ضون كيخوطي فتغمر النفس شعورا
غضا وعندئذ فقط تظهر للجميع عظمة نفسه. وعند ما
يقول له حامل درعه معزيا ان استعد نشاطك ونخرج
حالا في طلب المجازفات، يجيبه المحتضر: «رويدا، رويدا!
ليس لعصافير اليوم ان تسكن في اعشاش الامس. قد
كنت مجنونا واصبحت عاقلا، كنت ضون كيخوطي دي
لامانتشا وانا الان، كما قلت، الونصو كيخانو الصالح»
وهي كلمات مفاجئة وهذا الاسم الذي نطق به للمرة الاولى
والوحيدة، يؤثر عظيم التأثير. اجل، هذه هي الكلمة الوحيدة
التي لها قيمة امام الموت وما عداها فهباء يمر: الالقاب، السلطة
والعبقرية التي ترى كل شيء، كل هذا يعود ترابا «وكل

عظيم على الارض يتبخر ثم يضمحل كال دخان الا
الاعمال الصالحة فهي التى تدوم وتدوم اكثر من الجمال.
ولقد قال بولس الرسول ان كل شئ يضمحل ولا يبقى
سوى الحب».



واعتنى النقاد البرتغاليون والامان والفرنساويون
عناية خاصة بدراسة كتاب سرفانطيس من الوجهة
الفسانية واثنوا على عبقرية المؤلف كما اثنى عليها
منندث ابي بلايو والناقد الروسي وغيرهما.
ونكتفي بهذا القدر عن الكيخوطي لننتقل الى
دراسة المؤلفات التى انجلها سرفانطيس في المرحلة الاخيرة
من نشاطه الادبي المثمر.



القصص المثالية

صدرت هذه المجموعة عن مدريد سنة 1613 وفي مقدمتها، بعد ان يامع المؤلف الى اصابته في معركة ليبانطو التي قال فيها انها «اعظم واسمى فرصة اتيح للاجيال المتقدمة رؤيتها ولن تحلم الاجيال المقبلة بمشاهدة مثلها» ينوه بصيغة مؤلفه الاخلاقية في هذه العبارات: «لقد خلعت على هذه القصص اسم الامثال ولئن نظرت اليها مليا لما وجدت واحدة خلت من مثال ذي فائدة... ولئن مر في خلدي ان قراءة هذه القصص قد تفسح المجال لمن طالعها لاثارة رغبة باطلة او ايقاظ فكرة سافلة لكنت افضل قطع اليد التي كتبتها بها قبل ان اطلع بها على الجمهور... لم تعد تسمح لي سني بالاستهتار بالحياة الاخرى..»

ان هذه الاحتياطات الاخلاقية لصديقة في الجملة ولو تعذر امر قبولها بنصها ورفضها في رواية «الزواج الخادع» ولا بصورة من الصور في روايتي: «رنكونتي وكورطاديو» وازاف سرفانطيس حاشية الى قوله هي عين الصواب

الذي لا ينازعه فيه منازع فقال: «وانا أول من كتب الروايات القصصية باللغة الاسبانية..»

واما هذه الروايات فيمكن ان تقسم الى اربعة انواع:
اولا - التي هي من ابتكاره الصرف وعلى طراز النمط الايطالي وهي او هي رواياته واقلها قيمة ومنها:
«المحب المتهتك، قوة الدم، والسيدة كورناليه».

ثانيا - يدخل في هذا القسم الروايات التي يستطعم فيها الطعم الواقعي والشئ الكثير من البلاط الايطالي وتنضوي تحت لوائها الروايات الاتية: «العجربة الصغيرة، الاسبانية الانكليزية، والفتاتان»

ثالثا - تنتمي الى هذا القسم الروايات ذات الصبغة الواقعية، والتي تكثر فيها الحواشي التعريضية وهي من افضل الروايات اذ فيها يطاء سرفانطيس حقلا خاصا به وهو سيد لايجارى في هذا المضمار، ومن هذه الروايات: «رنكونتي وكورطاديو، والماسحة النبيلة، والزواج الخادع والغيور الاسترمانى»

رابعا - ينضم الى هذا القسم مؤلفان غريبان ليسا من الروايات كما يفهم من كلمة رواية غير ان قيمتهما عظيمة فائقة وهما: «المتخرج فيديارا، ومناجاة الكلاب».

الحب المتهتك

من اهم ما يلفت النظر في هذه الرواية وصف
التعاسة والاطار والخانات التي يستهدف لها الاسارى
في الجزائر

يعود سرفانطيس في هذه الرواية وفي الاسبانية
الانكليزية وفي تاريخ الاسير في الكيخوطي، الى استخراج
مشاهد الاسر التي تذوق طعمها هو نفسه.
فالحب المتهتك من اضعف رواياته واقلها قيمة.

العجربة الصغيرة

«برثيوسا مدربة على الرقص والغناء وغير ذلك من
الفنون العجربة، امتلكت القلوب وسحرت الالباب بخفة
دمها وجواباتها السريعة الحاذقة، يكلف بها ضون خوان
دي كركمو، وهو فارس شاب، ويرضى بالشرط الذي تفرضه
عليه لتصدق حبه لها وهو ان يترك والديه وثروته
ويتخلى عن مقامه الاجتماعي ويلتحق بها ويشاطر حبيبته
حياتها التائهة مدة معينة فيتخذ اسم اندرس كيارو عوضا
عن اسمه الاول يلقي عصا الترحال في مكان بالقرب
من مرسية حيث تكلف الفتاة خوانا كريدوتشا ابنة صاحبة
الفندق كلفا يكاد يكون جنونا بالعجربة الكاذب،

فتبوح له بلواعج غرامها وتطلب اليه ملحة ان يتزوج منها منتح وتصمم هي على الانتقام منه لاذرائه اياها فتتهمه بالسرقة، وعند ما يلقي القبض عليه يشتمه ابن رئيس بلدية ذلك المكان، فيقتله اندرس ويذهب وكافة الغجر الى سجن مرسيه حيث يتضح امر برثيوسا فاذا بها ابنة حاكم اثيفيدو، وكانت قد خطفتها وهي حديثة السن العجرية العجوز التي تعهدتها وعلمتها ضروب الرقص. واخيرا يتضح كذلك امر اندرس كبيارو (اي خوان كركمو) فيزوج من برثيوسا كما يتزوج مناسيس من ضونيا كونسطنثا دي اثيفيدو.

اشار السنيور ايكاثا الى مقطع في «مناجاة الكلاب» يتحدث عن اصل الكوندي المزعوم بين النور وهو الحادث الذي سكب سرفانطيس في قالب روائي في العجرية الصغيرة.

واما البيئة والصفات في العجرية الصغيرة فتنتهي الى المثل الاعلى انتماء قاطعا وهذا ما يدينها نوعا من طراز «لاغلاطيه» وغيرها من الروايات المختصة بالرعيان ولشخصية برثيوسا شبيهات في «طرسيانا» من كتاب

ابولونيو، وفي «بطرانوالو» لطيمونيدا وعند بعضهم في «لا اسميرالدا دي نوטר دام دي باريس» ليفيكتور هيغو.
الاسبانية الانكليزية

ابرز نواحي هذه الرواية وصف البلاط الانكليزي والملكة وكون المؤلف تعمد اظهار الميول المثالية المحضة وذلك من جعله حب ريكردو لايزبالا يدوم بعد ان ذوى جمال جسدها. ففي هذه الرواية بزغت شمس سرفانطيس كوصاف للرحلات البحرية كما ظهرت شخصيته الفذة ممثلة في الاشخاص

الفتاتان

«فتاتان متحليتان بصفات حميدة، تغادران منزل والديهما بلباس الرجال وتتجشمان الاخطار والاهوال للالتحاق بالرجلين اللذين علق في شراكهما قلب كل واحدة منهما ثم تعودان بصحبة زوجيهما ولم تحيدا - في كل هذا - قيد انملة عن ارفع درجات الرقة والرفعة الخالصتين»

رنكوستي وكورطاديو

«رنكون وكورطادو، فتیان شريدان عمرا الاول خمس عشرة سنة والثاني ست عشرة سنة، يلتقيان ذات يوم من ايام

الصيف في فندق محلة مولينيو. كلاهما ظريف في ثياب رثة، يلعبان الورق مع أكار فيغشانه ويربحان قدرا من النقود، ثم يصلان اشبيلية حيث يتصلان بحمالة القفف فينضمآن الى هذه المهنة ويدخلان في خدمة طالب وجندي فيخطفان محفظة نقود الاول ويتعرفان الى فتى آخر من حملة القفف اسمه غنتشوالو. فينصحهما ان يقدمآ دار مونيبوديو رئيس اوباش اشبيلية ويسجلا اسميهما ويحضر الى تلك الدار لصوص آخرون بعضهم لا يقترب ذنبا ولا يسرق نهار الجمعة ثم يظهر مونيبوديو وهو طويل القامة، اسمر الوجه مقرون الحاجبين، اسود اللحية غائر العينين. اسوأ واغلظ حلاق في العالم» يختبر وينصح ويقبل في المدرسة الاجرامية دخول رنكون وكورطادو، وينذر احد الجواسيس بقدوم مامور السلطة فيسكن مونيبوديو روع الحاضرين طالما المأمور صديق جاء ليأخذ كيس نقود مسروقا الامر الذي لم يكن في علم الزملاء سابقا. ثم تدخل العرصة لاغنتشوسا وفتاة اخرى من النساء المقاتلة، وكلاهما صديقتا تشيكيثناكي ومنيفرو الزميلين البطلين الحاضرين ثمة حيث اولموا وتظهر كاريرطا وقد كست جسدها القروت وهى تشكي من العصوة التى اذاقها

طعمها ربوليدو، فيوآسيها مونيبوديو وينصحها غير ان الشابة تصرح بحبها لربوليدو رغم الم العصوة وتقول بانها ذاهبة لتبحث عنه. ويراقب رنكوتتي بعض الزملاء القديما او اللذين يتجسسون لمصلحة الجمعية، ثم يصل ربوليدو وتحدث مشاجرات مع كاريهرطا والبطلين فيوفق بينهم مونيبوديو الرزين فيقام احتفال ويرقصون ويعزفون وتغني غنثيوسا وينشد معها الآخرون وتلمح كاريهرطا الى عصوتها بقولها:

«رويدك ايها الغضوب ولا تفرط في عصوتي

اذ لو نظرت مليا لاتضح لك انك تفرع جسدك»

وهنا يسرع احدهم ليسال فيما اذا كان قد طعن التاجر اربع عشرة طعنة في وجهه فيجيب تشيكيثناكي انه اضطر الى طعن الخادم لا السيد لضيق وجه هذا الاخير وعدم اتساعه لتحمل الطعنات المذكورة، ثم يتشاجرون في شأن الاجور ويعود الرجل الى مطالبة التاجرة فتسلمه سلسلة ذهبية ومن بعد تقرأ لائحة المطلوبات المفروغ منها والمدفوعات الى الجمعية المحترمة اي مذكرة الطعنات التي ينبغي ان تنفذ خلال هذا الاسبوع الخ.

يوزع مونيبوديو على الجميع اربعين ريالاً ويعين حيا

لكل من رنكون ورفيقه، ثم يأتيهم الانذار بوصول لوبيو المالقي الى اشبيلية «الذي بورقة لعب مجرد رئيس الابالسة من نقوده» ويعلنون انهم سيعقدون الاحد القادم مجلسا جديدا،

ان هذه الرواية تشكل لوحة فائقة الابداع من حيث دقة الملاحظة واصابة اظهار الصفات الحقيقية الواقعية لحياة اللصوص في اشبيلية في السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر

اجاد سرفانطيس كل الاجادة في وصف مونيبوديو والاخلاق التي تنتمى كلها الى الحياة الشريرة المطبوعة بتحلى الاشخاص بطابع خاص ومغزى مجرد ولا سيما مونيبوديو الذي جاء وكأنه صورة من صور فلاثكت او ريشة غويا،

ولقد ميز منندث اي بلايو ببراعته الخارقة عدة اساليب واخراجات في حقل الادب اللصوي الاسباني في ذلك الزمن في بحثه ووصفه لروح واخلاق رنكوتتي فقال: «تجري في صفحات الرنكوتتي بهجة طافحة وسرور منيروشي» مما يسمى بالغفران الجمالي الذي يطهر كل ماهو بغيض واجرامي في القلب ومن غير ان يمس

الاخلاق يحول الى مشهد مسل وفكه، وبمقدار ما تختلف طريقة مشاهدة وملاحظة حياة اللصوص التي راقبها سرفانطيس وسدد اليها نظره العلوي، يتنوع اسلوبه الى حد بعيد، ذلك الاسلوب الجري السهل في رنكونتسي، الجاف المعير عند لاثاريو، اللفظ الخديع المرير عند ماطيو المان احد الكتاب البارزين المحلقين الا انه يبعد كل البعد عن سرفانطيس من حيث المغزى والمبنى حتى ليظهر وكأنه لم يكن من معاصريه ولا من اللذين يقتربون منه او يمتون اليه بصلة ادبية»

الماسحة النبيلة

شابان صديقان ضون طوماس دي افندانو وضون ديغو دي كرياثو، بدلا من ان يذهبا الى طلمنكة ليتابعا دراستهما، يذهبان الى فندق الاشبيلي في طليطلة حيث يكلف دي افندانو بكونسطنثا الحسناء، خادمة الفندق ويطلب من صاحب الفندق ان يقبله في خدمته ولما كان صديقه كرياثو ميالا لحياة التشرذ والمجازفات وكى لا يترك رفيقه، يقتني حمرا ويتعاطى مهنة السقاية ويتضح امر الماسحة الجميلة ويعترف بها والدها. فاذا بها فتاة نبيلة، ويتزوج الفتى المتخفى افندانو من الماسحة النبيلة».

الزواج الخادع

كتبها سرفانتيس كتوطئة لمناجاة الكلاب .

الغيور الاسترمانى

درس عميق للنفسية الشهوانية .

المتخرج فيدريارا

« الطالب طوماس رودا خا يتجند ويذهب الى ايطاليا ثم يعود الى طلمنكه لمتابعة دروسه القانونة . تكلف به احدى السيدات ولما لم يصغ فيدريارا لنداء قلبها التجأت بنصيحة امرأة منحدره من اصل اسلامي الى الشعوذة لكسب ارادة من تهوى . يمرض فيدريارا مرضاً ادناه من الموت وتهرب المرأة ثم يبيل الا انه يصاب بالجنون ويخال نفسه من زجاج ويوصى الناس ان لا يمسه لئلا يتحطم ومع هذا فهو ذكى حاذق وأجوبته دامغة . وبعد انقضاء سنتين يعود الى رشده بفضل معالجة أحد الرهبان له ويذهب الى فلندس . »

تقتضى الاشارة الى ناحيتين مختلفتين في هذه الرواية الاولى حياة الاسفار التى تهذب الرجال الرزنا ، والثانية الاجوبة الحاذقة وهذه أهم من الاولى لانها تكسب الرواية ميزة خاصة الخ .

مناجاة الكلاب

يلاحظ في هذه الرواية الفريدة الغريبة البديعة عوامل معقدة مشتبكة فلكل كلب صفاته الخاصة : ففي برغثا الخيال وفي ثيبون الرزاة والوقار.

ولقد قال خصمه لوبي دي بيغا في هذه الروايات: «لم تنقص سرفانطيس الظرافة ولباقة الاسلوب، وقال عدوه اللدود افينادا في مقدمة الكيخوطي: «ان هذه الروايات لانتقادية أكثر منها مثالية، واسمى تريودي مولينا مؤلفها «بوكاثيو اسبانيا»

وجاء في كتاب وجهه غوت الى شيلز: «ان هذه الروايات انما هي كنز بهيج ثقافي تهذيبي ويعرب عن سروره لكون المؤلف الاسباني قد تتطرق الى نفس المبادي الفنية التي يعتمد عليها في انتاج مؤلفاته الخ.» تكثر في الروايات المثالية الشواهد التاريخية العميمة الفائدة التي تكشف النقاب عن عوائد ذلك الزمان ولا غرابة في هذا نظراً لميول المؤلف الواقعية.

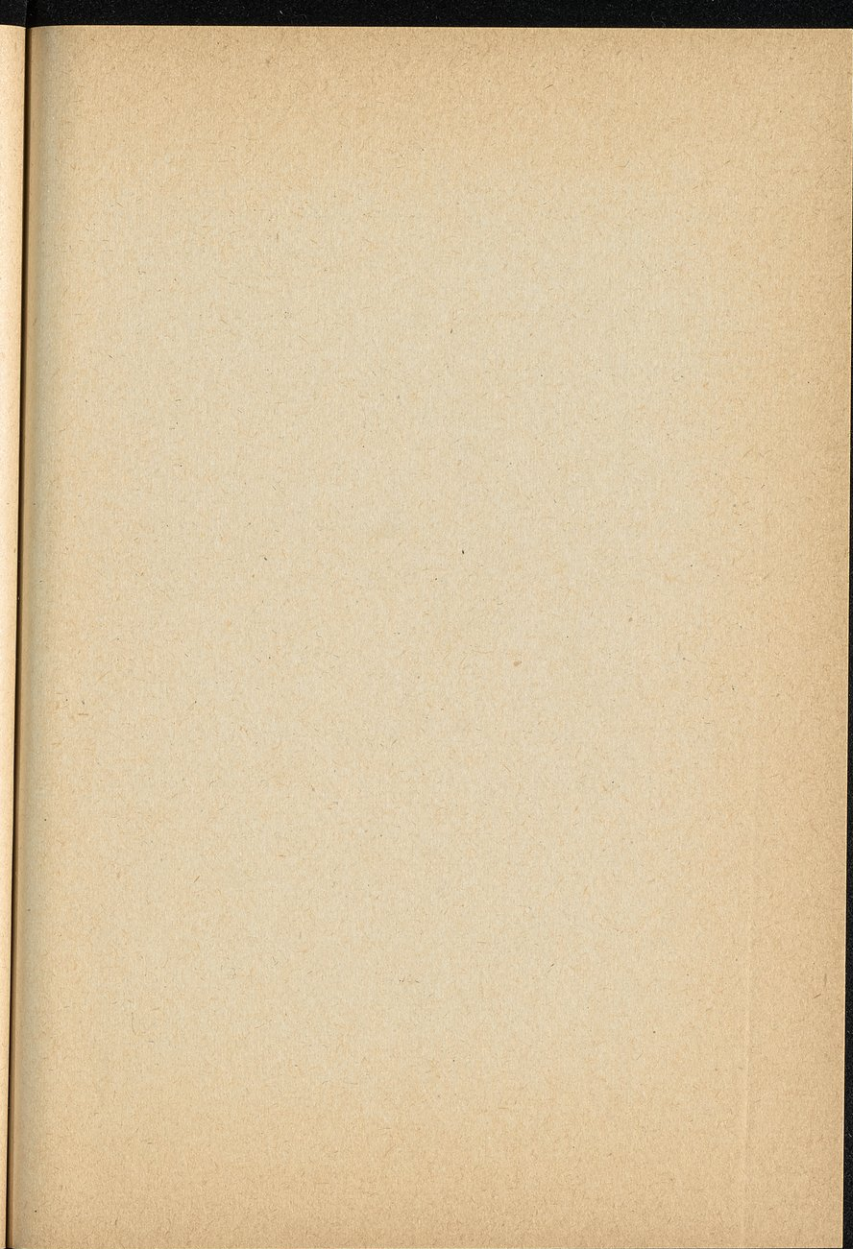
برسيلس

آخر مؤلفات سرفانطيس قدمه الى الكوندى دي لاموس أربعة أيام قبل وفاته ويقول في المقدمة: «رجلى في

الركاب وفي صدرى غصة الموت... أمس أعطيت لى الاسعافات
الاخيرة واليوم أكتب هذه، الوقت ضيق والغصة تشتد
والامل يقل ومع هذا تنازعنى رغبة البقاء، وكم اود ان
ارجى هذا ريثما أتمكن من تقبيل أقدام سعادتكم.»

واما البرسيلس فمقتبسة من الرواية البيزنطينية
وتستطيع في نظر مؤلفها «ان تضاهى هليودورو» وقد تكون
أردأ أو أفضل ما ألف في لغتنا واعني المؤلفات المسلية»
وحقيقة الامر فالرواية لم تكن حسبما ارادها
سرفانطيس ان تكون، فيها بعض حوادث حافلة بنزعة
الفروسية وبوصف حياة الرعيان، وتكثر فيها كذلك الحواشي
عن حياة سرفانطيس نفسه الا انها غامضة نوعا، وقد
أثرت هذه الرواية في الادب الذى جاء بعدها.

(انتهى)



فهرس

صفحة

7 - مقدمة

11 - توطئة

القسم الاول

17 - حياته

الفصل الاول

20 - اين ولد سرفانطيس؟

22 - قلعة هناريس

24 - عائلة سرفانطيس

25 - في اشبيلية

28 - مدريد

30 - الانتصار الاول

32 - ايطاليا

25 - سرفانطيس جندي في جيش ايطاليا

37 - الخطر التركي - ليسانطو

44 - بعد المعركة

45 - سرفانطيس جريح - عودته الى الجيش

46 - سرفانطيس يعود الى الميدان الحربي

49 - في نابولي

52 - الرحيل

الفصل الثاني

59 - في الاسر

60 - الجزائر

65 - المحاولة الاولى

67 - مساعي عائلة سرفانطيس لافسكاكه من الاسر

70 - اقتداء روديغو - المحاولات الجديدة

75 - امل يخيب

82 - المحاولة الثالثة

88 - المحاولة الرابعة

96 - في طريق الحرية

99 - سرفانطيس يجمع البينات على نبل تصرفه

في الاسر

الفصل الثالث

104 - سرفانطيس يطأ تراب الوطن

106 - في مدريد

- 110 - في البرتغال - اسناد مهمة سرية الى سرفانطيس
 114 - العودة الى مدريد
 116 - زواج سرفانطيس
 118 - سرفانطيس ينصرف الى المسرح
 121 - سرفانطيس يعود الى اشبيلية
 123 - سرفانطيس يعين مفوضا لتموين الجيش
 129 - سرفانطيس يحلم باميركا
 134 - عودته الى مفوضية التموين
 136 - سرفانطيس في السجن
 143 - في اشبيلية
 147 - اسطورة ارغاماسيا

الفصل الرابع

- 152 - سرفانطيس في بلد الوليد
 156 - في طليطلة
 150 - ظهور الكيخوطي
 160 - دعوى اسبيليطا
 165 - سرفانطيس يستقر في مدريد
 170 - سرفانطيس يتشوق لزيارة نابولي

- 174 - سرفانطيس يشترك بمباراة شعرية
 176 - صدمة جديدة - انهاء القسم الثانى من
 «ضون كيخوطى»
 178 - المرحلة الاخيرة - مرضه ووفاته

القسم الثانى

183 - مؤلفاته

الفصل الاول

- 186 - ظهور سرفانطيس في «عكاظ»
 187 - لاغلاطية

الفصل الثانى

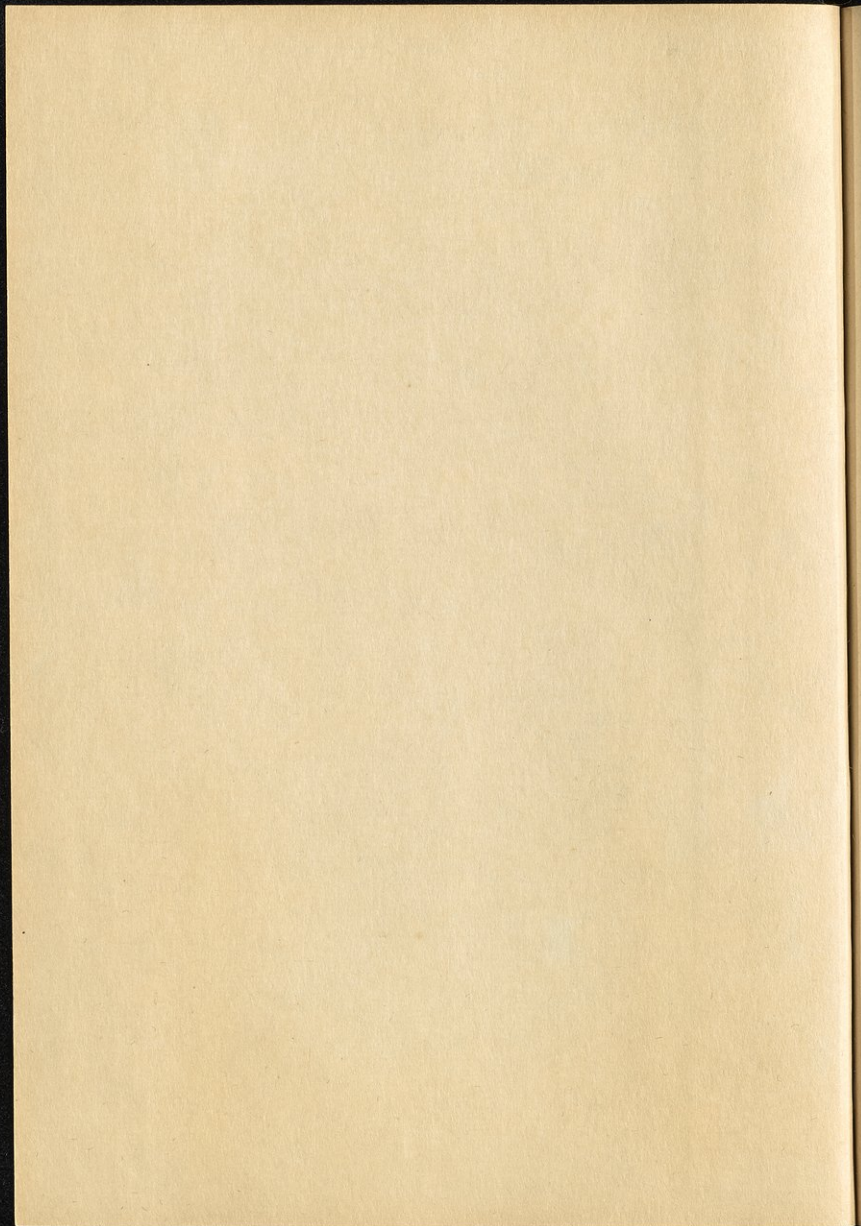
197 - شاعرية سرفانطيس

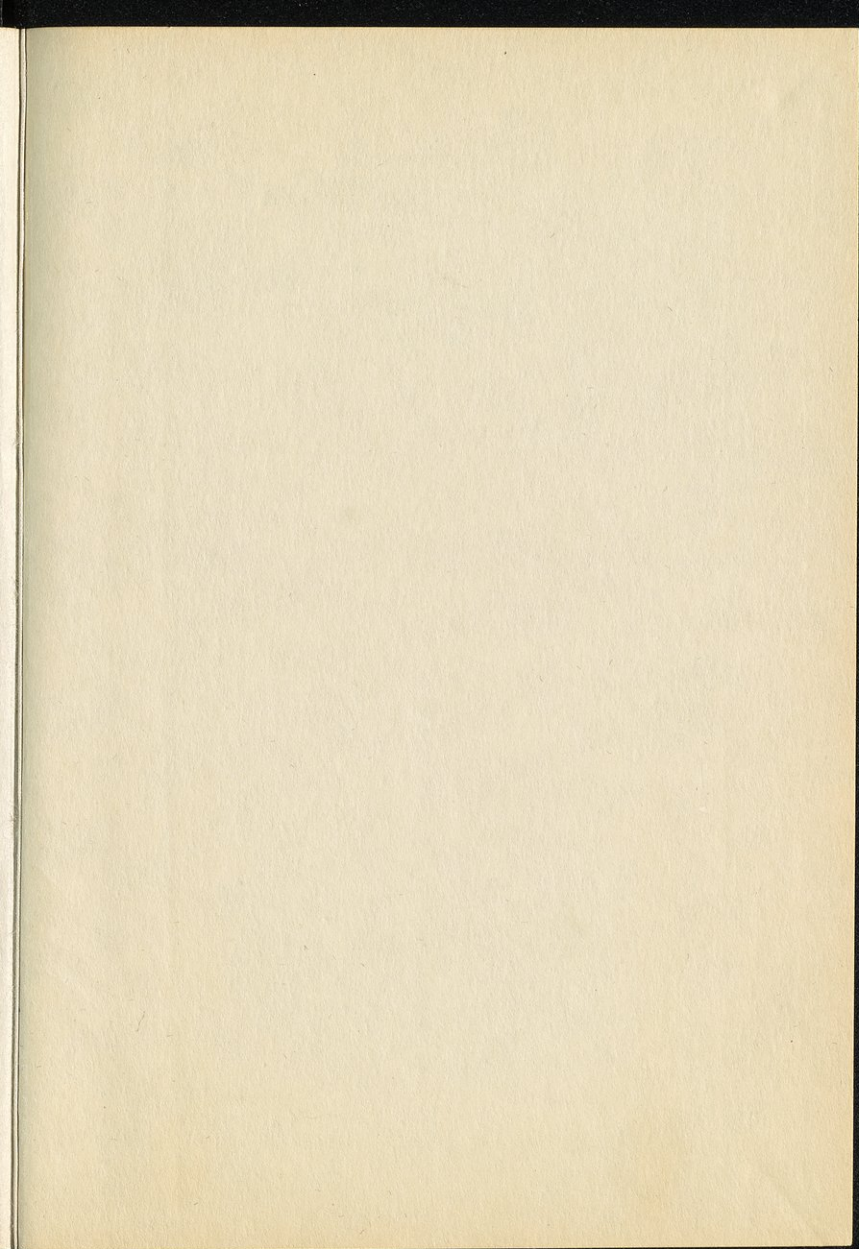
الفصل الثالث

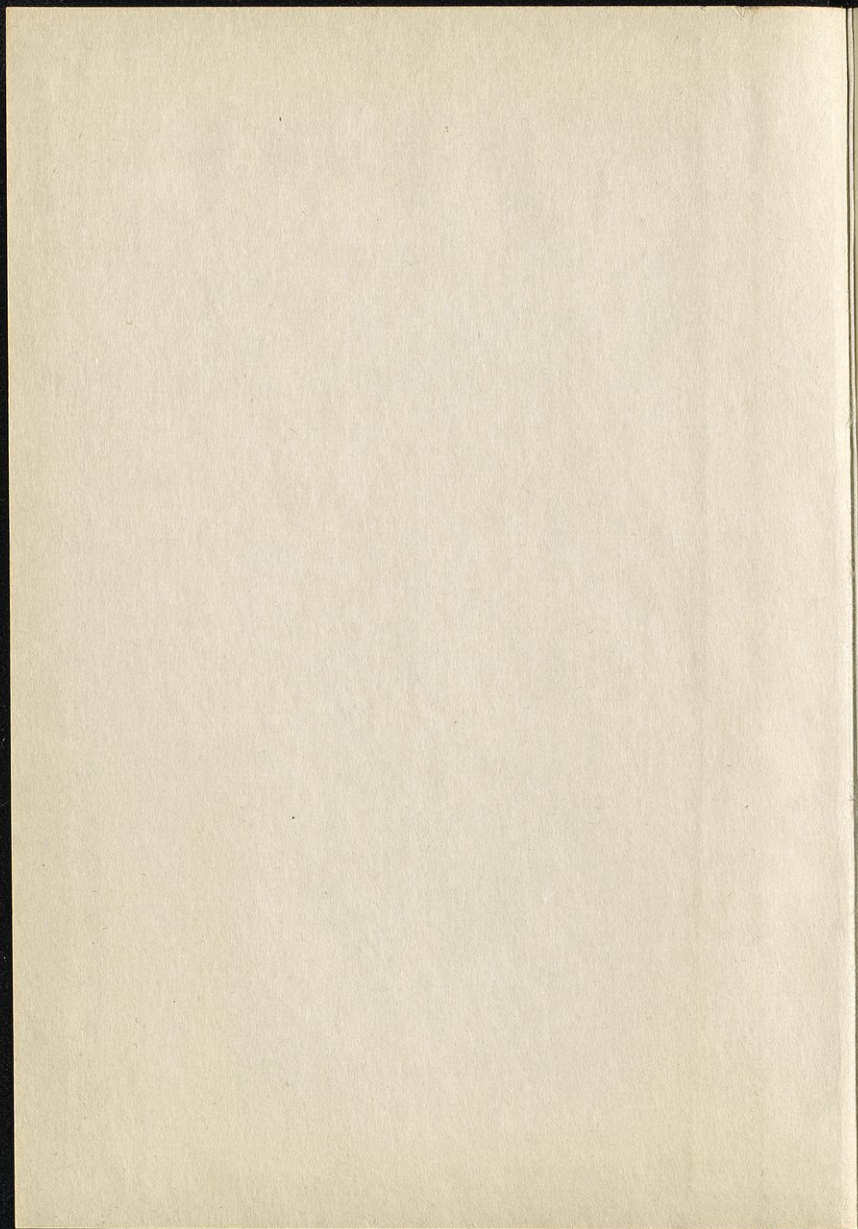
- 204 - مسرحيات سرفانطيس
 207 - معاملات الجزائر
 209 - حمامات الجزائر
 210 - السلطنة العظيمة
 212 - بدرودى اوردمالس - الامل السعيد

- 218 - نومانسيا
- 222 - المسرحيات القصيرة
- 224 - المؤلفات المنسوبة الى سرفانطيس
- الفصل الرابع
- 228 - ضون كيخوطي
- 232 - I ظهور الكيخوطي وقت جنوح شمس
- رواية الفروسية الى الغروب
- 253 - II نجاح كتاب سرفانطيس - شيوعه في اسبانيا والخارج - قضية جس النبض - بعض النظريات التي زعم اكتشافها في الكيخوطي
- 266 - III ابرز شراحه - مترجموه - صورته الفنية
- 294 - IV موضوع الكيخوطي
- 311 - V اشخاصه
- 322 - VI روايتا الكيخوطي - الفضولي الممل والاسير
- 327 - VII تقليدات الكيخوطي
- 334 - VIII ضون كيخوطي في المسرح

IX -	الصحافة وضون كيخوطي	339
X -	الكيخوطي والنقد الوطني والاجنبي	341
-	القصص المثالية	358
-	برسيلس	368
-	فهرس	371







86C33

BM4

86C33

BM4

Mulham

Sirfantis.

AUG 15 1949

BINDER

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



1000368237